أنّا كارنينا

الكتاب : أنّا كارنينا

الكاتب : ليو تولستوى.

الفئة : أدب - رواية .

رقم الإيداع : 2025/19242

الترقيم الدولي : 978- 633- 8330- 22- 4

جميع الحقوق محفوظة للناشر©

وأي اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية يُعرِّض صاحبه للمُساءلة القانونية،
والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالكاتب فقط لا غير.

أنّا كارنينا

ليو تولستوي

الفصل الأول

-1-

العائلات السعيدة تتشابه أفراحها وتشترك أسباب بهجتها، أما العائلات التعيسة، فلكل منها مأساتها الخاصة، وسر شقائها الذي لا يشبه سواه.

وكانت أسرة أوبلونسكي غارقة في الفوضى، تمور فيها الرياح المضطربة من كل صوب؛ فالزوجة قد اكتشفت خيانة زوجها، وعلمت بارتباطه الآثم بفتاة فرنسية كانت تعمل مربية لأطفالهما. واجهته بالحقيقة، وأخبرته أنها لن تقوى على العيش معه تحت سقف واحد بعد اليوم. ومنذ ذلك اليوم، تأزّم الموقف بينهما، واستمر التوتر يخنق أجواء البيت لثلاثة أيام، أدرك خلالها الجميع . من أفراد الأسرة إلى الخدم . أن دوام الحال محال، وأن انفجاراً وشيكاً بات يلوح في الأفق.

فالسيدة اعتكفت في مخدعها لا تغادره، بينما آثر الزوج أن يهجر غرفة النوم، متسكعًا بين أرجاء البيت، لا يجد إلى الراحة سبيلاً. أما

الأطفال، فقد استغلوا غياب السلطة وانهماك الكبار في صراعاتهم، فأخذوا يملؤون المنزل صخبًا وعبثًا. وسئمت المربية الإنجليزية الجديدة حال الفوضى، ودخلت في مشادات متكررة مع مدبرة المنزل، حتى كتبت إلى إحدى صديقاتها ترجُوها أن تعثر لها على عمل آخر.

الطاهي أيضًا، لم يحتمل التوتر، فغادر فجأة في ظهيرة اليوم السابق دون سابق إنذار، وتبعته مساعدته بإنذار مماثل بالرحيل، وكذلك فعل الحوذي!

وفي صبيحة اليوم الثالث من اندلاع الخلاف، استيقظ الزوج، الأمير ستيفان أركاديفتش أوبلونسكي . أو "ستيفا" كما يُعرف في دوائر المجتمع الراقي . في الساعة الثامنة كعادته، إلا أنه لم يكن في مخدعه، بل كان ممددًا على أريكة جلدية في مكتبه. لم يهمّ بالنهوض في بادئ الأمر، بل استدار بجسده الممتلئ على جنبه الآخر، ودفن وجهه في الوسادة، محاولًا استعادة دفء النوم. لكنه ما لبث أن انتفض جالسًا فجأة، وأخذ يسترجع في ذهنه بقايا الحلم الذي غمره في نومه العاصف.

ولمّا تذكّر "ستيفان" حلمه، لمعت عيناه ببريق طفولي، وارتسمت على وجهه ابتسامة مشرقة، فيها من الجذل ما لا يتناسب مع حاله، وكأنما نسي في لحظة عابرة ما تمر به أسرته من عاصفة. دلّى قدميه الممتلئتين عن الأريكة، وأخذ يتحسس بهما الأرض بحثًا عن خفيه المحبوبين، اللذين أهدته إياهما زوجته في عيد ميلاده الأخير، وقد خاطتهما بيديها من جلد ناعم بلون الذهب الدافئ.

مدّ يده كعادته ليأخذ رداء الغرفة و"الروب دي شامبر" الذي طالما اعتاد أن يجده بجانبه في كل صباح، لكن سرعان ما ارتسمت على وجهه علامة انزعاج، إذ تذكّر أنه نام في مكتبه لا في مخدعه، فعبس وهمهم في مرارة:

"إنها لن تغفر لي... الذنب ذنبي وحدي"!

لقد عاد من المسرح في تلك الليلة وهو مفعم بالمرح والانشراح، يحمل بين يديه ثمرة كمثرى كبيرة، أراد أن يُهديها لزوجته كما اعتاد أن يُلقي إليها بين الحين والآخر شيئًا من فتات حنانه، لعلّه يُلهيها عن الغياب الذي تكرّر وعن الخيانات التي بدأت تتسرب خيوطها إلى يقظتها.

لكنه لم يجدها حيث اعتاد أن يراها جالسة في غرفة التدخين، ولا في غرفة المكتب، بل وجدها أخيرًا في مخدعها، جالسة كتمثال من رخام، جامدة القسمات، وفي يدها الرسالة المشؤومة التي كشفت لها عن صلته بالمربية الفرنسية!

رفعت عينيها إليه بنظرة مزيجها الرعب والاحتقار واليأس، ثم حوّلت بصرها إلى الرسالة، وأخيرًا نطقت بصوت مرتجف لكنه آمر:

"ما معنى هذا؟ أجبني"!

وفي لحظة كهذه، لم ينبض الألم في قلب "ستيفان"، لم ينبثق منه ندم، لم يحاول أن ينكر، أو يبرر، أو حتى يتوسل الصفح، بل ارتسمت على وجهه تلك الابتسامة المعتادة، المشرقة الخالية من المعنى، والتي كانت تُضحك بها الأوساط الراقية في حفلاتهم، لكنها هنا لم تكن إلا غباءً فجًّا لا مكان له.

كان "ستيفان أركاديفتش" قد تجاوز الرابعة والثلاثين بقليل، يكبر زوجته بسنة واحدة، وقد أنجبت له خلال تسع سنوات من الزواج سبعة أبناء، مات منهم اثنان. كان صريحًا مع نفسه إلى حد السذاجة،

لا يعرف الالتفاف على الحقيقة، ولا يقدر على الادعاء بأنه يشعر بالندم، حتى في هذه اللحظة لم يستطع أن يزعم لنفسه أنه يحب زوجته أو يشتاق إليها.

راح يتمتم في داخله:

"يا للهول!.. ما أبشع هذا!.. ماذا أفعل الآن؟ لقد كانت الأمور تسير بهدوء.. كانت هي قانعة، راضية بأولادها، وأنا لا أتدخل في شؤون البيت ولا الأطفال. صحيح أن من غير اللائق أن تكون زوجتي في مقام المربية، ولا أن يغازل المرء مربيته.. ولكن، يا لها من مربية ساحرة"!

بهذا التناقض الساخر، يجمع "ستيفان" بين شعور خافت بالذنب، وبين انجراف لا واعٍ نحو المتعة العابرة، فلا يملك من أمره إلا أن يعترف داخليًا بعجزه عن الإصلاح، أو حتى عن الإحساس الحقيقي بالخطيئة.

ونهض "ستيفان أوبلونسكي" من مكانه وقد غمره شعور بالتحفز الممزوج بالحذر، فارتدى رداءه الرمادي المصنوع من نسيج ناعم تتخلله خيوط حريرية زرقاء، وعقد حزامه بإحكام على خصره، كأنما

أراد أن يعيد لنفسه هيبتها المترنحة. ثم جذب نفسًا عميقًا ملأ صدره العريض المكشوف، وسار إلى النافذة بخطواته الثابتة الواثقة، تلك التي طالما ميزته بين أبناء طبقته، ورفع الستارة الثقيلة باستخدام الحبل المعلق في إطارها، فاندفعت أشعة الصباح إلى الغرفة.

دق الجرس، فجاءه خادمه القديم الوفي "ماتفي" — رجل تعوّد خدمة سيده بحضور هادئ ونظرات لا تخلو من حكمة خفية — يحمل بين يديه بذلة اليوم وحذاءه، ومعهما برقية. وخلفه مباشرة دخل الحلاق، وهو يحمل أدواته بإتقان الرجل الذي يعرف ما يُنتظر منه دون حاجة إلى أوامر.

وما إن جلس "ستيفان" إلى المرآة وأخذ البرقية من يد خادمه، حتى سأله وهو يمرر بصره على السطور:

"هل وصلت أوراق من المكتب؟"

فأجاب "ماتفي"، وهو يلقي عليه نظرة جمعت بين التعاطف والقلق الصامت:

"نعم، يا سيدي... إنها على المنضدة".

وما إن انتهى "ستيفان" من قراءة البرقية حتى تهلّلت ملامحه، وهتف في فرح صادق:

"ماتفي!.. أختي (آنا) ستأتي غدًا!"

فأجاب ماتفي دون تردد، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة فيها من الإيمان ما يُفهم منه أنه يشارك سيده الأمل:

"الحمد لله!"

وكأنما أراد بذلك أن يعلن أنه، هو الآخر، يدرك مغزى هذه الزيارة: أنها ليست مجرد زيارة اجتماعية، بل محاولة جادة لرأب الصدع، ومسعى للتوفيق بين الزوجين، وخصوصًا أن "آنا" لها مكانة خاصة لدى زوجة "ستيفان"، وربما كانت الوحيدة القادرة على تليين قلبها.

وبعد لحظات، وبينما كان الحلاق يُمرر موساه على شفته العليا بعناية، سأل "ماتفي" بصوت خفيض:

"هل ستحضر وحدها... أم يأتي معها زوجها؟"

لكن "ستيفان" لم يستطع أن يجيب بصوت، إذ كان فمُه مشغولاً بالموس، فاكتفى بأن رفع سبابته، إشارةً إلى أنها قادمة وحدها.

وكانت الإشارة كافية لتُفهم، بل أكثر بلاغةً من أي كلام، إذ أكدت ما كان يأمله: أن زيارة "آنا" تهدف إلى شيء واحد ...إصلاح ما يمكن إصلاحه.

-2-

كان "ستيفان أوبلونسكي" رجلًا مسالمًا بطبعه، يألف الناس ويألفونه، تجمعه بأغلبهم صلات ودّ خفيفة الظل، لا يثقلها تكلف ولا يقيّدها بروتوكول. ينادي الجميع بأسمائهم الأولى دون حرج، لا يفرّق في ذلك بين شيخ وقور بلغ الستين، وشاب مراهق في العشرين؛ بين ممثل جوّال، ووزير مرموق؛ بين قسيس متجهم وتاجر طموح، أو ضابط كبير في الجيش... فقد كان قريبًا من الجميع، وكأنما في طبعه شيء يجذب القلوب إليه بلا عناء.

وكان صديقًا حميمًا لكل من شاركه كأسًا من الشمبانيا — وكان يشرب الشمبانيا مع أي إنسان تقريبًا! — فإذا ساق إليه القدر أحد أصدقائه من ذوي "السمعة السيئة" كما يحب أن يصفهم ممازحًا، ولم يكن ذلك نادرًا، فإنه كان يعرف كيف يخرج من المأزق بلباقة خفيفة، دون أن يحرج نفسه ولا الحضور، بل وبما يزيده هيبة في نظر مرؤوسيه، لما أوتي من طبع مرن وروح خفيفة.

ولم يكن "كونستانتين ليفين" من أولئك "السيئي السمعة"، بل كان رجلًا محترمًا، ذو خلق فطري، وإن بدا غريب الأطوار في أعين البعض. ومع ذلك، فقد أحس "أوبلونسكي" — بحساسيته المرهفة — أن "ليفين" يتعمد ألا يُظهر عمق صداقتهما أمام الآخرين، وكأنه يخشى أن يُفسر ذلك خطأ أو يُضعف من هيبته بين موظفيه. لذلك، ما إن دخل "ليفين" إلى مكتبه في ذلك اليوم، حتى نهض "ستيفان" إليه مسرعًا، وقاده مباشرة إلى الغرفة الجانبية الخاصة، حتى دون أن يُتبادلا التحية.

وكان "ليفين" في مثل عمر "أوبلونسكي"، ولم تكن صداقتهما وليدة مجلس خمر أو لقاء عابر، بل تعود إلى أيام الصبا، حين جمعتهما مقاعد الدراسة، وربطت بينهما زمالة قديمة ازداد بها كل منهما ولعًا بالآخر، رغم ما بين شخصيتيهما من تناقض ظاهر: "أوبلونسكي" ابن المدينة، المترف، الاجتماعي، الخفيف، و"ليفين" القروي النزعة، الجاد، الباحث عن الحقائق الكبرى، الصادق حتى الفظاظة أحيانًا. لكن كعادة الزملاء القدامى، كان بينهما ودٌ لا يفسده اختلاف الطبع ولا تباين المسار.

ومع ذلك، ظل كل منهما في دخيلة نفسه يزدري مهنة صاحبه، وإن أظهر لها الاحترام في العلن، وهو أمر شائع بين الأصدقاء الذين اختار كلٌ منهم طريقًا مختلفًا في الحياة؛ فكلٌ يرى أن طريقه هو وحده الطريق الصحيح، وأن مسلك غيره — مهما زُين — ضربٌ من التيه أو الهرب من الجوهر.

وما إن أغلق "ستيفان" الباب عليهما، حتى بادره بلُطفه المعهود قائلاً:

"يسرني أن أراك!.. كيف حالك؟ متى وصلت؟"

لكن "ليفين" أجاب باقتضاب، ثم قال بجدية:

"أريد أن أحدثك في أمر"

فقال "ستيفان" بابتسامة مشجعة:

"إذن، لنتناول الغداء معًا ثم نثرثر كما تشاء!"

فأومأ "ليفين" موافقًا، ثم أردف بجديّة أكثر:

"لا بأس، لكن لديّ سؤال عاجل أريد جوابه الآن!"

فاصطنع "ستيفان" هيئة الجدية، ورفع حاجبيه قائلًا بمودة:

"هاته إذن، أيها العزيز!"

وصمت "ليفين" لحظة، وكأنه يصارع حياءً متأصلًا فيه، ثم قال بصوت خافت:

"كيف حال آل شرياتسكي؟"

ولم يكن "ستيفان" يجهل مغزى السؤال، فهو يعلم يقينًا أن "ليفين" يحب "كيتي"، أخت زوجته "دوللي". فابتسم ابتسامة ذات معنى، وتهلّلت عيناه بمرح خفيف، ثم أجابه:

"هذا سؤال لا تُسعفه الإجابة السريعة... يحتاج إلى وقت أطول!"

فتورد وجه "ليفين" حياءً حتى أطراف أذنيه، وقال محرجًا:

"حسنًا... فلنؤجل الحديث في هذا الأمر إلى وقت آخر!"

لكن "ستيفان"، وقد رقّ قلبه لصديقه، لم يشأ أن يتركه في دوامة القلق، فقال له بنبرة مشفقة:

"كنت سأدعوكم إلى منزلي، لولا أن (دوللي) ليست على ما يُرام... لكن، اسمع: إن كنت ترغب برؤيتهم، فأغلب الظن أنهم سيكونون في حديقة الحيوان بين الرابعة والخامسة مساءً. ففي هذا الوقت تمارس (كيتي) رياضة التزلج، وسأمر بك هناك، ثم نذهب لتناول العشاء في أي مكان تختاره".

وهكذا، لم يكن كلام "أوبلونسكي" مجرد مجاملة، بل كان يحمل في طياته نية صافية لمساعدة صديقه القديم في ما أهمّه من أمر القلب.

وأومأ ليفين برأسه موافقاً، ثم نهض لينصرف..

وكانت أسرتا (ليفين) و (شرياتسكي) من الأسر النبيلة القديمة في موسكو، وقد ارتبطت الأسرتان من قديم برباط الصداقة والود، ثم زاد في توطد هذه الصلة أن جمعت الزمالة في المدرسة بين ليفين والأمير شرياتسكى (شقيق كلًّا من " كيتى" و " دوللى"، زوجة " ستيفان")، وكثر تردد الأول على منزل الثاني، وصار صديقًا حميماً لأفراد أسرته جميعاً، ولا سيما النساء منهم!.. كانت أمه قد ماتت منذ زمن بعيد، تاركة إياه وأخته التي تكبره بأعوام.. ومن ثم كان بيت (شرياتسكي) أول مكان رأى فيه الحياة المنزلية لأسرة عريقة نبيلة مثقفة شريفة – الأمر

الذي حُرم هو منه بوفاة أبويه! – فألف أن يرى فتيات الأسرة الثلاث: دوللى، وناتاليا، وكيتى، ويسمعهن يتكلمن الفرنسية آنًا، والإنجليزية آنًا.. أو يعزفن على البيانو.. وكثيراً ما شغلت هذه الأنغام سمع ليفين وقلبه وعقله، حين كانت تصل إليه في غرفة الأمير (شقيق الفتيات الثلاث)، وهو يستذكر معه دروسهما.. وصار يلمح أساتذة الأدب الفرنسي، والموسيقى، والرسم، والرقص، يترددون على منزل الأسرة واحداً بعد الآخر. وفي ساعة معينة من كل يوم كانت الفتيات الثلاث يخرجن مع مربيتهن الآنسة لينون، فتمضى بهم العربة إلى شارع (تفرسكي). وقد ارتدت دوللى معطفاً طويلًا، وارتدت ناتاليا معطفاً متوسط الطول، أما كيتى فكان معطفها قصيراً بحيث تبين تحته ساقاها الجميلتان. المغلفتان بجوربيهما الأحمرين الضيقين!.. وفى شارع تفرسكي كن يترجلن ليسرن على أقدامهن، في حراسة خادم خاص يضع في قبعته شارة مذهبة!.. هذا كله وغيره مما كان يحدث في عالمهن الغامض، كان ليفين يراه فيعجب به، ويحب فيه غموضه ذاته!

وأحب ليفين " دوللي" كبرى الفتيات الثلاث، لكنها ما لبثت أن تزوجت من زميله وصديقه الآخر " ستيفان أوبلونسكي"، فلم يعبأ ليفين بالأمر كثيراً، وبدأ يحب شقيقتها ناتاليا!.. لقد أحس أنه لا يستطيع إلا أن يحب واحدة من أولئك الأخوات، وإن عجز عن تحديد تلك الواحدة بالذات!

لكن ناتاليا لم تكد تظهر في المجتمعات – بعد أن شبت عن الطوق – حتى زوجت من الدبلوماسي " لفوف"!

وكانت الثالثة (كيتى) ما تزال طفلة حين غادر " ليفين" الجامعة.. ثم التحق شقيقها - صديقه " تشرباتسكى" - بالأسطول، وغرق في البلطيق، ففترت صلة ليفين بالأسرة..

ولكنه حين جاء لزيارة ستيفان أوبلونسكي في موسكو عند بداية الشتاء، بعد غيبته نحو عام في الريف، رأى آل تشرباتسكى، وأدرك – منذ وقعت عينه على كيتى – أي الأخوات الثلاث خليق به أن يتدله في حبها!

ولم يكن ثمة ما هو أبسط وأيسر على من كان مثله – عراقة حسب، وثراء، وشبابًا - من أن يتقدَّم طالباً يد الأميرة الصغيرة للزواج. وكان المرجح أنه لو فعل لقوبل بالترحاب، باعتبار أنه " صفقة" رابحة!.. ولكن ليفين كان عاشقاً، ومن ثم بدت له كيتى من الكمال والروعة بحيث تفوق وتسمو على كل مخلوقة أرضية!.. في الوقت الذي بدا هو - في عيني نفسه - على درجة من الضعة وتفاهة الشأن لم يكن يعقل معها أن يراه الناس، أو تراه هى، جديراً بها!

وقضى صاحبنا في موسكو شهرين، في حال من النشوة والحبور تجل عن الوصف، كان خلالهما يرى كيتى في أكثر الأيام، سواء في بيت الأسرة، أو في المجتمعات التي كان يحرص على غشيانها لأنها هي أيضاً تغشاها.. لكنه في النهاية قرَّر فجأة أن يهجر موسكو ويعود إلى الريف، اقتناعاً منه بأن كيتى لا يمكن أن تحبه، وأنه في أعين أسرتها لا يعد شيئًا مذكوراً، ولا يليق زوجاً لأميرة رائعة مثلها، ولا سيما أنه ليست له مهنة من المهن المحترمة المعترف بها، ولا هو يشغل مركزًا مرموقاً في المجتمع!.. إنه ليس أكثر من ريفى يشتغل بتربية الماشية، وبناء المخازن وشون الغلال، ويقضى وقته في ألعاب الرماية.. أو بعبارة

أخرى هو رجل ليست له كفاءة خاصة، ولم يثبت أن له موهبة خارقة.. في أي شيء!.. إن كيتى الغامضة الساحرة لا يمكن أن تحب رجلًا قبيح الخلقة مثله، تافه الشخصية، عادياً، كما يعد هو نفسه.. هذا إلى أن مسلكه نحوها في الماضي - مسلك الرجل الناجح، نحو الطفلة التي لم تشب عن الطوق بعد - بدا له بمثابة عقبة أخرى تعترض حبهما. إن مثله يمكن أن تعجب الفتاة به كصديق، ويكون موضع ود خالص، أما أن يكون هدفًا لحب عارم مثل حبه هو ل- "كيتى"، فذلك أمر بعيد المنال، ولا يمكن أن يحظى به غير فتى وسيم، ممتاز!.. صحيح أنه سمع عن نساء كثيرات أحببن رجالًا تافهين قبيحي الخلقة، لكنه لم يصدِّق ذلك. فهو لا يصدق إلا ما توحى به إليه نفسه!

لكنه بعد أن قضى شهرين في الريف بمفرده، أيقن أن حبه لكيتى ليس من قبيل المغامرات العارضة التي جربها في شبابه الباكر، وأنه لا يستطيع أن ينعم بلحظة واحدة من الراحة وسكينة النفس، بعيداً عنها!.. بل لا يستطيع أن يمضى في مواجهة الحياة دون أن يستريح إلى يقين من قبولها - أو رفضها - تحقيق تلك الأمنية العزيزة!.. وأحس

أن يأسه ينبع من تصوراته وخيالاته وحدها، وأنه لا يملك دليلًا ما على أنها سوف تردّه خائباً، وهو الآن قد جاء إلى موسكو بعزم ثابت على أن يتقدَّم طالباً يد الفتاة، وأن يتزوجها بغير إبطاء، إذا قبلته!

-3-

كاد قلب (ليفين) يقفز في صدره انفعالًا وهو يهبط من الزحافة التي أوصلته أمام باب حدائق الحيوان عند الأصيل. ومضى في الطريق إلى الآكام الثلجية وساحة الانزلاق، حيث كان موقناً من أنه سيجد كيتى هناك، كما أنبأه ستيفان!

وكان اليوم مشرقاً جميلًا، والحديقة مزدهرة بزوارها من ذوى الأزياء الأنيقة، وذوات القبعات الزاهية، فمضى ليفين في الممر المتعرج يحدِّث نفسه: (ينبغى أن أحتفظ بالهدوء! إن هذا الانفعال الذي أحسه ليس ثمة ما يدعو إليه!.. إنه دليل على الغباء!).. لكنه كلما زجر قلبه المتلاحق الخفقات، ازدادت خفقات قلبه شدة، ولهثت أنفاسه!.. ولما أشرف على غايته و انبسطت أمام بصره ساحة الانزلاق، سرعان ما لمحت عينه كيتى بين عشرات الفتيات والرجال. رآها بقلبه قبل أن يراها بعينيه! أدرك أنها هناك - حيث رآها - من فرط الذعر الذي تملك قلبه فجأة!

وكانت كيتى واقفة تتحدَّث إلى سيدة في الطرف الآخر من الحلقة، ولم يكن في ثيابها أو مظهرها ما يلفت النظر.. لكن بصر ليفين اهتدى إليها بسهولة، كما يميز الزهرة وسط الحشائش الخضراء. فاتجه نحوها وهو يتجنب النظر إليها، كما يتجنب النظر إلى الشمس، وإن كان يراها كما يرى الإنسان الشمس، دون أن ينظر إليها!

وفجأة أحس أن الشمس تقترب منه!.. كانت كيتى قد انفلتت من الجدار الذي استندت إليه ثم انزلقت مسرعة في اتجاهه.. وإذ ترنحت في اندفاعها لحظة رفعت بصرها، فوقعت عيناها عليه، وعرفته، فابتسمت.. وحين استردت توازنها، أومأت له برأسها!.. يالله! إنها أجمل مما كان يتصوّرها بخياله وهي بعيدة عنه!.. يا للتعبير الناعم الصافي الذي يلوح في عينيها. بل يا لابتسامتها، التي طالما نقلته إلى عالم سحرى رائع، يحس فيه بنفسه وقد غدا.. ناعمًا.. رقيقًا.. مثلما كان في بعض أيام طفولته!

وابتدرته وهي تثبت قدميها في الأرض، وقد بلغت مكانه، مادة إليه يدها مصافحة: " هل جئت منذ زمن؟". وسقط منديلها من كمها،

فانحنى يلتقطه لها. وأردفت قائلة: " أشكرك!"، فأجابها متلعثمًا: " أنا؟ كلا! لم أحضر منذ زمن. أمس فقط، أعنى اليوم وصلت. وكنت أعتزم أن أذهب لأراك!".

ثم استطرد بعد أن أطرق هنيهة: " لم أكن أعلم أنك تجيدين الانزلاق إلى هذا الحد!".. فألقت إليه نظرة فاحصة، كأنما تريد أن تقف على سر اضطرابه ثم قالت: " إطراؤك جدير بالاعتبار، فهم يقولون هنا: إنك أبرع الجميع في الانزلاق!".. فاصطبغت وجنتاه بحمرة الحياء وقال: " كنت في وقت ما أمارس هذه الرياضة متحمسًا. أردت أن أبلغ الكمال!".. فقالت: " إنك تفعل كل شيء متحمسًا، هذا ما أعتقده.. بودى أن أراك تنزلق. هيا، تعال نتزلق معاً!".

وقال ليفين لنفسه وهو يحدِّق فيها: " نتزلق معًا! أهذا ممكن؟".. لكنه سرعان ما قال لها مغتبطًا: " حسنًا! لحظة ثم يكون ما تريدين!". ومضى إلى رجل الساحة - المختص بإعداد روادها للانزلاق – وهو يحدِّث نفسه قائلًا: " هذه هي الحياة، هذه هي السعادة!.. معًا؟ ننزلق معًا!.. هل أخاطبها في الأمر الآن؟.. آه.. هذا سر حزنى وإحجامي!.. إنى لسعيد الآن. سعيد بالأمل. ولكن ماذا بعد؟ على أية حال يجب ألا

أحجم بعد الآن، نعم يجب، ولكن.. سحقًا لهذا الضعف الذي أشعر به!".

ونهض ليفين، فانزلق في رشاقة وسهولة حتى مكانها، فناولته يدها واستأنفا الانزلاق على الجليد مسرعين.. وكلما ازدادت سرعة اندفاعهما، ازداد ضغط قبضتها على يده!.. وبعد أن تبادلا حديثًا عابرًا، سألته عن حياته في الريف، ثم أردفت: " لابد أن الحياة هناك مملة في الشتاء، أليس كذلك؟".. فقال لها: " إن مشاغلى هناك كثيرة. ولهذا لا أشعر بملل".

فسألته: " هل تعتزم أن تبقى هنا طويلًا؟".

فسكت هنيهة ثم غمغم: " الحق أنى لست أدرى!".

وبدت الدهشة في عينيها، وسألته: " كيف؟".

فاشتد تلعثم لسانه، وقال: " لست أدرى الآن. الأمر يتوقَّف عليك.!!".. وقبل أن يرن صدى عبارته الأخيرة في سمعه، أدرك أنه تعجل أكثر مما ينبغى، فانتابه الذعر!.. وسواء أكانت الفتاة قد سمعت كلماته أو لم ترد أن تسمعها، فإنها لم تلبث قليلًا حتى انفصلت عنه

وانزلقت بعيدًا، متجهة نحو مربيتها " مدموازيل لينون" التي كانت واقفة حول الحلقة تتفرَّج على جموع اللاعبين، فأسرَّت في أذنها ببضع كلمات ثم اتجهت نحو الجناح الذي ينزع فيه رواد الساحة معدات الانزلاق.. بينما كانت عينا ليفين تتبعانها في انزعاج، وهو يؤنب نفسه مردِّدًا صلاة حارة في أعماقه: " يا إلهى، ماذا فعلت؟.. آه!.. يا إلهى الرحيم.. ساعدنى، أرشدني!".

وأحس بحاجة إلى أن يقوم بمجهود جثماني عنيف يشغل أفكاره ويجد فيه تعويضًا نفسيًّا عن قلقه، فراح يقوم ببضع حركات معقدة خطيرة أثناء انزلاقه، الأمر الذي لفت إليه أنظار الجماهير، ومن بينهم " كيتى".. وكانت قد عادت بعد أن نزعت عن قدميها حذاء الانزلاق، ومعها مربيتها.. وابتسمت له في مودة هادئة، كما لو كان أخاها المفضِّل، وحدَّثت نفسها قائلة: " كم هو رائع ظريف!.. تُرى هل أخطأت في حقه؟.. أنا أعلم أنه ليس الشخص الذي أحبه، لكنى مع ذلك أحس السعادة في صحبته، ثم أنه مرح جدًّا.. ولكن، لِمَ قال لي تلك العبارات؟ وما الذي كان يعنيه؟..".

ثم اتجهت إلى حيث كانت أمها تجلس في الساحة، وهمت كلتاهما بالانصراف، فسارع ليفين إلى مغادرة الحلقة، وخلع نعلى الانزلاق متعجلًا، ثم لحق بهما عند مدخل الحديقة، فحيّته الأميرة شرباتسكي الأم قائلة: " يسرنى أن أراك. إننا عادة لا نبرح البيت في أيام الخميس.."، فقال ليفين: " الخميس؟ إذن.. هل سيدتى تعنى؟.. تعنى اليوم؟".

فقالت الأميرة الأم: " نعم، ويسرنا أن نراك!".

وخُيل إلى كيتي أن في لهجة أمها شيئًا من الجفاء، فأدارت وجهها نحو ليفين مبتسمة وقالت له، محاولة أن تزيل أثر فتور أمها: " إلى اللقاء، هذا المساء".. وفي تلك اللحظة أقبل نحوهما " ستيفان أوبلونسكي"، فوقف يتجاذب الحديث مع " حماته" برهة، ويجيب على أسئلتها عن صحة زوجته دوللي.. ثم ودعهما، وتناول ذراع ليفين وانطلق به إلى خارج الساحة وهو يقول: " إذن، هيا بنا إلى مطعم إنجلترا!".

وفى المطعم، انتظر ستيفان حتى أفرغ ليفين كأسه، ثم قال له: " هناك شيء ينبغي أن أقوله لك.. هل تعرف فرونسكى؟".. فعقد ليفين ما بين حاجبيه، وسأل صديقه ومضيفه قائلًا: " من يكون فرونسكي هذا؟".. فقال ستيفان: " هو أحد أبناء الكونت كيريل إيفانوفتش فرونسكي.. إنه من ألمع شبان بطرسبرج، وعلى قدر كبير من الثراء والوسامة، كما أن له صلات وطيدة بكثير من العظماء، وهو إلى ذلك رضى الخلق، واسع الثقافة، بارع الذكاء، ظريف كل الظرف.. ويشغل في الجيش منصب ضابط أركان حرب، والجميع يتوقعون له مستقبلًا مرموقًا!.. ولكن الذي يهمنا من أمره الآن أنه غارق في حب كيتى إلى أذنيه، فقد تعرَّف إليها على أثر سفرك في المرة السابقة، ولعلك تعلم أن أمها..".

وهنا قطع ليفين كلامه قائلًا، والأسى والأسف ملء صوته: " لست أعلم شيئًا على الإطلاق!".. فقال ستيفان: " لقد أطلعتك على ما أعرف، وأعتقد - برغم دقة الموقف - أن فرصتك في الفوز أكبر، بشرط أن تعجل بالبت في الأمر وتطلب يد الفتاة فورًا، ولكن ليس الليلة على أية حال، بل غدًا صباحاً!"

-4-

منذ فرغت كيتى من تناول الغداء، وحتى بداية الأمسية، أحسَّت انفعالًا شبيهًا بانفعال الشاب المقبل على خوض معركة!.. كان قلبها ينبض بعنف وشدة، وأفكارها تأبى أن تستقر على شيء! لقد أحست أن تلك الليلة سوف تكون نقطة التحوّل في حياتها، ففيها سيلتقى لأوَّل مرة الرجلان اللذان يريدان الزواج منها!.. وكان خيالها دائب المقارنة بينهما، يستعرضهما آنًا على انفراد، وآونة مجتمعين!.. وعادت بأفكارها إلى الماضي، واستقرَّت هذه الأفكار - في شيء من البهجة والحنين - على ذكريات صلاتها مع ليفين: ذكريات طفولتها، وصداقة ليفين لأخيها، ولهو ثلاثتهم معًا، وغير ذلك من الصور التي أضفت جاذبية شعرية خاصة على شعورها نحو ليفين. ومن ثم لذ لها أن تفكِّر فيه، وفى حبه لها، ذلك الحب الذي توقن منه، وإن لم يبح لها به!.. هذا إلى أنها في حضرته كانت تحس جوًّا من البساطة والصفاء، ورفع الكلفة.. بعكس حالها مع " فرونسكى"، الذي كان وجوده يضفى على الجو شيئًا من التوتر والارتباك. لكنها – برغم ذلك

- كانت لا تفكِّر في فرونسكي إلا وينبسط أمامها الأمل في مستقبل سعيد، فإذا انتقلت بتفكيرها إلى ليفين أحسَّت كأن المستقبل قد شابته فجأة سحابة من الغموض!

وحين صعدت إلى غرفتها لتتزين، تأهبًا لاستقبال ضيوفها، ونظرت إلى صورتها في المرآة، سرَّها أن وجدت وجهها يتألَّق بنضارة العافية والشباب. ولم تكد تهبط إلى غرفة الاستقبال، في منتصف الساعة الثامنة، حتى أعلن الخادم قدوم " كونستانتين ديمتريفتش ليفين". وكانت الأم ما تزال في غرفتها، وفرونسكي لم يصل بعد، فأدركت كيتى والدم يندفع إلى قلبها بقوة أن ليفين تعمَّد التبكير في الحضور ليخلو إليها ويكاشفها بنيته! وعندئذ فقط تنبَّهت إلى أن الأمر ليس أمر البت في مستقبلها وسعادتها هي وحدها، بل في مستقبل وسعادة شخص آخر، تفرض عليها الظروف أن تجرحه وتؤلمه، لا لشيء سوى أنه يحبها، ويخلص لها الحب!.. فراحت تحدِّث نفسها قائلة: " يا إلهى، هل يجب عليَّ حقًّا أن أقولها له؟ هل أستطيع أن أصارحه بأني لا أحبه؟ إننى أكون كاذبة. إذ ماذا أقول له؟ هل أقول له أنى أحب شخصًا آخر؟.. كلَّا! هذا مستحيل.. مستحيل!".

وكانت قد بلغت الباب، فسمعت خطواته تقترب.. وما لبث أن أشرق عليها وجهه القوى الخجول، وعيناه اللتان ركَّزهما عليها، فرفعت إليه بصرها كأنما تناشده أن يجنبها الموقف الحرج، بينما مدَّت يدها إليه مصافحة، فقال وهو يجيل نظره في الغرفة الخالية: " لعلى بكرت في الحضور، قبل الموعد المناسب؟"، وأظلم وجهه إذ تبين أن اللحظة الخطيرة الفاصلة قد حانت، ولم يعد ثمة ما يمنعه من الإفصاح!.. فأجابت كيتى وهى تجلس: " أوه! كلَّا!،.. لكنه لم يجلس، بل أردف يقول وهو يتجنّب النظر إليها، كي لا يفقد شجاعته: " على كل حال، هذا ما أريده تمامًا: أن أجدك وحدك!".

فقالت دون أن تحوِّل عنه عينيها المتوسلتين: " بعد هنيهة تهبط أمي من غرفتها. لقد كانت تعبة للغاية أمس!" وعندئذ نظر إليها، فتورد وجهها، وتوقّفت عن الكلام.. بينما استأنف هو كلامه قائلًا: " ذكرت لك أن مدة إقامتى هنا تتوقَّف.. عليك. وقد قصدت أن أقول.. قصدت أن أقول.. أني جئت خصيصًا.. كي أعرض عليك.. أن تكوني زوجتي!".

ولم يدر ماذا قال على وجه التحقيق، لكنه أحس أن العبارة الخطيرة قيلت، وأنه قد اجتاز العقبة الكأداء.. فتوقَّف عن الكلام، ونظر إليها!.. وكانت هي تتجنَّب النظر إليه، ولكن أنفاسها تلاحقت، وأحسَّت بنشوة عجيبة، وبسعادة هائلة تغمرها. ولم يدر قط بخلدها من قبل أن مجرد ذكر الحب يكون له عليها هذا التأثير القوى! لكن شعورها هذا لم يطل أكثر من لحظة، تذكَّرت بعدها " فرونسكى"، فرفعت عينيها الصافيتين الصادقتين إلى " ليفين"، وإذ رأت وجهه اليائس أجابت في عجلة:

- عفوًا.. هذا غير ممكن!

وبُهت المسكين! إنها منذ لحظة واحدة كانت قريبة منه كل القرب، لها في حياته كل الأهمية. أما الآن، فما أبعدها وأضأل نصيبه منها!.. وأجاب دون أن ينظر إليها: " كان ينبغي أن أتوقَّع هذا!".. ثم انحنى تأهبًا للانصراف. ولكن حدث في هذه اللحظة أن دخلت الأميرة الأم عليهما، وما كادت تراهما منفردين، وفى هيئتهما ما ينم عن الاضطراب، حتى ارتسم الفزع في عينيها! وانحنى ليفين لها دون أن ينطق بكلمة، أما كيتى فلم ترفع عينيها إلى أمها. وإذ ذاك حدَّثت هذه

نفسها قائلة: " حمدًا لله، لقد رفضته!".. وأضاءت وجهها ابتسامة الترحيب التقليدية التي تستقبل بها زوارها كل يوم خميس، ثم جلست، وبدأت تسأل ليفين عن حياته في الريف، بينما جلس هو على مضض في انتظار قدوم زائرين آخرين، كي يتسنى له أن ينسحب غير ملحوظ!

ولم تمض خمس دقائق حتى أقبلت الكونتة " نوردستون" صديقة كيتى، وكانت قد تزوجت في الشتاء الأسبق وتريد أن تكفل لصديقتها زيجة موفقة تحقق لها في حياتها السعادة المنشودة - وتلك عادة النساء المتزوجات مع الفتيات اللواتي على أهبة الزواج! - وكان الزوج المثالي لفتاة مثل كيتى، في رأى الكونتة صديقتها، هو " فرونسكى".. أما " ليفين"، الذي طالما التقت به في بيت تشرياتسكي في بداية الشتاء، فلم يظفر بإعجابها، بل إنها جعلت همها أن تسخر منه وتسفه شخصه، سواء في حضوره أو غيبته!.. وكان هو أيضًا قد استثقل ظلّها، ولم يدخر وسعًا في إظهار كرهه لها!.. وهكذا انتهى الأمر بهما إلى أن صارا يحتقر كلاهما الآخر، إلى الدرجة التي تجعله لا يحمل آراءه على محمل الجد، ولا يغضب من إساءته!

وبدأت الكونتة تحرشها بليفين، وهي تبتسم في تهكم: " هيه؟ إذن لقد عدت ثانية إلى مدينتنا التي تسميها عاصمة الفساد؟ تُرى هل موسكو هي التي اهتدت من ضلالها، أم أنت الذي انحلَّت أخلاقك؟!".. فأجابها متهكمًا هو الآخر: " إنه ليرضي غروري يا سيدتي أن تهتمي بتسجيل آرائي وتذكّر أقوالى بهذه الدقة! لابد أنها تترك في نفسك تأثيرًا كبيرًا؟!".. فقالت: " أعتقد ذلك، فإنى أحرص على تدوينها بنصها!".. ثم استدارت لتتحدَّث إلى كيتي في شتى الموضوعات. ومضت لحظات قضاها ليفين صامتاً حائرًا، وكيتى ترمقه بين حين وآخر بنظرة خاطفة، ثم تعود فتتجنَّب عينيه!..

وأخيرًا قرَّر أن ينهض لينصرف، كى ينجو بنفسه من ذلك الجو الخانق. وقبل أن ينفذ عزمه هذا دخلت ضيفة جديدة، ودخل في أثرها ضابط، لا يعرفه ليفين، لكنه حدَّث نفسه قائلًا: " لابد أن يكون هذا فرونسكي!".. ولكي يتثبت من الأمر اختلس نظرة إلى كيتي، فرأى عينيها قد تألّقتا حين وقع بصرها على ذلك الضابط! ولم يجد ليفين بدًا من أن يعدل عن الانصراف، وأن يبقى لكي يرى، ويسمع، ويعرف المزيد عن شخصية غريمه!.. إن بعض الناس يميلون في مثل هذه

الظروف إلى تجاهل كل ما لمنافسهم الظافر من صفات حسنة، ولا يرون غير صفاته السيئة.. وهناك آخرون يميلون بطبعهم إلى اكتشاف حسنات الغريم المحظوظ التي تفوق عليهم بها، حتى لا يكادون يرون غيرها، وإن كانت قلوبهم تعانى أثناء ذلك ألمـًا موجعًا!.. وقد كان ليفين من هذا الفريق الأخير، لكنه لم يجد صعوبة في الاهتداء إلى مواطن جاذبية فرونسكي، فقد كانت بادية للعيان لأوَّل وهلة!.. كان قوى البنيان، أسمر البشرة، متوسط الطول، ذا وجه وسيم ينم عن الهدوء والحزم في وقت واحد!.. وكان كل ما فيه - من شعره الأسود المصفّف، ووجهه الحليق، وسترته العسكرية - يجمع بين الأناقة والبساطة!

واتجه " فرونسكي" أول ما اتجه إلى الأم، فانحنى لها في احترام.. ثم يمم شطر الابنة وقد لمعت في عينيه الجميلتين نظرة خاصة رقيقة، وابتسامة ظافرة سعيدة، فأعطاها يده الصغيرة العريضة مصافحًا.. ثم حيا بقية الموجودين ببضع كلمات، واتخذ مكانه في المجلس بعد أن قدَّمته الأميرة إلى ليفين. ثم اشترك الجميع في حديث متشعب كان فرونسكى فارسه المبرز. كان يوجه كلامه بصفة خاصة إلى كيتي

وليفين، متنقلًا بنظرته الودية من أحدهما إلى الآخر على التوالي، بحيث لم تكد الأميرة أو الكونتة تجدان فرصة للكلام، إلا حين استدار المتحدّث نحو الأخيرة كي ينتقل بحديثه إلى موضوع الحفلة الراقصة الكبرى التي تقام في الأسبوع التالي!.. ولم يلبث ليفين أن انصرف وهو يحمل في وعيه صورة وجه كيتى الباسم السعيد وهي تصغى إلى حديث فرونسكى!

لم يكن فرونسكي قد عرف يومًا الحياة " البيتية" الحقيقية، فقد كانت أمه في شبابها من نساء المجتمع اللامعات، اللواتى يقضين أكثر وقتهن خارج البيت. وكانت لها أثناء حياة زوجها - ثم بعد وفاته خاصة - مغامرات غرامية عديدة تردَّد صداها السيىء في جميع أوساط المجتمع الرفيع! أما أبوه فلا يكاد الفتى يذكر عنه شيئاً، فقد مات وخلّفه صبيًّا، حيث كفلته أمه، ثم التحق بالكلية الحربية، فلما تخرج فيها اندمج من فوره في بيئة ضباط بطرسبرج الأغنياء.. وبرغم دخوله في محيط المجتمع المترف فإن مغامراته الغرامية كلها كانت بطلاتها فتيات من خارج ذلك المحيط.. فلما عرف كيتي في موسكو هذه المرة أحس أنه يتذوق لأول مرة متعة رفع الكلفة مع فتاة بريئة

عذبة، من نفس طبقته الاجتماعية. ولم يدر بخلده قط أن في علاقته بها أية غضاضة أو ضرر. صار يراقصها كلما التقى بها في الحفلات والمناسبات ويتردد على بيت أسرتها بانتظام، ويثرثر معها كما يثرثر الناس عادة في المجتمعات، وبرغم أنه لم يقل لها يوماً حرفاً لم يكن ليستطيع أن يقوله لها علناً على مسمع من الجميع، فإنه شعر بأنها تزداد مع الأيام " اعتمادًا" عليه، واستمتع بذلك إلى حد كبير!.. لكنه لم يعلم أن هذا المسلك فيما يتصل بها له وصف خاص في قاموس المجتمع، هو " التغرير بالفتيات دون تفكير في الزواج منهن!".. ولا كان يعلم أن هذا التغرير - أو المغازلة – هو من الشرور المألوفة في مجتمعات الشباب النابهين أمثاله.. وإنما بدا له أنه أوَّل من استكشف متعة العلاقة التي من هذا القبيل، وقد استمتع باستكشافه!

ولو قدر له أن يسمع ما كان أهل الفتاة يقولونه في ذلك المساء، كيتى سوف تشقى إذا لم يتزوجها، لدهش لذلك أبلغ الدهشة! بل لعله ما كان ليصدقه!.. لم يكن يستطيع أن يصدِّق أن ما يُدخل على قلبه - وعلى قلب الفتاة نفسها دون ريب – مثل هذه البهجة والمتعة، يمكن أن يكون " خطأ" يؤاخذ عليه.. وأكثر من ذلك لم يكن في وسعه

أن يقتنع بأنه ينبغي له أن يتزوج، فإن الزواج لم يخطر يومًا بباله!.. لا لبغضه للحياة العائلية والبيتية فحسب، وإنما لأن كلمة " عائلة" أو " زوج" لم يكن لها في عالم العزوبة الذي يعيش فيه غير معنى واحد منفر عجيب، بل مضحك!

على أن فرونسكي برغم جهله بما كان يدور في أذهان أفراد أسرة شرياتسكي، شعر لدى خروجه من دارهم في تلك الليلة بأن الرباط الروحي الخفي الذي يربط بينه وبين كيتى قد ازداد قوة ومتانة في تلك الأمسية بالذات، بحيث بات ينبغي له أن يتخذ في صدده خطوة ما. ولكن ما هي هذه الخطوة على وجه التحديد؟ إنه لا يستطيع أن يعرف، أو يتخيل!.. على أنه وهو عائد من دار آل شرياتسكي، في ذلك المساء، أخذ يحدِّث نفسه قائلًا وقلبه مفعم بالنشوة والانشراح: " الشائق في الأمر كله أن أحداً منا لم يوجِّه إلى الآخر كلمة ما، لكننا نتفاهم برغم ذلك أوضح التفاهم بتلك اللغة الغامضة السرية، لغة النظرات والنبرات.. إنها أفصحت لى الليلة، أكثر من أية مرة سابقة، أنها تحبني! وإنى لأشعر بأني صرت مخلوقاً أفضل وأطهر، وبأن لي قلبًا

ينطوى على قدر كبير من الحب والخير!.. يا لعينيها العاشقتين، العذبتين!".

ومضى يسائل نفسه وهو سائر في الطريق: " أين أمضى بقية السهرة؟.. أفي اللعب وشرب الشمبانيا مع صديقى " أجناتوف" في النادي؟ أم في ملهى " قصر الزهور" مع أوبلونسكي، في الرقص والغناء؟".. وشعر بأنه سئم كل تلك المتع، وبأن ما أعجبه في بيت شرياتسكي أنهم يجعلون منه شخصًا أفضل!.. وعلى هذا فقد اتجه رأساً إلى غرفته في فندق " دوسو" حيث تناول عشاءه ثم خلع ثيابه. ولم يكد رأسه يلمس الوسادة حتى غرق في نوم عميق!

-5-

في الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالي مضى فرونسكى إلى محطة السكة الحديدية في بطرسبرج ليستقبل أمه. وهناك التقى على سلم المحطة بصديقه ستيفان أوبلونسكي، الذي كان ينتظر قدوم أخته في القطار ذاته. وبعد أن تصافحا قال فرونسكي: " ما الذي أتى بك إلى هنا؟"

- جئت لأستقبل امرأة جميلة!

- حقًّا؟

- حذار أن تسيء بي الظن.. إنها أختى " آنا"!

- آه، تعنى مدام كارنينا؟

- أنت تعرفها إذن؟

- أعتقد ذلك، أو ربما لا. لست متأكدًا في الواقع، وإن كنت سمعت هذا الاسم في مناسبة لست أذكرها الآن!

- لكنك تعرف زوجها ولاشك: " أليكسي الكسندروفتش" المشهور! الدنيا كلها تعرفه!

- أعرف أنه ذكي، مثقف، ومتدين إلى حد ما!

- نعم إنه رجل ممتاز. قد يكون محافظًا بعض الشيء، لكنه شخص رائع.. رائع حقًّا!

ثم انتقل الرجلان بثرثرتهما إلى أخبار " ليفين". فعلم فرونسكي أثناء الحديث أن غريمه يحب كيتى منذ زمن، وأن سر اكتئابه في الليلة السابقة وتبكيره في الانصراف هو - في الغالب - أنه طلب يدها فلم يلق منها ترحيبًا أو تشجيعًا!.. فانتفخت أوداج فرونسكى زهوًا، دون وعى منه، ولمعت عيناه ببريق الانتصار.. وفي تلك اللحظة وصل القطار، وجاء من ينبئه بأن الكونتة فرونسكي - أمه - تنتظره في مقصورتها، فانتزعه هذا القول من تفكيره في كيتي إلى التفكير في أمه التي سيلقاها بعد لحظات: أنه، في قرارة نفسه لم يكن يحترم أمه، بل لم يكن يحبها – وإن لم يعترف بذلك لنفسه! – لكن تقاليد البيئة التي يعيش فيها كانت تضطره إلى أن يُظهر لها كل الطاعة والاحترام!

ومضى بصحبة الدليل إلى عربة القطار التي كانت والدته تستقر في إحدى مقصوراتها. وعند مدخل المقصورة، توقف لحظة ليفسح الطريق لسيدة كانت تهمّ بالخروج. ومن نظرة واحدة، أدرك بفراسة رجل خبِر طبقات المجتمع، أن هذه المرأة تنتمي إلى الطبقة الرفيعة، فاعتذر لها بأدب وانزلق إلى داخل العربة.

غير أن شعورًا غامضًا دفعه إلى أن يلتفت نحوها ثانية؛ لا لجمالها الأخاذ، ولا لأناقتها المهيبة التي كانت تفيض من هيئتها، بل لأن في ملامح وجهها، لحظة مرت بقربه، شيئًا فريدًا آسرًا.. نظرة تحمل طابعًا جديدًا لم يألفه، وفتنة عذبة لا تُفسَّر. وقد التفتت هي أيضًا في اللحظة ذاتها، فالتقت نظراتهما، واستقرت عيناها اللامعتان، الكحيلتان بغبار السفر، على وجهه، وقد زاد من سحرهما امتداد الأهداب الكثيفة التي تحفهما. لكنها حولت نظرها سريعًا إلى الحشود المتزاحمة، وكأنما تبحث عن وجه مألوف بينها.

وخلال تلك اللمحة العارضة، وجد فرونسكي في عينيها ما يكفي ليلمس ذلك الاضطراب الجميل، ولهفة دفينة تتأرجح بين ضوء النظرات وابتسامة خفيفة ترفّ على شفتيها القرمزيتين. كانت

طبيعتها طافحة بإشراق خفي، يفيض رغماً عنها؛ فإن خبا في عينيها، ومض في ابتسامتها، ابتسامة يدركها القلب قبل أن تلمحها العين.

ثم تقدم فرونسكي إلى داخل المقصورة، حيث جلست أمه، تلك السيدة العجوز التي نحل جسدها وتجعد محياها. كانت قد نهضت لتوّها، وناولَت خادمتها حقيبة صغيرة. وما إن أبصرت ابنها حتى تبسمت له بابتسامة وادعة شاحبة، ورفعت يدها الصغيرة المغضنة ليلثمها، ثم مالت عليه وقبّلته على خده، وقالت بصوت خافت:

–إذن، فقد وصلتك برقيتي؟ الحمد لله على لقياك!

فهمهم قائلًا:

–لعل الرحلة كانت مريحة لكِ؟

ثم جلس إلى جوارها، يصغي إلى حديثها، إلا أن أذنه كانت مشدودة دون وعي إلى صوت امرأة خارج المقصورة... إنه صوتها، صوت تلك المرأة التي عبرت بجواره قبل قليل. كان أحد الرجال يخاطبها قائلاً:

–اسمحي لي بتقبيل يدك...

فأجابته في لطف، ثم أضافت بصوت خفيض:

–وداعًا، يا إيفان بتروفتش... ولهذه المناسبة، هلّا تكرمت بالبحث عن أخي على الرصيف وإرشاده إلى مكاني؟

ثم عادت إلى المقصورة نفسها. وما إن دخلت حتى التفتت إليها السيدة العجوز وسألتها:

–هل وجدتِ أخاكِ؟

وعندها فقط أدرك فرونسكي من تكون؛ إنها مدام كارنينَا. فاغتنم الفرصة وانضم إلى الحديث، ثم نهض بانحناءة رقيقة وقال لها:

–أخوك هنا، يا سيدتي. أرجو المعذرة إن لم أتعرف إليك فورًا، فقد كان لقاؤنا الأول عابرًا لدرجة لا تُذكر... ولا أظن أنك تتذكرينني.

فأجابته بابتسامة انفرجت عنها لهفتها المكبوتة:

–أوه، كلا. بل كان يجدر بي أن أعرفك... إذ لم يكن حديثي وأمك أثناء الرحلة إلا عنك. عجبًا لأخي... لم يظهر بعد!

حين التفتت الأم إلى ابنها، خاطبته بصوتٍ ينساب في نبراته أمرٌ خفيّ:

–اذهب، يا أليكس، وادعُه إلينا.

هبط فرونسكي إلى الرصيف، وصدى صوته يعلو فوق صخب المسافرين وضجيج المحطة:

–أوبلونسكي!.. أوبلونسكي!

غير أن مدام كارنينا لم تنتظر أن تكتمل دعوته، فما إن لمحته مقبلاً، حتى انطلقت نحوه في خفة لا تفتقد الجلال، وخطىً حازمة لا تغتال أنوثة. وما إن اقترب منها حتى مدت ذراعها اليسرى، فأحاطت بها عنقه في عناقٍ خاطف، غير أن فيه من الرقة ما يخلب، ومن العفوية ما يدهش. كانت الحركة وحدها كافية لأن تشدّ انتباه فرونسكي، تلك الرشاقة الآسرة وذلك الجلال الصامت الذي يسري في أوصالها كما يسري العطر في النسيم. ثم جذبت أخاها إليها وقبَّلته قبلة دافئة مشبوبة، بينما ظلّ فرونسكي واجمًا، مأخوذًا بحضورها الطاغي، لا يرفع عنها ناظريه، حتى ارتسمت على شفتيه ابتسامة غامضة، كأنها ولدت من باطن الحلم، لا من يقظة الواقع.

وما إن تذكّر وجود والدته، حتى انسلّ عائدًا إلى المقصورة، فاستقبلته أمه بقولها وقد تناثر على كلماتها إعجابٌ لا يُخفى:

–أليست فاتنة؟ زوجها أجلسها إلى جانبي، وكم سعدت بصحبتها! لم ننقطع عن الحديث لحظة واحدة، وكذلك أنت، فيما يبدو... إنك بارع في الغزل يا بني، بارع دون أن تدري!

ردّ عليها ببرود كمن أُثقل قلبه بغيمة شاردة:

–لا أدري عمّ تتحدثين، يا أماه... فلنذهب.

وفي تلك اللحظة، أطلت مدام كارنينا من باب المقصورة، تتأبط ظلال الوداع في ابتسامتها، وقالت:

–لقد التقينا، أنا بأخي، وأنتِ بابنك... واستنفدنا كل أحاديث العالم!

لكن الكونتة قاطعتها وهي تمسك بيدها بلطفٍ ينم عن مودة اكتملت في لحظة:

–آه، لا تقولي هذا!.. بوسعي أن أطوف الدنيا برفقتك دون أن يساورني السأم! إنك من تلك النسوة الساحرات اللائي يُحسنّ الإصغاء كما يُحسنّ الحديث، واللواتي يحلو في ظلّهن الصمت كما يطيب

الكلام. أرجوكِ... لا تُثقلي على قلبك في فراق صغيرك، فما من أم على هذه الأرض قُدّر لها أن تبقي طفلها في حضنها إلى الأبد.

ثم التفتت إلى ابنها، وقالت، تشير إلى آنا بعينين يترقرق فيهما الإعجاب:

–لمدام كارنينا ابن في الثامنة من عمره، وهي تكاد لا تطيق الابتعاد عنه.

أجابت آنا، ووجهها ينضح بتلك الابتسامة التي تولد من عمق العاطفة:

–نعم، لقد انشغلنا بالثرثرة؛ الكونتة عن ابنها، وأنا عن صغيري.

فقال فرونسكي، مازحًا في رشاقة، كمن يُخفي اضطراب قلبه خلف حجاب الدعابة:

–أخشى أن تكونا قد ذُقتما من الملل ما لا يُطاق!

ابتسمت المرأتان، ثم تقدّمت الكونتة نحو آنا، وطَبَعت قبلة وداع على خدها، قائلةً لها بلهجة مفعمة بالصدق:

–أعترف لكِ، يا عزيزتي، أنني وقعت في حبك من النظرة الأولى!

فاحمرّ وجه آنا احمرار زهرةٍ نضحتها الشمس بقبلاتها، وزادتها الكلمات زهوًا ودفئًا. وعندما مدّت يدها نحو فرونسكي، لوداعه، كانت ابتسامتها تضيء ملامحها كفجرٍ يتفتح على صفحة البحر. ضغط يدها الصغيرة برقة، وداخله رجفة لم يعرف لها سببًا، وكأن حرارة المصافحة حملت معنى خاصًا، رسالة لم يُفصح عنها اللسان، لكنها سرت في الدم سريان الأغنية في القلب.

ثم انسحبت بخطاها الرشيقة، تلحق بأخيها، وظل فرونسكي يتبعها بناظريه، مأخوذًا بطلعتها الآسرة حتى غابت. ومع ذلك، بقي على شفتيه شيء منها، بقايا ابتسامة لا تزول.

وحين التفت إلى والدته ليسألها عن أخبار الأسرة، شرعت تسردها عليه بكل ما أوتيت من تفصيلٍ واهتمام، لكنه كان يستمع دون أن يُصغي، ذهنه مشغول بصوتها، صورتها، حركتها... كلّها.

ولم يقطعه عن شروده سوى دخول كبير الخدم ومعه الخادمة الخاصة ليعلنا أن الأمتعة قد نُقلت جميعها، فنهض وأعطى ذراعه لأمه، وهبطا من العربة، غير أن في قلبه ظلاً لم يغادره، وفي روحه نغمة لم تكتمل.

وفي تلك اللحظة، تناهى إلى أسماعهم وقع أقدام مسرعة، فتلفتوا فرأوا جماعة من الرجال يهرولون نحو القاطرة، يتقدمهم ناظر المحطة، ووجوههم متجهمة يعلوها الفزع. وسرعان ما عمّت الفوضى المكان، وارتفعت أصوات القلق والأسى على رصيف القطار، تختلط الهمهمات بتساؤلات مفزعة:

–ماذا حدث؟ أين ألقى بنفسه؟ سحق رأسه؟!

تراجعت آنا برفقة شقيقها، مبتعدَين عن الزحام، وقد ارتسمت على ملامحهما غمامة خوف صامت، حتى التقيا مجددًا بفرونسكي ووالدته. صعدت المرأتان إلى العربة، فيما انطلق الرجلان نحو مصدر الصخب، يسعيان إلى استجلاء حقيقة ما جرى.

سرعان ما تبين أن أحد عمال المحطة، وقد أثقله الشراب أو أعمى الضباب بصره، لم ينتبه للقاطرة التي بدأت الرجوع ببطء، فسُحق تحت عجلاتها دون أن يُدركه فرار.

عاد فرونسكي وأوبلونسكي بعد دقائق، يرويان ما شهداه، وكانت الدهشة والحزن يتناوبان على ملامحهما. وصفا الجسد الممزق، وقد

تشظى على القضبان، مشهدًا لا ينسى، ثم أضاف أوبلونسكي بصوت تخنقه العاطفة:

–ما أحزن المنظر! زوجته كانت هناك! رأيتها تهرع إلى أشلائه، تحتضنها وتبكي كأنها تحاول أن تردّ له الروح! ثم إنهم يقولون إنه كان العائل الوحيد لعائلة كبيرة!

همست آنا بصوت مضطرب، تحبس في طياته رعشة إنسانية خالصة:

–ألا يمكن أن نعين تلك المسكينة بشيء؟...

نظر فرونسكي إليها نظرة تأمل صامتة، ثم التفت إلى والدته وقال، وهو يفتح باب العربة:

–سأعود بعد لحظة.

ومضى، ثم عاد بعد دقائق قليلة، فانضم إليهم، ومضى الأربعة معًا نحو باب المحطة.

ولما بلغوه، استوقفهم ناظر المحطة، متوجّهًا إلى فرونسكي قائلاً:

–لقد أخبرتني أنك أعطيت مساعدي مائتي روبية... لمن تريد أن أقدمها؟

فأجابه، وهو يهز كتفيه باستخفاف خفيف كمن يرى أن السؤال لا يحتاج إلى جواب:

–للأرملة طبعًا... كنت أظنّ أن ذلك مفهوم ضمناً!

صعد فرونسكي إلى عربته برفقة والدته، أما أوبلونسكي وأخته فظلّا ينتظران خادمتها الخاصة.

وكان المارّة من حولهم يتحدثون عن الحادث، كلٌ يدلي برأيه كأنما يبحثون في أمرٍ قدره قد كُتب:

قال أحدهم:

–يا لها من ميتة قاسية، كأن الموت باغته فجأة بين قضبان الحديد!

ورد عليه آخر بنبرة فلسفية باردة:

–بل على العكس... أظنها أسهل ميتة، وأسرعها! لا ألم، لا انتظار، لا ندم.

أما آنا، فقد كانت ساكنة الملامح، مستسلمة للصمت، وعيناها تفيضان بما لم تقله الشفاه.

لاحظ أوبلونسكي ارتجافة شفتيها، واهتزاز أنفاسها، وهمس في قلق:

–ما بك، يا آنا؟ ما هذا الحزن؟

تمتمت كأنها تحدث نفسها لا أخاها:

–إنه فأل سيئ... فأل ثقيل!

–هراء يا آنا! لا تستسلمي للأوهام. المهم أنك هنا الآن، صدقيني... لا تتصورين كم كنت أعلّق على قدومك كل آمالي!

–وهل تعرف فرونسكي منذ وقت طويل؟

–نعم، وأملنا جميعًا أن يتزوج من كيتى!

رفعت حاجبيها بدهشة مشوبة بالتأمل:

–حقًا؟... ولكن دعنا الآن من هذا، حدّثني عنك، أخبرني عمّا جرى بينك وبين زوجتك.

بدأ أوبلونسكي يروي قصته، والحزن يثقل كلماته، والندم يطلّ من عينيه.

وحين توقفت العربة أمام بيته، هبّ يعاون أخته على النزول، وضغط يدها، وتنهد تنهيدة طويلة كأنما يودع بها همّه.

ثم استدار، واستقل عربته نحو المكتب، بينما ظلت آنا واقفة أمام الباب، يتماوج في عينيها حزن غامض، لم يخلُ من مسحة نبوءة.

حين وصلت " آنا" إلى منزل أخيها أوبلونسكي، كانت " دوللى" زوجته جالسة تعطى ابنها " جريشا" درساً في الفرنسية، بينما يداها منهمكتان في بعض أشغال الإبرة التي تستعين بها على التخفيف من حدة انفعالها في لحظات الترقب المرهقة للأعصاب. وكانت قد عقدت العزم على ألا تصغى لأية محاولة تبذلها ضيفتها لإقناعها بالصفح عن زوجها الخائن، وإن سرَّها أنها ستجد الفرصة لكي تنفس بالتحدث إليها عن بعض الحقد الذي يعتمل في صدرها نحوه!

واستقبلت دوللى ضيفتها بقبلة ترحيب ودية، وبعد أن حيتها " آنا" وعانقت أطفالها جميعًا، انفردت المرأتان في غرفة الاستقبال تشربان القهوة وتتحدّثان.. وبعد لحظات ابتدرت آنا مضيفتها قائلة: " دوللي.. لقد قصَّ على ستيفان كل شيء! ولست أريد أن أدافع عنه أو أواسيك أنت. لكني آسفة حقًّا يا عزيزتي من أجلك!".. ولمعت الدموع فجأة تحت أهدابها الوطف الكثيفة، واقتربت من زوجة أخيها تتناول يدها في عطف وحنان، فلم تجفل هذه، لكن وجهها لم يفقد تعبيره الصارم.. وقالت لمحدثتها: " من المستحيل أن تواسينى، فقد ضاع كل شيء بعدما حدث.. كل شيء انتهى!.. وأسوأ ما في الأمر أننى مقيدة، بسبب الأطفال، بحيث لا أستطيع أن أنبذه.. في حين لا أستطيع أن أعيش معه. إن رؤيته وحدها تعذبني!".

فقالت لها آنا: " لقد سمعت القصة منه، لكني أريد أن أسمعها منك.. قصّى على كل شيء"!

قالت: " حسنًا، لكنى سأقصّها من البداية: تعلمين أنى حين تزوجت كنت - بحكم تربية أمى- بريئة غاية البراءة، إلى حد الغباء. لم أكن أعرف من حقائق الحياة شيئًا. والناس يقولون عادة إن الأزواج يروون

لزوجاتهم كل شيء عن ماضيهم، لكن " ستيفان" لم يرو شيئًا.. فظللت حتى الآن أعتقد أنني المرأة الوحيدة التي عرفها. وعشت هكذا ثمانية أعوام، أبعد ما أكون عن الارتياب في خيانته لى. كنت أعتبر ذلك أمراً مستحيلًا.. لذلك يمكنك تصوّر مبلغ الهلع الذي أصابني حين وقفت فجأة على الحقيقة المرة!.. حاولي أن تضعى نفسك مكاني: امرأة في قمة سعادتها تعثر يومًا على خطاب من زوجها إلى عشيقته، ومن تكون؟.. خادمتها! إنه لأمر فظيع.. وأحسبك تقدِّرين موقفى!".

وكانت وهي تتكلم تحاول جاهدة أن تقمع دموعها.. لكنها فشلت، فأخرجت منديلها ودفنت فيه وجهها.. بينما أجابتها " آنا" وهي تضغط يدها بين راحتيها.. " نعم، أقدِّر موقفك يا عزيزتي.. أقدره تمامًا!".. فقالت دوللي وهي تغالب الدموع: " لكنه هو لا يدرك حرج موقفه!.. بل إنه سعيد للغاية!".. فقالت آنا: " كلَّا!.. إنه جدير بالرثاء.. إن الندم يثقل ضميره!".. فأردفت دوللي وهي تنظر إليها متسائلة: " أتحسبينه قديراً على الشعور بالندم؟!".

قالت " آنا": " نعم، أنا أعرفه جيدًا. إنه طيب القلب، لكنه متكبِّر.. أما الآن فقد صار ذليلًا!.. وأكثر ما يعذبه أمران: أحدهما خجله من نفسه أمام أولاده. والآخر شعوره بأنه قد طعنك في الصميم بينما هو يحبك أكثر من أي شيء آخر في دنياه!.. نعم، صدقيني إن موقفه سيء للغاية!"

أخذت دوللي تنظر إليَّ بعيد كالحالمة، وهي تصغى إلى كلمات شقيقة زوجها، ثم قالت وقد لانت لهجتها: " نعم، أنا مقتنعة بأن موقفه سيء، وأن المذنب في هذه الأمور يكون أسوأ حالًا من البرىء - هذا إذا كان يشعر بخطئه، وبأنه المسئول وحده عن كل هذه التعاسة - ولكن كيف أستطيع أن أصفح عنه؟.. كيف أستمر زوجة له، بعد تلك الخيانة؟.. إن الحياة معه أمست بالنسبة لى الآن عذابًا مقيمًا، ولا سيما أنى شديدة التعلّق بحبى الماضى له!".

وغلبها البكاء فسكتت، حتى تمالكت نفسها، ثم استطردت قائلة: " إنها شابة، وجميلة على أية حال.. أما أنا فإن شبابي وجمالي قد وليا.. لكن من الذي استهلكهما؟. إنه هو، وأولاده!.. لقد أفنيت نفسى ونضارتي في خدمته، والآن باتت أي فتاة في زهرة العمر، ولو كانت

سوقية، تفتنه أكثر منى. ومن يدرى ماذا قالا عنى، و أية أحاديث تبادلاها في شأنى؟ و بعد هذا سوف يقول لي.. كلَّا.. لن أستطيع تصديقه مطلقًا!.. بل لقد انتهى كل شيء. وأفظع ما في الأمر أن قلبي تحوَّل فجأة، وبدلًا من الحب والجنان لم يعد عندى له غير الكراهية.. نعم، الكراهية في أشدّ صورها.. حتى ليُخيل إلى أني أود لو أقتله!".

فقالت لها " آنا" في لهجة ملؤها الحنان: " يا عزيزتى دوللى، إنى أفهم موقفك. ولكن لا تعذبى نفسك هكذا. إن يأسك البالغ يجعلك تنظرين إلى أشياء كثيرة نظرة خاطئة. ولست أنا بالتي تجهل آلامك التي تقاسينها، لكن هناك شيئًا واحدًا أحسبني أجهله: أي قدر من الحب بقى في قلبك نحوه؟ وهل يكفى هذا القدر من الحب كى تصفحى عنه؟ إذا كان الأمر كذلك، فاصفحي!.. إنى أعلم من أمور الدنيا وحقائق الحياة أكثر مما تعلمين. أعلم أن أمثال ستيفان قد يخونون زوجاتهم، لكن خيانتهم لا تؤثر في شعورهم نحو هؤلاء الزوجات بما يشبه التقديس، ونظرتهم إلى عشيقاتهم نظرة ملؤها

الاحتقار!.. إنهم لا يخونون زوجاتهم بقلوبهم. ولقد كنت أنتِ دائماً في نظر ستيفان موضع إعزازه وتقديسه، وما زلت كذلك!".

- ولكن إذا تكرّر الأمر؟

- هذا شيء لا يمكن أن يحدث، فيما أعتقد!

- ضعى نفسك في مكاني.. هل كنت تصفحين عنه؟

- نعم، وأصفح كما لو كان شيئًا من الأمر لم يحدث على الإطلاق!

ثم نهضت الزوجة فقبّلت ضيفتها وهي تقول لها منبسطة الأسارير: " هيا يا عزيزتى، دعينى آخذك إلى غرفتك. لكم يسرنى أنك جئت! لقد جعل مجيئك الأمور خيراً مما كانت. خيرًا منها إلى حد بعيد!".

قضت " آنا" طيلة ذلك اليوم في البيت، فلم تخرج، ولم تستقبل أحدًا، برغم أن بعض من تعرف سمعن بوصولها فحضرن لزيارتها في اليوم ذاته، لكنها آثرت أن تنفق الصباح كله مع دوللي وأولادها، بعد أن أرسلت إلى أخيها رسالة صغيرة توصيه فيها بضرورة العودة لتناول الغداء في بيته، ثم ختمت رسالتها بقولها: " تعال، فإن الله رحيم!".

وتناول ستيفان أوبلونسكي الغداء في بيته، واشتركت زوجته في الأحاديث العامة التي دارت على المائدة، فأدرك الزوج إمكان الوصول إلى تسوية. وبعد الغداء مباشرة جاءت كيتى شقيقة الزوجة، ولم تكن قد عرفت " آنا" من قبل إلا لمامًا، فجاءت لتشبع فضولها إلى لقاء هذه السيدة المترفة ذات المكانة المرموقة في مجتمعات (سانت بطرسبرج). وبدا على الفور أن " آنا" أعجبت بجمال " كيتى" وشبابها، في الوقت الذي شغفت هي فيه حبًا بآنا، كما تشغف الفتيات عادة بالزوجات اللواتي يكبرنهن سنًّا، وإن لم يبد على آنا في الواقع أنها قد جاوزت العشرين، بفضل مرونة حركاتها ونضارة وجهها، والحيوية الدافقة التي تبدو على محياها، وفي ابتسامتها ونظراتها!

وحين مضت دوللي بعد الغداء إلى غرفتها، نهضت آنا واتجهت مسرعة إلى أخيها، فوجدته يشعل سيجارًا، وإذ ذاك ابتدرته قائلة وهي تغمز له بعينيها: " ستيفا.. اذهب، كان الله في عونك!".. فألقى السيجار من فوره وقد فهم قصدها، ومضى دون إبطاء.. بينما عادت هي فاستلقت على الكنبة إلى جوار كيتى وأخذت تداعب أطفال شقيقها الذين أحبوها فالتفوا حولها يمرحون ويعبثون.. وفى أثناء

حديثها مع كيتى وجدت الفرصة مناسبة كي تقول لها: " لقد أنبأني ستيفا بشيء عنك، وأنا أهنئك.. لقد التقيت بفرونسكي في المحطة وأعجبت به جدًّا!".. فتورد وجه كيتى حياء وسألتها: " أوه؟ هل كان هناك حقًّا؟.. وماذا قال لك ستيفا؟".

- حدثني عن الشائعات الرائجة، فسررت بها. لقد صحبتني في القطار والدة فرونسكي فلم تكف عن إطرائه. إنه ابنها المفضل!

- وماذا قالت لك أمه عنه؟

- قالت الكثير.. من ذلك مثلًا أنه كان يرغب في التنازل عن كل أملاكه لأخيه.. وأنه حين كان غلاماً يافعاً أنقذ امرأة من الغرق، وقد ألحت على كى أزورها، وسوف يسرنى أن أذهب إليها غدًا.

ثم أضافت مغيّرة دفة الحديث وهي تنهض لتمضى إلى مخدعها: " لقد طال مقام " ستيفا" في حجرة دوللي.. حمداً لله!"

خرجت دوللى من حجرتها بمفردها عندما حان وقت تناول الشاي، ولما رأت آنا ابتدرتها قائلة: " أخشى أن تكون غرفتك التي في الطابق العلوي باردة يا عزيزتى. سوف أنقلك إلى هذا الطابق، كى

تكونى قريبة منى".. فأجابتها " آنا" وهي تتفرس في وجهها لتتبين مدى التسوية التي تمت بفضلها بين الزوجين المتخاصمين: " أوه!. لا داعي لأن تزعجى نفسك بسببى. إن أي مكان يناسبني!؟".. وفي تلك اللحظة خرج الزوج من الغرفة وأقبل يتحدَّث إلى زوجته، فأدركت آنا من لهجته أنهما تصالحا، فهمست لنفسها وقد سرَّها أنها كانت الوسيط في الصلح: " حمدًا لله!".. ثم مضت إلى دوللي فقبّلتها!

وطوال تلك الأمسية، لم تخلُ لهجة دوللي حين تحدثت إلى زوجها من لمحة سخرية رقيقة، تمزج العتب بالمزاح، كما اعتادت دائمًا أن تفعل حين يتلبّسها الألم وتضطرّ إلى ستره وراء قناع الترفّع. أمّا ستيفان أوبلونسكي، فكان كعادته يشعُّ مرحًا وابتسامًا، لكن بريق السعادة في عينيه لم يكن كافيًا ليخفي ما في داخله من شعور دفين بالذنب، كأن خطيئته ما تزال تطارده في صمت، تهزّه من داخله دون أن يبوح.

وفي نحو الساعة العاشرة، وهو الموعد الذي دأبت فيه "آنا" أن تودّع صغيرها "سيريوشا" وتغمره بقبلاتها قبل أن تتهيّأ للخروج إلى

السهرة، اجتاحها شعور غامض بالضيق والانقباض؛ إحساس الأم حين تفارق فلذة كبدها، ولو لوهلة قصيرة. اشتاقت إلى وجهه، إلى صوته، إلى طيفه البريء، فاستسلمت لتلك العاطفة العارمة، واقتنصت أول فرصة لتنهض، وتعود حاملة "ألبوم" الصور، علّها تسترجع شيئًا من دفء الأمومة وسط تلك القاعة المزدحمة.

وما إن بلغت الردهة، حتى دوّى جرس الباب الخارجي، فقطعت رنينه المقلق سكون اللحظة، فرفعت دوللي عينيها متسائلة:

–من يا تُرى في هذه الساعة المتأخرة؟

وقالت كيتى، بنبرة خفيفة من الدهشة:

–لم يحن بعد موعد إرسال من يصحبني إلى البيت... كما أنه من المتأخر أن يكون زائرًا غريبًا!

أما ستيفان، فخمن بابتسامة غير مكترثة:

–لعله أحد السعاة في المكتب... جاء يحمل بعض الأوراق!

وفي هذه الأثناء، كانت آنا قد صعدت السلم حتى أوشكت أن تبلغ أعلاه، حين عاد الخادم ليعلن اسم الزائر. وفيما كان صوته ينساب عبر

الردهة، وقف القادم تحت مصباح يتدلّى من السقف، فوقع ضوؤه على ملامحه الواضحة، ورأته آنا... ورأته كما لو أنها كانت تتوقعه، دون أن تعرف.

كان هو... فرونسكي!

خالجها إحساس عجيب لم تستطع له تفسيرًا: غبطة ناعمة، خفقة خفيّة ممزوجة بخوفٍ لا اسم له ولا ملامح، كأن قلبها تنبّه لنبأ غير مُعلن، فاضطرب قبل أن يفهم السبب.

وفي اللحظة التي التفتت فيها لتعبر الممشى العلوي للسلم، رفع الشاب عينيه فرآها.

والتقت نظراتهما لبرهة خاطفة، لكنها كانت كافية لتشعل وجهه بحمرة ارتباك مفاجئ، فتلبّدت ملامحه بسحابة من الإجفال والدهشة، بينما هي اكتفت بإيماءة خفيفة من رأسها، ومضت في طريقها كأن شيئًا لم يكن.

وما إن اختفت خطواتها حتى بلغها من أسفل صوت أخيها، يستقبل الزائر بحفاوة صادقة، وصوت فرونسكي يجيبه باعتذار

هادئ، يرفض الدخول بكل ما في نبرته من رزانة متعمدة... رزانة تخفي عاصفة.

وحين عادت آنا تحمل "ألبوم" الصور، وقد انبعث من عينيها ذلك الحنين الصامت الذي يلازم الأم كلما أطلت بصرها على ملامح طفلها، كان فرونسكي قد غادر المكان، ولم يبق من أثر قدومه سوى ما علق في الأجواء من وقع خطواته وصدى حضوره الخاطف. وكان ستيفان يجلس وقد بدا على وجهه ارتياح ظاهري، يشرح للحاضرين بابتسامة معتادة:

–لقد جاء يستفسر عن مأدبة العشاء المرتقبة غدًا... فهي مُعدَّة على شرف شخصية بارزة وصلت حديثًا إلى المدينة. وقد ألححت عليه أن يدخل ويقضي معنا بعض الوقت، لكنه اعتذر بلطف... ولم أفلح في إقناعه.

وفي تلك اللحظة، تسللت حمرة خجولة إلى خدي كيتى، وتوهّجت عيناها بوميض من الإدراك الخفيّ، كما لو أنها وحدها قرأت ما خفي بين السطور، وعرفت أن هذا القدوم لم يكن إلا من أجلها، وأن عزوفه

عن الدخول لم يكن إلا حياءً، أو تهيُّبًا من وجود "آنا"، تلك الغريبة التي بدت في عينيه غامضة الطيف، مشوّشة الحضور.

وخاطبت نفسها في سرها، بشيء من رجف القلب:

" لا ريب أنه عاد إلى البيت ولم يجدني، ففهم أنني هنا... لكنه تراجع، ربما لأن الساعة متأخرة، أو لأن وجود آنا أربكه، فهي لا تزال غريبة عنه."...

ثم آثرت الصمت، واحتفظت بذلك الاستنتاج لنفسها، كزهرة سرية انفتحت في قلبها دون أن يراها أحد.

-6-

حلَّ المساء المرتقب، مساء الحفلة الكبرى التي تواعدت فيها كيتى مع فرونسكي على أن يكون لقاؤهما بين أضوائها الراقصة وأنغامها المسحورة، ذلك اللقاء الذي تمّ الوعد به في تلك الليلة التي رفضت فيها قلب ليفين الصادق... وما إن دقّت الساعات الأولى من الأمسية حتى كانت كيتى، يصحبها طيف أمها الأميرة شرباتسكي، تصعد درجات قصرٍ غمرته الأضواء وتضوع في أركانه عطر الزهور وأصوات الكمان... قصر يشبه الحلم وقد بعث فيه الازدحام والهمس ضجيجًا شبيهًا بطنين خلية نحلٍ لا تهدأ.

وبينما كانت الأم وابنتها تلقيان آخر نظرة أمام المرآة على هندامهما، قبل أن تلجا إلى القاعة الكبرى، دوّى لحن الفالس الأول، فاهتزّ في أعماق كيتى وترٌ دفين. ولم تكد تطأ أرض القاعة حتى أحاط بها المعجبون من كل صوب، من الأشيب ذي المكانة، إلى الفتي المتورد الخدّين، يطلبون رقصة، أو نظرة، أو وعدًا. وقد كانت كيتى قد وعدت فرونسكي أن تهب له الرقصة الرباعية، فوهبت لغيره الثانية،

ثم انطلقت تخطر كأنها لا تدري مدى ما يفيض به حضورها من فتنة، ولا ما ينبعث من ثوبها الوردي، المرصّع عند العنق بقطيفة سوداء، من سحر لا يُقاوم. كانت أشبه بلوحة مرمرية حيّة، يتألق منها الجمال بلا زيف، وتبتسم فيها الحياة على شفتيها الوَرْديّتين، وتلمع في عينيها أنوار الأمل والتوق.

وقبل أن تستفيق من دهشتها، اقترب منها أحد أمهر الراقصين، كورسانسكي، ذا القسمات الوضيئة والجسد الرشيق، ولم ينتظر ردها حين طوّق خصرها بجرأة ناعمة، وراح يقودها في الرقصة الأولى. تلفتت كيتى من حولها لتودع مروحتها، فلم تجد سوى مضيفتها، فابتسمت لها، وسلمتها إياها، ثم انساقت في خطوات الفالس، حيث الهواء يدور بها، وحيث عيناها تراقبان عالم الحفلة وكأنها تتأمله من شرفة حلم بعيد.

لم يكن ذاك أول محفل تحضره، ولكنّها لم تكن من روّاد السهرات، فجاء حضورها أشبه بالتأمل الهادئ في معرض من الحيوات المتشابكة. وهناك، في الركن الأيسر من القاعة، تجمّع نخبة من علية

القوم، تتوسطهم مدام كورسانسكي، الحسناء الفاتنة، وقد ارتدت ثوبًا لا يوارب شيئًا من جسدها، كأنها أعلنت نفسها لوحة جسد بلا حجاب. وإلى جوارها، وقفت ربة القصر، وستيفان شقيق دوللي، وآنا كارنينا، التي اكتست بثوب أسود من القطيفة، أخرج عنقها الأبيض كتمثال عاجي نُحت في لحظة إلهام.

ثم كان فرونسكي... وقد لمحت كيتى نظراته تتسلل إليها من بين الزحام، متقدة، ثابتة، كما لو أنه لم ينظر إلى أحد سواها. ولم يكن قد رآها منذ لقائهما الأخير، حين وعدها بلقاء الليلة... فاستعاد قلبها خفقانه القديم.

وما إن انتهت الرقصة حتى قادها كورسانسكي، طائعًا، إلى حيث شاءت، إلى ركنٍ رفيع المقام... وهناك، لم يكد يغادرها، حتى التفت إلى آنا كارنينا وانحنى أمامها قائلًا، وفي عينيه دعوة لا تخفى:

–أتسمحين لي أن أتشرف برقصة الفالس، سيدتي آنا؟

فسألته ربة القصر، في شيء من الدهشة:

–أتعرفان بعضكما؟

فأجاب مبتسمًا:

–ومن لا يعرفنا؟ زوجتي وأنا نُعرف كما تُعرف الذئاب البيض... كل الناس تعرفنا!

ثم التفت إلى آنا قائلًا:

–رقصة الفالس، إن لم يكن في الأمر مانع؟

فقالت، وعلى شفتيها ما يشبه السخرية المغلفة بعتب رقيق:

–لا أرقص حين لا أستطيع أن أرقص...

–ولكن، الليلة يستحيل فيها ألا يرقص المرء!

وفي تلك اللحظة تقدم فرونسكي نحوهم، فانحنى لآنا انحناءة خافتة، بالكاد لمحها من حوله. وهنا، وضعت آنا يدها في يد كورسانسكي، وابتسمت قائلة:

–حسنًا، ما دام ذلك مستحيلًا الليلة... فهيا بنا!

وحدَّثت كيتي نفسها قائلة: " لماذا تعمّدت " آنا" تجاهل انحناءة فرونسكى؟ ترى ما الذي يحنقها عليه؟!".. أما هو فاقترب من كيتي

يذكرها بالرقصة الرباعية التي وعدته بها، ويعرب عن أسفه لأنه لم يتنبه إلى وجودها إلا الآن، فأصغت إليه بأذنيها بينما كانت عيناها تتابعان " آنا" في شغف وهي ترقص، وانتظرت كيتى أن يطلب فرونسكي منها أن تراقصه الفالس، لكنه لم يفعل، فنظرت إليه مدهوشة.. وإذ ذاك تورد وجهه قليلًا وبادر يسألها أن تراقصه.. لكنه لم يكد يضع ذراعه حول خصرها ويتأهب للخطوة الأولى، حتى انتهت الرقصة وصمتت الموسيقى، فرفعت كيتى عينيها إليه – وكان وجهه قريباً من وجهها - بنظرة ملؤها الحب والشغف.. لكنه لم يستجب لنظرتها! وقد ظلّت كيتى سنوات طويلة تذكر هذا الحادث الذي حز في نفسها وعمرها بموجة من الخجل!

وقد رقص فرونسكي وكيتى " الفالس" عدة مرات في تلك الليلة.. ثم جاء دور الرقصة " الرباعية" فاشتركا فيها معًا. وطيلة هذه الرقصات لم يدر بينهما حديث ذو قيمة في نظر الفتاة، إلا حين سألها فرونسكي عن " ليفين"، وهل حضر الحفلة، ثم أضاف إلى ذلك أنه قد مال إليه وأعجب به!

على أن كيني لم تتوقّع نتيجة تذكر من أحاديثهما أثناء تلك الرقصات السريعة الحركة، بل علّقت كل آمالها على رقصة " المازوركا" التالية، التي تتيح الفرصة لتبادل الكلام في تؤدة وهدوء، فصورت لنفسها أنه لا بد سيفاتحها بحبه في صراحة أثناء هذه الرقصة. وكانت واثقة من أنه سيشاركها " المازوركا" هذه المرة كما رقصها وإياها في حفلات أخرى سابقة، فرفضت عروض خمسة شبان تقدَّموا إليها طالبين مشاركتها فيها، معتذرة بأنها قد ارتبطت بصددها مع شخص آخر قبلهم!.. وفيما كانت ترقص الرقصة الأخيرة السابقة للمازوركا، بصحبة أحد الشبّان اللحوحين الذين يتعذر على الفتيات رفض طلبهم، وجدت نفسها مصادفة وجهًا لوجه أمام فرونسكي وآنا!.. وكانت آنا تبدو كالثملة من الانفعال والغبطة: تختلج عيناها، وتلمعان، وترف على فمها ابتسامة السعادة الخالصة، وتتسم حركاتها في وقت واحد بالجلال والاتزان، والليونة والخفة!.. فلم تملك كيتى إلا أن تسأل نفسها: " ترى أهي نشوة الإعجاب بالحفلة كلها، التي تبعث في أوصالها هذا الانفعال، أم نشوة الإعجاب بشخص معين؟ ومن يكون؟ هل يمكن أن يكون.. هو؟ إن الفرحة تلمع في عينيها كلما

وجَّه إليها كلمة، وابتسامة الهناءة ترتسم على شفتيها الحمراوين.. ولكأنها تبذل مجهوداً كي تسيطر على نفسها، فلا تظهر إمارات غبطتها للعيان، لكن هذه الدلائل تأبى مع ذلك إلا أن تطفو على محياها!".

ومضت تسائل نفسها: ترى ما هو موقفه هو؟ ثم اتجهت ببصرها إليه، وسرعان ما ذعرت، إذ رأت في وجهه ما رأته في وجه " آنا"! ماذا جرى لتحفظه المألوف، وتعبير وجهه الرزين، غير المبالى؟ إنه الآن كلما استدار نحوها يخفض رأسه، كما لو كان يوشك أن يخر راكعاً عند قدميها، وفي نظراته معنى الخضوع والرهبة! إن نظرته كأنها تقول لآنا: " لست أريد أن أسيء إليك، وإنما أريد أن أنقذ نفسي.. ولست أدرى كيف!".. وكان الحديث الذي يتبادلانه تافهاً في ذاته، ولكن بدا لكيتى كأن كل كلمة يقولانها إنما تقرِّر مصيرهما ومصيرها.. فغامت الدنيا كلها في ناظريها، واضطربت موازين الأشياء! ولولا التربية القويمة الصارمة التي نشأت عليها لما استطاعت أن تحتفظ بثباتها وتواجه مقتضيات موقفها، أي أن ترقص، وتجيب عن أسئلة مراقصها، وتبتسم!.. ولكن حين بدأت الاستعدادات لرقصة المازوركا أدركت كيتى حرج مركزها: لقد رفضت عروض خمسة من الراقصين طلبوها، اعتمادًا منها على

مراقصة فرونسكي، وها هي ذي الرقصة تبدأ وهي لم تشترك فيها، ولا ينتظر أن تفعل، فقد كانت من النجاح في المجتمع بحيث لن يخطر ببال أحد أنها لا تجد من تراقصه، ومن ثم لن يجرؤ شخص آخر على التقدم لها!

وودت لو تزعم لأمها أنها تشعر بتعب مفاجي، وتنصرف إلى بيتها، فمضت إلى أقصى غرفة الانتظار الصغيرة وتهالكت على مقعد مريح، ثم راحت تهز مروحتها هزات سريعة قصيرة، بغية التخفيف من حرارة الانفعال التي تلهب وجهها، وقد عض قلبها يأس مروع!.. ومرة أخرى استعادت في ذهنها كل ما حدث، ومضت تحدِّث نفسها قائلة: " لعلني مخطئة، لعل الأمر ليس كما استنتجت!".

وفجأة اقتحمت عليها الكونتة " نوردستون" عزلتها و بادرتها متسائلة: " كيتى، ماذا جرى؟ لست أفهم! ألا ترقصين؟".. فبدأت شفة كيتى السفلى تختلج انفعالًا، وأجابت بصوت يشرق بالدموع: " كلا، كلا..", وعندئذ قالت الكونتة تواسيها: " لقد طلب من " آنا" أن يراقصها المازوركا على مسمع منى، كما سمعتها تسأله: ماذا؟ ألا تنوى

أن ترقصها مع كيتى؟".. وهنا قطعت كيتى كلام محدثتها متبرمة وقالت: " أوه! هذا لا يهمني!".. لكن الكونتة أدركت حرج موقف الفتاة، فطلبت من الراقص كورسانسكي – الذي كان مقدرًا أن يرقص معها - أن يراقص كيتي بدلًا منها. وكان من حسن حظ كيتى أن مراقصها لم يشتبك معها في ثرثرة تفرض عليها أن تتكلم فتفضح انفعالها. وأثناء الرقصة التقت بفرونسكى و " آنا" من قريب، فازدادت شعورًا بتعاستها التامة. كان يبدو عليهما مظهر اللذين يحسان نفسيهما وحيدين في القاعة الخاصة بالناس!.. وعلى وجه فرونسكي لمحت كيتى تلك النظرة الخاضعة الحائرة التي ترتسم في عيني الكلب الذكي حين يدرك أنه قد ارتكب فعلة حمقاء!

ثم ارتسمت على شفتي "آنا" ابتسامة وادعة، لم تلبث أن انعكست كوميض خافت على فم فرونسكي، كأنها سحابة صيف تلمع قبل أن تتوارى في الأفق. وسرعان ما غامت قسماتها بظلال التأمل، فتبدلت ملامحه بدوره، واكتسى وجهه بوقار صامتٍ يوحي بالتفكر والشرود. أما كيتى، فقد أحسّت أن قوة خفية، كأنها مغناطيس ساحر، تشد بصرها إلى تلك السيدة الغامضة، تشد قلبها وعقلها معًا.

رأتها فاتنة بكل ما للكلمة من رهبة وجلال؛ فاتنة في ملامحها الوديعة الصارمة، في فستانها الأنيق، في لآلئها التي تتلألأ في الضوء، في طريقة مشيتها، وفي شعرها المرسل كضوء الليل حين ينسدل في هدوء فوق بحيرة ساكنة. لكن فتنتها لم تكن فتنة رخوة، بل كانت ذات حدٍّ يقطر مهابةً وجفاءً في آن، كجمال شتاءٍ روسيٍّ مهيب، يسرق الأنفاس ويجمدها معًا.

أعجبت كيتى بآنا إعجابًا لم يسبق له مثيل، إعجابًا مخلوطًا بحرقة داخلية موجعة، كأن تلك السيدة قد سحبت منها دفعة واحدة إحساسًا بالضآلة والخذلان، حتى ارتسم الألم جليًّا على قسمات وجهها، وانكسرت نظرتها على أرض القاعة كالمرآة حين تتحطم في صمت. وحين مرّ فرونسكي قربها وهو يراقص آنا، لم يتعرف إليها بادئ الأمر، من شدة ما تغيرت، وحين أدركها، تمتم كمن يبحث عن كلمة يخبّئ بها اضطرابه:

–يا لها من حفلة ممتعة!

فلم تجبه إلا بهمسة بالكاد تُسمع:

–نعم...

وعندما انقضت الرقصة، استدارت آنا إلى مضيفيها وقالت، بصوت خافت ولكن حازم:

–أرجو أن تأذنوا لي بالانصراف.

فأحاطها مضيفوها بتوسلات رقيقة، يرجون بقاءها للعشاء، وللرقصة التالية، ولكنها لوّحت بيدها نافضة الرجاء برقة:

–لقد رقصت الليلة في موسكو أكثر مما رقصت طيلة الشتاء في بطرسبرج...

ثم نظرت من حولها، كمن يبحث عن شيء، حتى التقت عيناها بعينَي فرونسكي، الذي كان واقفًا غير بعيد، فاستدركت، ونبرتها توحي بما لا يُقال:

–ينبغي لي أن أستريح قبل أن أرحل...

عندها تقدم فرونسكي، كأن الكلمات اندفعت من فمه قبل أن يُحكم زمامها:

–إذن فأنت مصرّة على السفر غدًا؟!

فأجابته وهي ترمقه بنظرة ذات بريق قاتل، نظرة امتزج فيها الاستفهام بالدهشة، والدهشة بالإغواء:

–أعتقد ذلك...

ثم انصرفت... وتركته واقفًا وسط القاعة، كمن أُطفئت من حوله كل الأنوار دفعة واحدة، وبقي وحده في عتمة لا تشبه الليل، بل تشبه الفقد.

-7-

أبرقت " آنا" إلى زوجها في صباح اليوم التالي منبئة إياه باعتزامها مبارحة موسكو في اليوم نفسه، وأنفقت الضحى كله في إعداد أمتعتها تأهبًا للرحيل، وبعد الغداء مضت إلى حجرتها لترتدى ثيابها، فتبعتها إليها زوجة أخيها " دوللي" – وقد لاحظت اكتئابها وغرابة أطوارها - وابتدرتها بقولها: " ما أغرب حالك اليوم يا آنا!"، فأجابتها هذه وهي تنحنى على حقيبتها تعبث بها لتخفى انفعالها: " أنا؟ أتظنين ذلك؟ هذا يحدث لى أحيانًا. أحس بميل إلى البكاء، لكنها نوبة لن تلبث أن تنقضى. قبيل مغادرتي بطرسبرج أحسست بإشفاق من السفر، واليوم أشفق من العودة!"

وطفت الدموع فوق مقلتي " آنا" وهي تتكلم، فنظرت إليها مضيفتها بإمعان، وقالت: " لقد صنعت خيرًا بمجيئك".. فواجهتها " آنا" بعينيها المبللتين بالدمع، وأجابت: " لا تقولى هذا يا دوللى، أنا لم أصنع شيئًا. وإنما هو الحب الذي مكنك من الصفح، وصنع كل شيء!"

- بل لولاك لحدث ما لا يعلم غير الله!.. ما أسعدك يا آنا، كل شئء صاف وطيب في قلبك.

- لكل قلب منغصاته، كما يقول الإنجليز!

- لكن شيئًا ما لا ينغصك أنت فيما أحسب.. كل ما فيك صفاء ونقاء!

.. فصمتت آنا هنيهة، ثم قالت فجأة وقد رفت على شفتيها ابتسامة ساخرة، وتهالكت على مقعد مريح: " بل عندى ما ينغصنى. أتعلمين لماذا أرحل اليوم بدلًا من غد؟ إنه اعتراف يثقل على قلبي، وقد قررت أن أكاشفك به!".. وأدهش دوللى أن ترى محدثتها وقد صعد الدم إلى وجهها فجأة، وهي تردف قائلة: " نعم، وهل تعلمين لِمَ لم تأت كيتى اليوم للغداء؟ لأنها تغار مني!.. لقد أفسدت عليها متعة سهرة الأمس. ولكن صدقينى إنها لم تكن غلطتي، أو قولى إن نصيبي فيها كان ضئيلًا!".. فقالت لها دوللى، تهون عليها الأمر: " لقد ذكر لى ستيفان أنك رقصت المازوركا مع فرونسكي، وأنه..".. فقطعت، آنا، كلامها قائلة: " إن الأمر كله حدث دون قصد.. بدأ بمزحة ثم انقلب

في النهاية جدًّا، ربما برغم إرادتي!.. والواقع أنى أكون غاية في التعاسة لو كان هو قد نظر إلى المسألة نظرة جدية.. لكنى واثقة أن كل شيء سوف يُنسى، ولن تعود كيتى تحس نحوى بالكراهية!"

- دعينى أصارحك بدورى يا آنا، إنى لم أعد متحمسة لزواج فرونسكي من كيتى، ما دام قديرًا على أن يقع في هواك بهذه السرعة!

- إنها حماقة كبرى في الواقع. وها أنذا أغادر موسكو بعد أن كسبت عداء كيتى، التي أحبها وأعجب بها. حقًّا ما أعذبها! لكنك ستصلحين الأمر كله بلباقتك، أليس كذلك يا دوللي؟

وفاضت الدموع من عينيها، فأجابتها مضيفتها قائلة: " عداء كيتى؟ لا تغالى يا عزيزتى".. وجففت آنا دمعها بمنديلها ثم نهضت لتكمل ارتداء ثيابها للسفر. وحين أزف وقت الرحيل وصل ستيفان ليرافق شقيقته إلى المحطة، وعانقت دوللى ضيفتها هامسة لها: " تذكري يا آنا أني لن أنسى صنيعك من أجلى ما حييت! إنى أحبك وسوف أعتبرك دائماً أعز صديقة لي!".

.. وفي القطار تنفست آنا الصعداء، بعد أن ودّعها أخوها ودوى صفير القاطرة إيذانًا بالرحيل. ثم حدَّثت نفسها قائلة: " لقد انتهى كل شيء، والحمد لله، وغداً أكون بين ابنى سير يوشا وزوجي أليكسي، وتعود حياتي سيرتها الأولى، لطيفة كالمعتاد".. ثم فتحت إحدى حقائبها فأخرجت منها وسادة صغيرة وضعتها على ركبتيها ودثرت ساقيها بغطاء سميك، وإذ استراحت إلى هذا الوضع أخرجت كتابًا يتضمن قصة إنجليزية وشرعت تقرأ. لكنها لم تتقدَّم في القراءة وتفهم ما تقرأ إلا بعد أن ابتعد القطار عن ضجيج المحطة وسكتت مناقشات الركاب بصدد العاصفة الثلجية التي كانت تضرب زجاج النوافذ بكرات الثلج الثقيلة. وكان من عادة " آنا" إذا انهمكت في قراءة قصة أن تعيش مع بطلاتها وأبطالها بكل مشاعرها، فلما رافقت بطل القصة هذه المرة حتى حصل على أمنيتيه في السعادة المنشودة - حسب عقليته الإنجليزية – وهما: لقب " سير"، وضيعة من الأرض، ثم تأهَّبت لأن تمضى معه إلى ضيعته الجديدة.. أحست فجأة أنه ينبغي أن يخجل من نفسه، وأن تخجل هي منه، ولكن ما هو الشيء الذي ينبغي له ولها أن يخجلا منه؟

سألت نفسها هذا السؤال كالمدهوشة، ثم ألقت الكتاب جانباً وغاصت في مقعدها، وأخذت تستعيد ذكريات أيامها في موسكو: تذكَّرت حفلة الأمس، وتذكَّرت فرونسكى بوجهه الناطق بالشغف والوله، ثم تذكَّرت كل تصرفاتها معه. لم يكن في شيء من ذلك ما يخجل، ومع ذلك فقد ازداد شعورها بالخجل حدّة وإلحاحًا، وكأن صوتًا يهمس لها كلما فكرت في فرونسكى: " دافئ، دافئ جداً، ساخن!".. فلبثت تسائل نفسها في عزم وجرأة: " ماذا، أيمكن أن توجد - الآن أو في المستقبل - بيني وبين هذا الضابط الشاب أية علاقة غير التي تربطنى بكل من أعرف؟".

وضحكت في احتقار لهذا الظن، ثم تناولت كتابها من جديد، لكنها في هذه المرة عجزت عن حصر ذهنها فيما تقرأ، وإنما راحت تعبث بسكين الورق التي فضت بها صفحات الكتاب، فألصقت سطحها الناعم البارد بخدها. وكادت تضحك بصوتٍ عال لهذا الشعور بالغبطة والنشوة الذي تملّكها على حين غرة. أحست شيئاً في داخلها يضغط أنفاسها، بينما اتخذت كل الأشكال والأصوات في وعيها طابعاً " حادًّا" غير مألوف.. ولم تفق من شرودها إلا حين بلغ القطار

المحطة التالية، فنهضت بعد أن تدثرت، ومضت إلى باب المقصورة تنشد الهواء. وحين فتحت الباب اندفع منه الجليد والهواء اللاذع ليصارعاها على عتبته، لكنها استمتعت بالصراع وهبطت إلى الرصيف. وهنا فقط وجدت في حمى العربات أمانًا من الريح العاصفة، فجذبت بضعة أنفاس عميقة من النسمات المثلوجة وراحت تجيل بصرها في أرجاء المحطة المضاءة بالأنوار. كان الرصيف مأهولًا بالمسافرين والوافدين والمودّعين، وقد كساهم الجليد بلونه الناصع الشبيه بلون القطن المندوف، كما كسا جميع معالم المحطة وعجلات القطار وعربات نقل البضائع التي تروح وتجيء على الرصيف.. والناس يهرعون كل إلى وجهته مسرعًا لا يلوى على شيء، هرباً من العاصفة العاتية. وكانت الريح قد اشتدت، فجذبت " آنا" نفسًا أخيرًا طويلًا من الهواء النظيف المنعش وأخرجت يديها من فراء كميها كي تمسك بمقبض العربة وتدخل إلى مقصورتها.. ولكن في تلك اللحظة برز أمامها ضابط، تبينت فيه على الفور: فرونسكى!

ومد الشاب أصابعه إلى طرف قبعته ثم انحنى لها متسائلًا: " هل ترغب السيدة في شيء؟ وهل أستطيع خدمة ما؟".. وحدَّقت فيه "

آنا" طويلًا دون أن تجيب، وبرغم أنه كان واقفًا في ظل الضوء، فإنها لمحت التعبير الذي لاح في وجهه وعينيه. كان هو ذلك التعبير النشوان الذي ينم في الوقت نفسه عن التوقير والتحية، التعبير الذي كان له أكبر الأثر في نفسها خلال الليلة السابقة!.. ونسيت ما كانت قد زعمته لنفسها منذ هنيهة، من كونه لا يزيد في نظرها على أي رجل آخر ممن تعرف، بحيث لا يستحق منها أن تفكِّر فيه لحظة، وبدلًا من ذلك تملَّكها شعور بالفرحة الطاغية غير الإرادية.. ووجدت صوتها أخيرًا لتسأله، وإن كانت في غنى عن جوابه الذي تعرفه سلفًا: " لم أكن أعلم أنك مسافر في القطار نفسه.. إلى أين؟!".. وأشرق في وجهها الهناء والشوق وهي تتكلم، فأجابها فرونسكي وهو ينظر في عينيها عن كثب: " ما الذي جاء بي؟ تعرفين جيدًا أني جئت لأكون حيث تكونين. إنه أمر لا حيلة لى فيه!"

وفي تلك اللحظة بلغت العاصفة أشدها، فراحت تنتزع الأشياء الخفيفة من أماكنها، وتلطم الوجوه بقسوة. ولكنها برغم ضراوتها بدت لآنا رائعة ممتعة!.. كيف لا وقد خاطبها فرونسكي بالعبارات التي كانت روحها تتوق إلى سماعها، وإن خشيتها بعقلها؟!.. ومضت

لحظات، قبل أن تستطيع هي الإجابة قائلة: " إنه غير لائق هذا الذي تقوله، ورجائى إليك - إذا كنت رجلًا فاضلًا - أن تنسى العبارة التي تفوّهت بها، كما سأنساها أنا!".. ولكنه مضى في كلامه بلهجة العناد والحزم نفسها فقال: " ما من كلمة من كلماتك، أو حركة من حركاتك، يمكن أن أنساها يومًا! إن هذا فوق استطاعتى!".. فقالت مغمغمة " كفى!. كفى!". وحاولت وهي تصيح به أن تضفى مسحة صارمة على وجهها، الذي كان الشاب يحدِّق فيه بشراهة. ثم صعدت مسرعة إلى العربة ومرقت إلى الممر المؤدى إلى مقصورتها.. لكنها في وسط الممر تمهلت، تسترجع في ذهنها ما حدث. وبوحى من غريزتها أدركت أن ذلك الحديث القصير قد قرَّب بينهما إلى حد مخيف!.. وبقدر ما أفزعها الأمر، أمتعها هذا وسرَّها، فاستأنفت سيرها إلى مقصورتها، حيث جلست في مكانها وقد استبد بها انفعال حاد يفوق كل ما أحسته من قبل!.. وطيلة الليلة لم تذق للنوم طعمًا، لكن المشاعر التي تجاذبت حواسها، والرؤى التي ملأت خيالها، لم تكن كئيبة بغيضة، بل كانت على العكس مشرقة، بهيجة، مباركة!

وحين غادرت القطار، كان أول من وقع عليه بصرها في محطة بطرسبرج: زوجها!.. رباه، لم تبدو أذناه بهذه الهيئة؟ وأقبل هو نحوها وعلى فمه ابتسامته الساخرة المعهودة، وعيناه الكبيرتان المتعبتان ترمقانها. ونهش قلبها شعور بالضيق وعدم الارتياح، كأنما توقَّعت أن تراه على غير ما عهدت وعرفت!.. ولأوَّل مرة تنبهت إلى النفور الذي أحسته نحوه حين لقيته! أما هو فاستقبلها متظرفًا، يقول: " إن الشوق إليك يلهب - كما ترين - زوجك الرقيق المخلص".. فسألته: " هل سيريوشا بخير؟".. فقال: " أهذه كل مكافأتى على أشواقي؟.. إنه بأتم خير! "

لم يحاول فرونسكي أن ينام طيلة تلك الليلة، وإنما جلس في مقعده بالقطار ينظر إلى ما يجرى أمامه دون أن يلقى بالًا إليه أو إلى الناس الذين حوله، وكأنهم في نظره ليسوا من البشر!.. بل لعله في شروده لم ير أحدًا، أو شيئًا ما، وإنما أحس بنفسه ملكًا، لا لكونه اطمأن إلى أنه قد ترك في نفس " آنا" أثرًا - ولم يكن في الواقع قد اطمأن إلى ذلك بعد! – بل لأن الأثر الذي تركته هي في نفسه قد أفعم قلبه غبطة وزهوًا!.. ولم يكن يدرى ماذا ستكون نتيجة هذا كله، لكنه

لم يفكِّر في ذلك قط، مكتفيًّا بإحساسه أن كل قواه - التي كانت حتى الآن مشتتة ضائعة - قد تركّزت اليوم في شيء واحد، وسعت في نشاط مخيف إلى هدف واحد منشود.. وإنه لسعيد بذلك!.. إنه لا يعلم سوى أنه قد ذكر لها الحقيقة حين قال لها إنه جاء ليكون حيث تكون، فإن كل سعادته - أو المعنى الوحيد للحياة عنده - قد انحصرا الآن في رؤيتها، وسماع صوتها. وحين غادر مقصورته في محطة (بولوجوفا) ليبحث عن زجاجة من المياه المعدنية، ووقع نظره على آنا، أفصحت كلمته الأولى لها عما يختلج في قلبه. ولكم يسره أنه قد فعل، وأنها تعرف ذلك الآن، وتفكِّر فيه!.. إنه لم ينم طيلة الليلة، فحين عاد إلى مقعده – بعد أن التقيا – لبث يسترجع في ذهنه كل صورة رآها عليها منذ عرفها وكل كلمة نطقت بها. وأمام خياله سبحت صور مستقبلهما المحتمل معًا، فاختلج قلبه انفعالًا بعاطفته!

وحين غادر القطار في بطرسبرج، بعد ليلته المؤرقة، أحس نشاطاً وانتعاشًا كما لو كان خارجاً لتوه من حمام بارد!.. فتمهل قرب مقصورتها ينتظر خروجها، وقد أخذ يحدِّث نفسه وهو يبتسم دون وعى: " مرة أخرى سأراها، أرى مشيتها ووجها.. سوف تقول شيئًا، أو

تدير رأسها، أو ترمقني بنظرة، وربما تبتسم!".. لكنه قبل أن يراها تخرج، رأى زوجها، الذي كان ناظر المحطة يرافقه في إجلال ويفسح له الطريق بين الجماهير. وعندئذ، ولأول مرة، أدرك فرونسكي بوضوح أنها تمت بصلة إلى شخص غيره، إلى زوج!

نعم، كان يعلم من قبل أن لها زوجًا، لكنه لم يكن يصدق بوجوده حقًا... أما الآن، فقد تيقّن من وجوده، لا سيّما حين رآه يأخذ ذراعها بذراعه.

وشقّ عليه أن يرى "غريمه" ماثلًا أمامه؛ إذ شعر بأن أحدًا سواه لا يحق له أن يحب "آنا."

فاستجمع شجاعته واقترب، وتهيّأ له، وهو يرقب اللقاء الأول بين الزوجين، أنّها تحدّث زوجها بشيء من التحفّظ، فحدّث نفسه: "إنها لا تحبه... لا، لا يمكن أن تحبه"!

وفي اللحظة التي كاد أن يمرّ بمحاذاتهما، لاحظ، وفي نفسه شيء من الزهو، أنّها تنبّهت لاقترابه، فاستدارت برأسها نحوه، ثم عادت بنظرها إلى زوجها.

فانحنى الشاب لهما وقال:

" —هل قضيتِ ليلة مريحة؟"

فأجابته، بنبرة هادئة:

" —نعم، أشكرك".

ثم نظرت إلى زوجها، وكأنّها تسأله بعينيها: "هل تعرفه؟" فنظر الزوج إلى فرونسكي نظرة فاترة، لا يكاد يتذكر وجهه، فابتدرته آنا، قائلة:

" —الكونت فرونسكي".

فمدّ ألكسي يده إلى الشاب ببرود، وقال:

" —آه، أعتقد أنّنا لسنا غريبين. إذن فقد ذهبتِ إلى موسكو مع الأم... وعدتِ مع الابن"!

ثم التفت إلى فرونسكي، متابعًا في نبرة مزاح:

" —هل عدتَ من إجازتك؟"

وقبل أن يتيح له فرصة للجواب، استدار إلى زوجته، يضحك:

" —وهل ذرف مودّعوكِ الدموع في موسكو عند وداعك؟"

وبهذا التصرف، أشار ألكسي لفرونسكي بوضوح أنّه يرغب في الانفراد بزوجته، ثم لم يكتفِ بالإشارة، بل رفع يده إلى قبعته، ملوّحًا له بالوداع.

لكنّ فرونسكي لم ينسحب على الفور، بل قال لآنا:

" —آمل أن يتسنّى لي شرف زيارتك في منزلكم".

فأجابه ألكسي، بنظرة باردة ولهجة متكلفة:

" —بكل سرور... نستقبل ضيوفنا كل يوم اثنين".

ثم ودّعه فرونسكي وانصرف.

وهنا، بدأت "آنا" تسائل زوجها عن ابنهما "سريوشا"، وكيف كانت حاله أثناء غيابها. فأجابها:

" —بخير، الحمد لله. والواقع أنّه لم يتألم لفراقك كما تألم زوجك! لقد سئمت الجلوس إلى مائدة العشاء وحيدًا... والحمد لله، لن يحدث ذلك بعد الآن".

ثم ضغط على يدها طويلًا، وابتسم وهو يعينها على الصعود إلى عربتهما.

الفصل الثاني

-8-

كان أفراد الطبقة الرفيعة المترفة في مجتمع بطرسبرج – جميعهم أو أكثرهم – يعرف بعضهم بعضًا، ويتزاورون كما تتزاور الأسر الحليفة. وكانوا منقسمين إلى جماعات متمايزة، توطدت صلات آنا كارنينا بثلاث منها:

أولاهنّ جماعة زملاء زوجها ومرؤوسيه من رجال الحكومة، وهم لا شاغل لهم إلا الحديث في السياسة وشؤون الرجال، ولم تكن آنا تجد في أحاديثهم ما يثير اهتمامها، فتجنبت مجالسهم في معظم الأحيان.

أما الجماعة الثانية، فهي تلك التي مهدت لزوجها طريق الارتقاء في منصبه، وكانت الكونتة ليديا إيفانوفا تتزعمها، وتضم خليطًا من النساء العجائز المحسنات، ذوات الخلقة الدميمة، والرجال الطموحين اللامعين. وقد استطاعت آنا، بفضل لباقتها ومرونتها، أن تحجز لنفسها بينهم موضعًا مرموقًا، فكان لها فيهم أصدقاء

وصديقات. غير أن رحلتها الأخيرة إلى موسكو غيّرت مشاعرها، فزهدت في هذه الجماعة التي يسودها النفاق، ولم تعد تزور الكونتة ليديا إلا لمامًا.

وأما الجماعة الثالثة، فكانت حلبة المتأنقين والمترفين؛ أولئك الذين لا همّ لهم سوى السهرات الراقصة، والولائم الباذخة، والتفاخر بألوان الزينة والأزياء. وكانت آنا على صلة بهذه الجماعة عن طريق زوجة ابن عمها، الأميرة بتسي تفرسكوي، التي يفوق دخلها السنوي مائة وعشرين ألف روبية! وكانت آنا في بادئ الأمر تجتهد أن تتجنب مجالس الأميرة، اتقاء للوقوع في نفقات لا تطيقها. لكنها، بعد عودتها من موسكو، فعلت نقيض ما كانت تعتزم، فهجرت المجتمعات الجادة، وأكثرت من ارتياد مجالس المترفين وأهل البذخ!

وفي تلك الأوساط، كانت تتلاقى بفرونسكي، ولا سيما في بيت الأميرة بتسي، ابنة عمها. وكان فرونسكي يهرع إلى كل مكان يُحتمل أن يرى فيه آنا، ويغتنم الفرص ليُفضي إليها بحبه كلما واتته السانحة. ورغم أنها لم تشجعه صراحة، فقد كانت في كل مرة تراه فيها، تشعر

بانفعال غامض مبهج، كذاك الذي هزّها حين رأته أول مرة على متن القطار!

ولقد أقنعت نفسها – في البداية – أنها تمقت جرأته في ملاحقتها على هذا النحو الصريح، لكنها حين ذهبت إلى إحدى السهرات التي كانت تظن أنه سيكون من حضورها، ولم تجده، باغتها شعور بالخيبة والأسى، أفصح لها عن الحقيقة التي حاولت أن تخفيها حتى عن نفسها: إن مطاردته لها لم تكن بغيضة إلى قلبها، بل كانت تنتظرها في قرارة نفسها!

وفي إحدى حفلات الأوبرا التي ضمَّت علية القوم، التقى فرونسكي بابنة عمه الأميرة بتسى في مقصورتها، فابتدرته متسائلة " لِمَ لم تحضر مأدبة العشاء هذه الليلة؟". ثم أضافت إلى ذلك قائلة في صوت هامس وهي تبتسم: " إنى لأعجب لبعد نظر العشاق وصدق إحساسهم بالغيب. إنها لم تحضر أيضًا!". فرمقها فرونسكي بنظرة تساؤل، متجاهلًا مغزى عبارتها، بينما استطردت هى: " ها قد وقعت في الفخ يا بطل!". فقال لها: " إن رغبتي الكبرى هي أن أقع فيه! وإذا كان لى ما أشكو منه فهو أني لم أقع فيه كل الوقوع. لقد بدأت أفقد

الأمل!". ثم تناول المنظار المكبِّر فوضعه أمام عينيه وراح يذرع ببصره مقاعد المسرح، كأنما يبحث عن شخص معين، فلما لم يجد هذا الشخص، قال للأميرة: " أخشى أن يكون موقفى مثيرًا للسخرية!".

لكنه كان على يقين من أن مخاوفه لا تستند إلى أساس، وأن المجتمع قد يسخر من العاشق الذي يفشل في حبه لفتاة، أو لامرأة غير متزوجة، لكنه لا يسخر البتة – بل قد يصفق! – للرجل الذي يطارد بحبه، في استهتار، زوجة رجل آخر.. ويجعل هدفه الأول في الحياة أن يغريها بالسقوط!

ولم تنتظر الأميرة بتسى حتى تنتهى الرواية، بل خرجت قبل الفصل الأخير فاستقلَّت عربتها إلى بيتها، كي تكون في استقبال ضيوفها. فلما بلغت البيت، بادرت إلى إبدال ثيابها وإصلاح زينتها. ثم أمرت بإعداد الشاي في حجرة الصالون الكبرى. ولم يمض قليل حتى تقاطرت عربات الضيوف على باب البيت، ثم دخلوا يتبع بعضهم بعضاً إلى حيث تألفت منهم جماعتان: جماعة تتوسّطها ربة الدار، والجماعة الأخرى في أقصى القاعة تتوسطها زوجة أحد السفراء،

وكانت امرأة حسناء ترتدى ثوبًا من القطيفة السوداء. وحاولت الأميرة بتسى أن تجمع شمل الجماعتين، فهتفت بزوجة السفير: " أحقًّا أنتِ زاهدة في تناول الشاي؟ تعالى وانضمى إلينا". فأجابتها هذه وهي تبتسم ثم تواصل ما انقطع من حديث جماعتها: " كلَّا، نحن سعيدات هنا!". وكان حديث الجماعة في الواقع شائقًا مثيرًا، يدور حول آنا كارنينا وزوجها! قالت إحدى صديقات الزوجة: " لقد تغيرت " آنا" تغيّرًا كبيرًا منذ عادت من موسكو. طرأ عليها طابع غريب!".. فعلَّقت زوجة السفير على كلامها قائلة: " في رأيى أن أكبر تغير طرأ عليها أنها أحضرت معها ظلًّا لها: " فرونسكى"! ثم توالت التعليقات من بقية الحاضرات:

- إن المرأة تكره بطبعها ألا يكون لها ظل!

- نعم، لكن العادة جرت بأن النساء ذوات الظلال تكون نهايتهن سيئة..

- إن مدام كارنينا امرأة رائعة. أنا لا يعجبنى زوجها، لكني أحبها هي.

- ولم لا يعجبك زوجها؟ إنه رجل ممتاز، بل إن زوجي يؤكِّد أنه طراز نادر من الساسة، قلّ نظيره في أوربا بأسرها!

- وزوجي أيضًا يقول عنه ذلك، لكني لا أصدق قوله. وفي رأيي أنه غبي كبير، وهذا يوضِّح كل شيء!

- يا للسانك اللاذع! إن " آنا" فاتنة وظريفة، فما ذنبها إذا أحبها الرجال جميعًا، وتبعوها مثل ظلّها؟ إذا لم يتبعنا أحد مثل ظلنا، فليس من حقنا أن نلومها هي!

- أوه، أنا لا ألومها البتة..

وانتهت المناقشة عند هذا الحد، فانضمت الجماعة إلى الحلقة الأخرى التي تتزعمها ربة البيت. ولم تلبث هذه أن هتفت تحيى فرونسكي الذي دخل في تلك اللحظة: " آه، ها أنت قد جئت أخيرًا!". وكان فرونسكي يعرف كل المدعوين والمدعوات، رغم حداثة عهده برؤيتهم جميعًا، ولهذا دخل المكان في هدوء الداخل على قوم كان معهم منذ لحظات. وفيما هو يجيب عن أسئلة بعضهم في شأن الأوبرا التي شهدها، والنظارة الذين لقيهم هناك، وصل إلى أسماع

الحاضرين والحاضرات وقع خطوات على السلم، وكانت الأميرة بتسى تعلم أن القادمة هي آنا كارنينا، فنظرت إلى فرونسكي، وإذا هو يتطلَّع في لهفة إلى الباب.. ثم يحدِّق في الداخلة بنظرة ملؤها الفرح والانتباه، وشيء من الخجل! وأخيرًا نهض واقفًا، بينما دخلت آنا القاعة منتصبة القامة كعادتها، تسير بخطوتها السريعة الحازمة الخفيفة التي ميّزتها عن بقية نساء مجتمعها!.. ولما بلغت آنا مكان مضيفتها صافحتها وابتسمت، ثم دارت ببصرها في القاعة وعلى شفتيها الابتسامة نفسها، فلما التقت نظراتها بعيني فرونسكى انحنى لها إجلالًا، وقدَّم لها مقعدًا تجلس عليه! وقابلت هي صنيعه بإيماءة خفيفة، وقد تورَّد وجهها قليلًا.. ثم لم تلبث أحاديث الجماعة أن عادت سيرتها الأولى. وحدَّثت " آنا" الحاضرين عما سمعته في منزل الكونتة ليديا من تفصيلات شائقة عن الحياة في الهند، رواها أحد المراسلين العائدين من هناك. ثم استدارت " آنا" فجأة نحو فرونسكي، الذي كانت حواسه معلَّقة بفمها، وابتدرته قائلة: " لقد تلقيت خطابًا من موسكو، جاء فيه أن " كيتى شرباتسكي" مريضة، وفي حالة سيئة!".

فغمغم فرونسكي قائلًا وقد عقد حاجبيه: " مريضة؟".. ولم يزد على ذلك شيئًا، فسألته آنا: " ألا يهمك، ذلك؟".. فقال: " بل يهمني جدّاً.. ماذا جاء في الخطاب؟!". لكن " آنا" تجاهلت سؤاله، ثم نهضت ومضت نحو مائدة ربة البيت، حيث طلبت إليها أن تصب لها قدحًا من الشاي، ثم عادت تحمله إلى مائدة منعزلة في أقصى القاعة، فبادر فرونسكي إلى اللحاق بها. وعاد يسألها عما تضمنه الخطاب الذي تلقته، فقالت متجاهلة سؤاله: " كثيراً ما أعتقد أن الرجال لا يفهمون الأمور المنافية للشرف في تصرفاتهم، وإن تشدقوا بالتحدث عنها دائمًا!".. فوجئ قليلًا، ثم قال لها: " لست أفهم ما تعنين تمامًا. ماذا هناك؟" قالت: " لقد أخطأت في تصرفك، غاية الخطأ!".. فقال: " أو تحسبينني لا أعلم أنى أخطأت؟.. ولكن من كان السبب؟"..

ولم تستطع إخفاء اضطرابها، فقالت وعيناها تكذبان قولها:

- هذا يُظهر أنك بلا قلب!

فابتسم هو وقال: " لكن الأمر الذي تحدثينني عنه يتعلَّق بخطأ كما سمعت منكِ الآن، فأي دخل في ذلك للحب؟!".. فقالت له جادة،

وقد ذهب عنها اضطرابها: " تذكّر أني منعتك من أن تنطق بهذه الكلمة الكريهة. لقد طالما أردت أن أصارحك بهذا، وقد جئت الليلة خصيصًا لهذا الغرض".

ونظر فرونسكي إليها وهي تتكلم، فراعه منها جمال روحانى جديد يشع في وجهها. وقال في بساطة وجد: " ماذا تريدينني أن أفعل؟". فقالت: " أريدك أن تسافر إلى موسكو، وتسأل كيتى الصفح!". فقال: " أنت تريدين ذلك؟! كلا! لست أعتقد هذا!". وكان قد لمح في عينيها أنها تقول غير ما تريده، فأجابها بذلك في ثقة، لكنها أردفت قائلة: " إذا كنت تحبنى - كما تقول - فافعل ما أطلبه منك، كي تسكن نفسى وتستريح!" وعندئذ أشرق وجهه وهتف بها جذلًا: " ألا تعلمين أنك في حياتي كل شيء؟ وأننى لست أنعم بسكينة النفس التي تطلبينها، وليس في وسعى أن أعطيك إياها، بل ليس في وسعى أن أفكِّر فيك وفي نفسى باعتبارنا شخصين مختلفين!.. فالواقع الذي لا أشك فيه أننا شخص واحد! ولست أرى أن هناك فرصة لسكينة النفس، سواء لكِ أو لي! نعم، لست أرى أمامنا غير اليأس والتعاسة، اللهم إلا إذا شئت أنتِ أن

تفسحي لنا كلينا مجال الأمل في السلام المنشود! فهل أطمع في أن تتداركي ذلك الأمل، قبل فوات الأوان؟!".

وكان صوته وهو ينطق بالعبارة الأخيرة أشبه بالهمس، لا يكاد يبين، لكن أذنيها المرهفتين لم يفتهما التقاط كل حرف من حروف عبارته. ثم أجهدت كل قوى ذهنها لتقول ما ينبغي أن يقال، لكنها بدلًا من ذلك تركت عينيها تستريحان على محياه، وقد أفعمتا حباً. ولم تجب!.. فحدَّث هو نفسه قائلًا: " لقد لانت، في الوقت الذي كنت فيه قد بدأت أيأس! نعم، لم تلح بعد نهاية الطريق الذي سلكته.. لكنها لانت!".

وانتزعها من شرودها صوتُه، كما يُنتزع الحلمُ من نومه، فقالت، بصوتٍ متهدّج يخفي ما لا يُخفى:

"افعل هذا من أجلي... لا تقل مثل هذه الكلمات لي. دعنا نكون صديقين... وكفى!"

لكنّ عينيها، تلك العيون التي ما كذبت يومًا، قالتا ما لم يتلفّظ به لسانها، فأجابها بنظرة من يعرف أن العاطفة لا تُروّض بالأعذار:

"هذا لن يكون أبدًا... وأنت تعلمين. إمّا أن نكون أسعدَ من مشى على هذه الأرض، أو أشقاه، وأنت وحدك من بيده المصير!"

تردّدت على طرف نيتها كلماتٌ لم تُقل، لكنّه استبقها قائلًا: "لا أرجو منك إلا أمرًا واحدًا: دَعيني أحتفظ بالأمل... والألم، معًا، كما أنا الآن. وإن عزّ ذلك، فمريني أن أختفي من حياتك، وسأختفي. ولن تري لي ظلًّا بعد ذلك، ولا تسمعين لي همسًا!"

سكتت "آنا" برهةً، وفي صمتها انكسرت ألف عبارة، ثم قالت وهي تلوذ بوجعها:

"لا أرغب في أن أنتزِعك من عالَمك..."

فردّ، وصوته كمن يتوسّل ألا تُغيَّر السنن ولا تُبعثَر الأقدار:

"لا تُبدّلي شيئًا، أرجوك... دعي كل شيء على حاله. هذا كل ما أرجوه!"

وكان وجهه مواجِهًا لباب القاعة، فرأى – في تلك اللحظة المشؤومة – أليكسي ألكسندروفيتش، زوج "آنا"، داخلاً بخطاه الرتيبة، الثقيلة كقدرٍ لا يُؤجَّل.

فأشار إليها كي تراه، ووقع بصر أليكسي على زوجته وجليسها، لكنّه، في ما يشبه التواطؤ مع الجمود، واصل طريقه حتى بلغ مجلس المضيفة، فجلس إلى طاولتها، يحتسي الشاي ويتحدث في السياسة كأن شيئًا لم يكن.

وهمست سيدةٌ تجيل بصرها بين "مدام كارينينا" وزوجها و"فرونسكي:"

"يا له من تصرّف مشين!"

فأجابتها صديقة "آنا" بمرارة العالم بما سيأتي:

"ألم أقل لكِ؟"

وتناقل الجمعُ في القاعة نظراتٍ خاطفةً نحو الزاوية التي احتوت ذلك اللقاء المريب... إلا الزوج، وحده بقي كالصخر، لا ينظر، لا يتوقّف عن الحديث، كأنما سَكَنته العزلة حتى صار لا يبالي.

وأخيرًا، وقد نفد صبر المضيفة، جلست مكانها من تستمع إلى الزوج وتلاطفه، ثم مشت إلى "آنا" تقول:

"يُدهشني أسلوب زوجك! كم هو واضحٌ ودقيق في حديثه! إن أكثر النظريات تعقيدًا تصبح في متناول فهمي حين يشرحها!"

فأجابتها "آنا" وهي تبتسم ابتسامة من ضاعت عنه نفسه، دون أن تعي كلمة مما قيل لها:

"حقًّا؟!"

ثم عادت المضيفة إلى مجلسها، لتشارك في ما يدور من أحاديثٍ لا طعم لها.

ومضى الزوج، بعد أن قضى نصف ساعة بين غريبٍ لا يُحسن الغضب، إلى زوجته، يقترح أن يعودا معًا إلى البيت.

لكنها ردّت، دون أن تكلّف نفسها النظر في وجهه:

"سأبقى لتناول العشاء!"

فانحنى أليكسي، بتحيةٍ رسمية باردة، شملت ربة المنزل والضيوف، ثم مضى خارجًا، كما دخل، بخطاه الثقيلة التي لا تُبشّر بشيء.

***

ولمّا أزف موعد انصراف "آنا"، رافقها "فرونسكي" إلى الباب الخارجي، يهمس بكلماتٍ تكاد تُشعل الليل:

"لم تعديني بشيء، ولم أطلب منك وعدًا، ولكنك تعرفين، كما أعرف، أن الصداقة ليست ما أبغيه. إنّ سعادتي الوحيدة، كلّ سعادتي، لا تسكن إلا في تلك الكلمة التي تبغضينها ...*الحب*!"

ردّدت "آنا" الكلمة، همسًا، كأنها تخشى أن يسمعها قلبها، ثم قالت فجأة، بصوتٍ خافت كأنينٍ مكتوم:

"أبغض تلك الكلمة... إنها تحمل من المعاني أكثر مما تظن، أكثر بكثير!"

ثم، وبعد لحظةٍ من الشرود، نظرت إليه نظرةً تختصر كل التردد، وقالت:

"إلى اللقاء!"

ومدّت يدها نحوه، مودِّعة، قبل أن تنسلّ مسرعة من الباب، وتغيب في جوف عربتها، كما تغيب نجمة في غياهب السحاب.

-9-

لم ير " أليكسي" في انزواء زوجته مع فرونسكي وانشغالهما بالحديث شيئاً غير لائق، إلا بعد أن لاحظ أن بقية الحاضرين قد اعتبروه كذلك!.. ومن ثم عقد عزمه على أن يتحدث إلى زوجته في الأمر.. فلما بلغ المنزل مضى إلى غرفة مكتبه كعادته، حيث غاص في مقعده المريح ولبث يقرأ، ويفرك جبهته براحته بين الحين والآخر كأنما يحاول أن يُبعد خاطرًا ملحًا.. ولما مضت ساعة بعد انتصاف الليل، نهض وصعد إلى الطابق العلوي. لكنه لم يأو إلى فراشه كما ألف، بل أخذ يذرع الغرفة ذهاباً وجيئة وقد عقد يديه خلف ظهره!.. وإذ بدأ يدير في رأسه الكلام الذي ينبغي أن يقوله لزوجته، وضحت له صعوبة المهمة التي حسبها سهلة في البداية! إنه لا يحس بالغيرة، فالغيرة في رأيه تنطوى على الإهانة للزوجة، في حين ينبغي أن تكون للزوج ثقة كاملة في زوجته، واقتناع كامل بأنها ستظل تحبه دائماً!.. لكن، لماذا ينبغى هذا للزوج؟.. إنه لم يسأل نفسه يومًا هذا السؤال، لأنه لم يحس يوماً فقدان الثقة في زوجته الشابة هذه!.. ومع أن ثقته هذه لم تتغيّر ومع أن اشمئزازه من الغيرة لم يفارقه، فإنه وجد نفسه

وجهًا لوجه أمام شيء غير منطقى، وغير معقول، فلم يدر ماذا يفعل!.. إنه - لأول مرة - يواجه الحياة. يواجه احتمال أن تحب زوجته شخصًا غيره! وقد بدا له ذلك غير معقول، لأنه طيلة حياته عاش على هامش الحياة، في أجواء عمله الرسمية وحدها. وفي كل المرات التي اصطدم فيها بالحياة اصطداماً خفيفاً كان يتراجع من فوره مجفلًا، قانعًا من الغنيمة بالإياب! أما الآن فهو يشعر بشعور الإنسان الذي يكتشف فجأة، وهو يعبر قنطرة مقامة فوق هوة عميقة، أن القنطرة مكسورة. وأن لا شيء يعصمه من السقوط من حالق!.. تلك الهوة كانت هي الحياة ذاتها، والقنطرة هي هامش الحياة السطحي الذي عاش هو في نطاقه!.. لكنه الآن يجد نفسه يواجه لأوَّل مرة احتمال أن تحب زوجته رجلًا آخر.. وقد أفزعه هذا الاحتمال!

وراح الزوج وهو يسير ذاهبًا آيبًا يُحدث نفسه: " يجب أن أحسم الأمر فورًا، وأن أضع له حدّاً!.. يجب أن أصارحها برأيى في تصرفها وقراري في شأنه.. ولكن، ما هو قراري؟ وما الذي حدث؟.. لا شيء! لقد تحدثت هي إلى الشاب طويلًا، وماذا في ذلك؟.. أليس من حق النساء في المجتمع أن يحدثن من يشأن؟ ثم أن هذه الغيرة تحط من

قدرى وقدرها. ولكن، ما دام الجميع قد استهجنوا مسلكها فلابد أن في الأمر شيئًا. نعم، يجب أن أحسم الأمر وأضع له حداً.. ولكن، ما الذي حدث؟!".

وهكذا أدرك الزوج أن أفكاره تدور في حلقة مفرغة، لا ينتهى منها إلى جديد، ففرك جبهته حائرًا وجلس على حافة فراش زوجته وهناك وقع نظره على منضدة الكتابة الصغيرة وقد انتشرت عليها أدوات الكتابة، فتغيّر اتجاه أفكاره فجأة! بدأ يفكر في " آنا"، وفي حياتها، وأفكارها، ومشاعرها، ورغباتها! وكان هذا التعمق إلى باطن شخص آخر تجربة روحية جديدة عليه، وتمرينًا نفسياً لم يألف القيام به. وأزعجه احتمال أن تكون لزوجته حياة خاصة مستقلة عن حياته!.. وقال محدثاً نفسه: " أسوأ ما في الأمر أن هذا الشاغل المقلق يدهمنى في الوقت الذي أضطلع فيه بمشروع عظيم - في عملى – يتطلب منى كل نشاطي وذخيرتى من سكينة النفس وصفاء الفكر! لكن ماذا أصنع؟ إنى لست من الذين يستسلمون لهمومهم دون أن تكون لهم قوة الخلق التي تمكنهم من مواجهتها! وإذن فينبغي أن أتخذ قراراً في الأمر. لكن مشاعرها الخاصة والأفكار التي تراود خاطرها، ليست من

شأني، وإنما من شأن ضميرها، ووازعها الديني. أما واجبي الذي تلقيه على كاهلي مسئوليتى كرب أسرة، وزوج، وأب، فهو أن أقودها إلى شاطئ الأمان.. أن أنبه " آنا" إلى الخطر الذي ألمحه، وأحذرها منه، بل أستخدم سلطاني عليها إذا اقتصى الأمر ذلك!.. نعم، يجب أن أكلمها بصراحة تامة!".

واتخذ الحديث الذي أراد أن يفضى به إلى زوجته صورة واضحة، دقيقة، محددة في ذهنه - كما لو كان تقريراً وزاريًّا يكتبه بحكم عمله! – واستطرد يحدِّث نفسه: " يجب أن أوضح لها النقط التالية:

أوَّلًا: أهمية المحافظة على سمعتها وسمعة الأسرة من أقاويل الناس!

ثانيًّا: المغزى الديني للزواج!

ثالثًّا: الكارثة التي قد تلحق بابننا من تصدع العائلة!

رابعاً: الشقاء الذي يصيبها من جراء مسلكها المحتمل!"

وإذ وصل أليكسي في تفكيره إلى هذا الحد، سمع صوت عربة تقف أمام الباب الخارجي، ثم وقع خطوات آنا وهي تصعد الدرج. وهنا -

وبرغم رضاه عن خطابه الذي استعد لإلقائه – شعر بشيء من الانفعال إزاء المهمة التي تواجهه!.. ودخلت آنا على عادتها مرفوعة الرأس مشرقة الوجه، فلما رأت زوجها ابتسمت، وقالت وهي تمضى إلى غرفة الزينة الملحقة بالمخدع: " ألم تنم بعد؟ يا للعجب!.. إن الوقت متأخر!".. فقال لها: " آنا!.. يهمنى أن أحدثك في أمر!".

- أي أمر؟ وبم يتعلق يا تُرى؟ حسنًا، فلنتحدث إذا كان ذلك ضروريًّا، لكنى أفضل أن ننام!

وقد نطقت " آنا" بما توارد على لسانها. وعجبت على أثر ذلك من مقدرتها على الكذب! حقًّا ما أبسط عبارتها وأروع مظهرها الطبيعي المجرَّد من التكلُّف وهي تجلس أمام زوجها وكأنما يغلبها النعاس! وأحست نفسها محصنة داخل درع من الزيف لا يمكن اختراقه. بل أحست أن قوة خفية خفت إلى نجدتها وشدَّت من أزرها! وعاد هو يقول لها: " آنا.. يجب أن تحذرى!".. فنظرت إليه في بساطة وإشراق، متسائلة عما يحذرها منه! ولو أن أحدًا - لا يعرفها معرفة زوجها لها – رآها حينذاك، لما ساورته أدنى ريبة في مسلكها، ولا شعر بأي شيء غير طبيعي يشوب صوتها أو عبارتها. أما زوجها الذي ألف أن تحدثه عن

كل صغيرة أو كبيرة في حينها، فإن مسلكها هذا بدا له غريبًا إلى حد غير قليل!.. أحس أليكسي أن خلجات روحها التي كانت دائمًا مثل كتاب مفتوح أمامه قد أغلقت دونه، وستظل مغلقة على الدوام!.. لكنه حدث نفسه قائلًا: " لعلى أستطيع أن أعثر على المفتاح!". ثم قال لها في صوت خفيض: " أريد أن أحذرك من اللغط الذي قد تثيرينه حولك في المجتمع نتيجة لعدم حيطتك.. فإن حديثك الطويل مع الكونت فرونسكي الليلة - على حدة - قد لفت الأنظار!"

وكان وهو يتكلم ينظر في عينيها الضاحكتين، اللتين أفزعتاه بنظراتهما الغامضة. وقبل أن يتم كلامه كان قد أدرك عقم نصائحه وعدم احتفال " آنا" بها. فلما سكت، أجابته: " إنك دائمًا هكذا تنتقد مسلكي. مرة تنتقد جمودى وعدم اختلاطي بالناس، واليوم تنتقد اختلاطى ومرحى، حسبك أني لم أكن جامدة الليلة، فهل يسيئك هذا؟".. فقال لها: " آنا.. أهذه أنتِ؟! لشد ما تغيرتِ!.. إليك ما أردت أن أقوله لك، ورجائي إليك أن تصغى إلى كلامي. أنت تعرفين أنى أمقت الغيرة وأحتقرها، لكن هناك حدودًا ينبغى للزوجة ألا تتجاوزها، إذا أرادت أن تكون محترمة في أعين الناس. وقد لاحظ الحاضرين الليلة أن

مسلكك لم يكن سليمًا من الشوائب!".. فقالت له في هدوء: " الواقع أنى لست أفهمك إنك تبدو على غير طبيعتك يا أليكسي!).. ثم نهضت متجهة إلى الباب، لكنه خطا إلى الأمام – شأن من يعتزم اعتراض طريقها – فتوقَّفت، وقد بدا زوجها في عينيها في تلك اللحظة أقبح وجهًا منه في أي وقت مضى، ثم طوَّحت برأسها إلى الوراء وشرعت تنزع دبابيس شعرها بحركة سريعة، وهي تقول في هدوء وسخرية: " حسنًا، ها أنذا مصغية في شوق إلى ما عندك من مزيد!" فقال لها: " ليس من حقى، وليس مما يجدى أيضًا، أن أدخل في تفصيلات تتصل بشعورك الشخصى. إن النبش و التنقيب في أعماق النفس قد يثير أشياء يمكن أن تظل كامنة، غير ملحوظة.. ومن ثم فمشاعرك أمر لا شأن به لغير ضميرك، لكن واجبي نحوك، ونحو نفسي، ونحو الله، يقتضيني أن أنبهك إلى واجباتك. إن حياتنا لم يربطها البشر بل ربطها الله، وهذا الرباط لا يمكن فصمه إلا بارتكاب جريمة.. وهذه الجريمة تحمل في طياتها عقوبتها!"..

فقالت وهي تواصل نزع دبابيس شعرها، دون أن تنظر إليه: " لست أفهم حرفًا مما تقول، لسوء الحظ، إذ يغلبني النعاس!" فقال: "

كيف؟.. بربك لا تتكلمي بهذه اللهجة!.. قد أكون مخطئًا في ظنونى، ولكن صدقيني أن هذا الذي أقوله من أجلك كما هو من أجلي.. وأنا زوجك، وأحبك!".. وهنا اختفى من عينى آنا بريق التهكم والسخرية، وكأنما أثارت كلمة " الحب" ما كان كامناً في أعماقها، فحدَّثت نفسها: " يحبني؟.. أو يستطيع هو أن يحب؟.. إنه لو لم يسمع أن هناك شيئًا اسمه الحب، يتحدَّث الناس عنه، لما جرت هذه الكلمة على لسانه قط! إنه لا يعرف حتى ما هو الحب!".. ثم التفتت إليه قائلة:

- أليكسي، الحق أنى لست أفهمك الليلة.. أوضح ما تقول!

فقال لها: " عفوًا! دعينى أفرغ كل ما في جعبتي. قلت إنى أحبك، لكني لست أنصح لك بما أنصح من أجل نفسي، وإنما من أجل ابننا، ومن أجلك أنت!".. فقالت من فورها وهي تقمع ابتسامة تغالبها: " ليس عندي ما أفضى به. ثم أن وقت النوم قد حان".. فتنهد أليكسي، ومضى إلى مخدعه دون أن ينطق بكلمة!

.. وحين لحقت به بعد دقائق كان قد لاذ بفراشه وأطبق شفتيه، ووجه نظره بعيدًا عن اتجاهها. وانتظرت هي طويلًا بلا حراك، وقد

شردت بأفكارها إلى الرجل الآخر، مستعيدة صورته لنفسها، ثم أحست مدى ما فاض به قلبها من عاطفة وغبطة آثمة وهي تفكِّر فيه!.. ولم تلبث أن سمعت شخير زوجها ينبعث في لحن منتظم رتيب، فهمست لنفسها وهي تبتسم: " إن الوقت متأخر.. كادت الليلة تنقضي!".

لكنها ظلّت زمنًا راقدة بلا حراك، وعيناها مفتوحتان، يُخيل إليها أنها تكاد ترى بريقهما في الظلام!

-10-

بدأ الزوجان منذ تلك الليلة حياة جديدة لا عهد لهما بها من قبل، فاستمرت " آنا" تغشى المجتمعات، وترى فرونسكي في كل مكان! بينما كان أليكسي يرى ذلك ولا يستطيع أن يفعل شيئًا، فقد حرصت هي على أن تقيم في وجه كل محاولة منه لاستدراجها إلى النقاش في الموضوع حاجزاً من البلبلة المحيرة، عجز عن اختراقه!.. وظلّت صلتهما أمام الناس على حالها، أما علاقاتهما الحقيقية فقد طرأ عليها تبدل كبير!

وكان أليكسي ذا نفوذ عظيم في دنيا السياسة، لكنه أحس نفسه عاجزاً كل العجز عن أن يسوس امرأته كما يشتهى، فانتظر مستسلمًا - كالثور المنكس الرأس - السوط الذي شعر بأنه قد أشهر على ظهره!.. وفي كل مرة حاول فيها أن يفكِّر في أمره، كانت نفسه تحدثه بأن يبذل محاولة أخيرة، لعله يستطيع باللطف واللين والإقناع أن ينقذها، لكنه كان دائمًا يقول لها غير ما اعتزم أن يقول، وما ينبغي أن يقول!

ووقعت الواقعة.. أخيرًا!

تحقَّقت الرغبة التي ظلّ فرونسكى زهاء عام كامل يتخذها هدفه الأوَّل في الحياة، وينسى في سبيلها كل هدف آخر، وكل رغبة أخرى!.. تحقق الأمر الذي كانت " آنا" تعده مستحيلًا رهيبًا، وإن كان هو حلم حياتها الممتع الأخَّاذ!.. ووقف فرونسكي أمامها، شاحب الوجه، وفكه الأسفل يختلج، وراح يناشدها أن تهدأ، وإن لم يدر كيف، أو لماذا! ثم هتف بصوت راعش: " آنا!.. آنا!.. ينبغي أن تهدئى!".. لكنها نكست رأسها، شاعرة بأنها لا تستطيع أن تبقيه كما كان، بعد أن أثقله الخزي والعار!.. ثم هبطت من الكنبة التي كانت عليها إلى الأرض، وركعت عند قدميه، ثم أخذت تشهق بالبكاء وتضغط يديه على صدرها قائلة: " يا إلهى!.. اغفر لي!".

لقد أحست ببشاعة خطيئتها، وبأن لم يبق لها غير أن تذل نفسها وتطلب الصفح. ولما لم يعد لها في دنياها غير عشيقها، فقد توجَّهت إليه بتوسلاتها. نظرت إليه وقد أحسَّت ألمًا من مذلتها.. ثم لم تستطيع أن تنطق بحرف!.. أحست ما يحسه القاتل حين يرى جثة ضحيته التي سلبها الحياة. ولم تكن تلك الضحية التي قتلها هو، سوى حبهما المتبادل.. المرحلة الأولى من ذلك الحب!.. كان رهيبًا أن تفكِّر

في الغاية التي دفعت في سبيلها هذا الثمن الغالي المخيف من الخزي والعار.. ذلك الخزى من عريهما الروحي، الذي سحقها، وامتدت عدواه إليه هو!

ولكن القاتل برغم فزعه أمام جثة ضحيته، كثيراً ما يجد نفسه مدفوعاً إلى أن يجثم على الجثة و يجذبها، ثم ينهال عليها نهشًا وتقطيعاً، وأخيرًا يخفيها.. كي ينتفع بما جناه من قتلها!.. وهكذا اندفع فرونسكى يغطى وجه " آنا" وكتفيها، بقبلاته.. فتناولت هي يده ورفعتها إلى شفتيها، وقبلتها.. أما هو فركع على ركبتيه وحاول أن يرى وجهها. ولكنها أخفته، ولم تنبس بكلمة!.. وأخيرًا تحاملت على نفسها فنهضت، ودفعته عنها بعيدًا، وكان وجهها ما زال كعهده جميلًا، فكان ذلك أدعى إلى الحسرة والرثاء.. وقالت له: " لقد انتهى كل شيء، ولم يعد لي سواك. تذكَّر ذلك!"..

فأجابها: " وكيف أنسى يومًا حياتى بأكملها؟ إن لحظة واحدة من هذه السعادة.."، لكنها قاطعته في رعب واشمئزاز: " السعادة؟ بحق الرحمة كفى. لا تنطق بكلمة أخرى!". لقد أحسَّت في تلك اللحظة أنها

عاجزة عن التعبير بالكلمات عما يخالجها من إحساس بالخجل، والذهول، والذعر، أمام عتبة الحياة الجديدة التي تدخلها.. فلم تشأ أن تتحدَّث في الأمر، حتى لا تشوه شعورها أو تبتذله!

لكنها حتى فيما بعد، في اليوم التالى والثالث، ظلَّت عاجزة عن أن تجد الكلمات التي تعبِّر عن مشاعرها التي باتت معقدة. بل إنها لم تجد الأفكار التي تعبِّر بها عما يصطرع في أعماقها، فحدَّثت نفسها: " كلَّا!.. لست أستطيع التفكير في الأمر الآن، فلأدع ذلك حتى أسترد هدوئي..".

لكن هذا الهدوء المنشود لم يواتها أبدًا!.. وفي كل مرة مثل في خاطرها ما فعلته، وما قد يجره من نتائج، كان الرعب يتملكها، فتطرد هذه الأفكار بعيدًا، معلِّلة نفسها بقولها: " فيما بعد، حين أغدو أهدأ بالًا!".. لكنها في أحلامها، حيث لا سيطرة لها على أفكارها، كان موقفها يمثل أمامها عاريّاً مخيفاً، على حقيقته! وكان أخص ما يطاردها من هذه الأحلام كابوس رهيب طفق يتراءى لها كل ليلة! فكانت ترى نفسها زوجة للرجلين في وقتٍ معاً، وكلاهما يغمر جسدها بالقبلات!

وكان فرونسكي – برغم أن غرامه استغرق كل حياته الخاصة - يتابع سيره في حياته العامة في طريقه المرسوم، سواء في صلاته بالمجتمع أو صلاته بفرقته في سلاح الفرسان. وكان شغوفًا بفرقته هذه، كما كانت فرقته شغوفة به، تحترمه وتفخر به، بسبب ولائه لها وخدماته لأفرادها، برغم ثرائه العريض وثقافته العالية ومؤهلاته العديدة التي كانت جديرة بأن تفتح أمامه السبيل إلى النجاح والشهرة والمجد، ومن ثم إلى الغرور وما يستتبعه من الإهمال لزملائه!.. ولم يكن هو يجهل حب إخوانه له، وكان يعتز بهذا الحب ويحرص على استمراره. لكنه في الوقت ذاته حرص ألا يكاشف أحدًا من أولئك الزملاء بغرامه الجديد. حتى حين كانت الخمر تغريه بأن يصخب معهم في حفلاتهم ويتبسط وإياهم، كان يسارع إلى زجر كل من تحدثه نفسه منهم بأن يشير إلى ذلك الغرام، ولو من طرف خفى، أثناء المزاح!

على أنه برغم تكتمه هذا، ما لبث غرامه بمدام كارنينا أن صار معروفًا في كل أوساط المدينة! وهكذا حسده أكثر الشبان، حتى على العنصر البغيض الوحيد الذي كان يشوب غرامه في الواقع. وهو المركز

الذي يتمتع به زوج عشيقته، مما يهدد العاشقين بفضيحة " ممتازة" أيضًا في المجتمع!.. أما النساء، فأكثرهن كن لا يحسدن " آنا"، بعد أن مللن سماع الناس يلقبونها بالمرأة الفاضلة العفيفة، وفرحن بتحقق نبوءاتهن في صدد تكذيب هذا الصيت.. وإن بقى هناك نفر من ذوى الشخصيات البارزة ساءهم ما لاح في الأفق من نُذر الفضيحة المدوية!

وعندما سمعت والدة فرونسكي بصلة ابنها بمدام كارنينا، سرت بالنبأ وطربت له في البداية، فقد كانت ترى ألا شيء يوطد مستقبل الشاب الذكي مثل صلة وثقى تربطه بإحدى نساء المجتمع الرفيع.. كما سر الكونتة فرونسكي ألَّا تكون آنا - التي أعجبت بها وسمعتها تبدى تعلقها الشديد بطفلها – أفضل أو أعف من مثيلاتها من سيدات المجتمع ذوات الجمال البارع والأصل العريق!.. لكن الأم عادت فغيَّرت نظرتها إلى غرام ابنها حين وصل إلى سمعها أنه رفض منصبًا كبيراً عُرض عليه، كى يبقى قريبًا من عشيقته، مما أحنق عليه بعض ذوى النفوذ من الشخصيات الكبيرة!.. وعند هذا أرسلت الأم ابنها الأكبر إلى (بطرسبرج) ليبلغ أخاه رغبة أمهما في أن تراه وتتحدث إليه.

وكان هذا الأخ الأكبر غير راض عن مسلك فرونسكي – لا غيرة منه على مبادىء الأخلاق، فقد كانت له هو الآخر عشيقته، برغم كونه زوجاً ورب أسرة! - وإنما خوفًا على مستقبل أخيه من أن يعوقه ذلك الغرام الطائش!

وكانت لفرونسكي – إلى جانب عشيقته، والمجتمع، وفرقته بالجيش – هواية أخرى تستحوذ على اهتمامه، هي جياد السباق! وكان قد استعد للاشتراك في موسم السباق لذلك العام بشراء جواد إنجليزي أصيل، والإشراف على تدريبه وإعداده. وفي اليوم المحدَّد للسباق، جلس فرونسكي في مطعم نادي الضباط يفكِّر في وعد " آنا" له بأن تلقاه في هذا اليوم بعد انتهاء السباق. وتذكَّر أنها قطعت له هذا الوعد منذ ثلاثة أيام، قبل أن يعود زوجها فجأة من رحلته في الخارج، الأمر الذي يحتمل معه أن تعجز عن الوفاء بوعدها! ومن ثم قرر فرونسكي أن يذهب إلى عشيقته في منزلها الصيفي ليطمئن على مصير لقائهما الموعود، متعلِّلا بأن ابنة عمه الأميرة بتسى قد أرسلته ليسألها: هل تعتزم حضور السباق أم لا؟!

وأرسل من فوره يوصى بإعداد عربة وثلاثة جياد كى تقله إلى حيث يريد في الوقت المناسب، قبل موعد وصول الزوج من مقر عمله في بطرسبرج. وإذ دنا من الدار، ترجَّل من العربة ليقطع المسافة الباقية سيرًا على قدميه، تجنباً للفت الأنظار.. وبدلًا من أن يتجه إلى الباب الرئيسي دخل من باب الحديقة، وسأل البستاني " هل وصل سيدك؟"، فلما أجابه بأنه لم يصل بعد، وبأن سيدته موجودة وحدها في البيت، واصل سيره في حذر نحو المدخل الخلفي للدار.. وفيما هو يضع قدمه على السلم الخشبى للشرفة، متجنبًا أن يُحدث أدنى صوت، فوجىء بتذكّر العامل الذي طالما نسيه من العوامل التي تكتنف صلته بآنا – مع أنه أكثرها مضايقة له وتعذيباً – وهو: " سريوشا" ابن مدام كارنينا، ذو العينين المتسائلتين، العدائيتين له فيما يُخيل إليه!

كان الصبى في كثير من الأحيان عائقًا يحد من حرية العاشقين، فكانا يتجنبان - في وجوده - أن يتبادلا أية عبارة لا يجرؤان أن يتبادلاها أمام الملأ.. ويحرصان على تجنب أية إشارة غامضة لا يستطيع الغلام أن يفهمها!.. ولكن فرونسكي برغم هذا الاحتياط لاحظ، أكثر من مرة،

أن نظرات سريوشا اليقظة الحائرة تستقر عليه.. كما لاحظ في مسلك الصبى نحوه حياءً غريبًا وخليطًا من الشك، والفتور والتحفظ!.. والواقع أن سريوشا عجز عن أن يحدِّد الشعور الذي ينبغي له أن يشعر به نحو فرونسكى، سيما وقد تناقض شعور أهله نحوه: فبينما كان أبوه ومربيته وخادمته يظهرون نفورهم منه بل وكراهيتهم له، وإن لم يفصحوا عن ذلك كله بكلمة، كانت أمه تعتبره صديقها الأوَّل!.. ومن ثم لبث الصبى يسائل نفسه في حيرة: " ما معنى ذلك؟ ومن هو في حقيقته؟ هل ينبغى لى أن أحبه؟ لئن كنت لا أعرف الجواب فلا شك أنها غلطتى!".. وفي الوقت نفسه كان وجود الصبى يثير في نفس أمه ونفس فرونسكى مثل شعور البحَّار الذي يرى في البوصلة أن الاتجاه الذي يسير فيه أبعد ما يكون عن الاتجاه الصائب، لكنه يشعر بعجزه عن تغيير ذلك الاتجاه، فيأبى أن يعترف لنفسه بالخطر الداهم الذي يترصده!

لكن الصبى لم يكن في البيت هذه المرة، وكانت " آنا" وحدها، جالسة في الشرفة تنتظر أوبة ولدها من نزهته، وقد أزعجها أن المطر انهمر على أثر خروجه، فاتكأت برأسها على آنية كبيرة من أوانى

الأزهار، وشردت مع أفكارها.. حتى سمعت وقع خطوات فرونسكي تدنو منها، فرفعت رأسها.. وهنا ابتدرها هو قلقًا: " ماذا؟ هل أنت مريضة؟".. فأجابته وهي تنهض وتضغط يده الممتدة نحوها: " كلَّا، إنى بخير.. لكنى لم أكن أنتظر حضورك".

- اغفري لي حضوري، فإنى لم أستطع أن أقضى اليوم بغير أن أراك!

- أغفر لك؟ بل إنى على العكس سعيدة!

وبينما اندفع فرونسكى يروى لها متحمسًا أنباء السباق المزمع إقامته، طفقت هي تسائل نفسها: " هل أخبره، أو أكتم الأمر عنه؟.. أنه يبدو جد سعيد، بحيث يغلب على الظن أنه يقدر جسامة الأمر بالنسبة لنا.. ولو لم يفعل لما غفرت له ذلك، فلِمَ أضعه موضع الامتحان والتجربة؟".. ولاحظ هو شرودها، فقطع قصته ليسألها: " لكنك لم تذكرى لى فيم كنت تفكرين وقت مجيئى، يُخيل إلىَّ أن شيئًا قد حدث، فهل يدور بخلدك أننى أجد راحة أو سكينة وأنا أعلم أن عندك همًّا لا أشاركك إياه؟".

ولم تجب هي في البداية، وإنما أطرقت قليلًا، ثم نظرت إليه من تحت حاجبيها وقد أشرقت عيناها من خلال أهدابهما الطويلة، وارتجفت يدها وهي تعبث بورقة انتزعتها من آنية الزهر.. فارتسم على محياها ذلك الشغف الحنون الذي كان له نصيب كبير في استمالتها إليه.. وتناول يدها المرتجفة، وعاد يقول لها:

- بربك أفصحى؟!

- هل أفعل؟

- نعم، نعم..

- إن في أحشائي جنينًا!

واشتد اهتزاز ورقة الشجر التي في يدها، لكنها لم تخفض عينيها عن وجهه، كى ترقب وقع النبأ عليه.. فرأته قد شحب وجهه، وتهيأ لأن يقول شيئًا، ثم عدل.. وترك يدها من يده، وسقط رأسه على صدره! فحدثت نفسها: " نعم، لقد أدرك جسامة الأمر". وضغطت يده شاكرة، فقبل يدها ونهض، صامتًا، ثم جعل يذرع الشرفة ذهابًا وجيئة، وأخيراً اتجه نحوها قائلًا في لهجة حازمة: " إن أحدًا منا لم

ينظر إلى علاقتنا هذه كمتعة عابرة، والآن هذا هو مصيرنا قد تحدَّد، وبات من المحتم أن نضع حداً للخداع الذي نعيش فيه!"

فسألته في لطف وقد أشرقت على وجهها ابتسامة لطيفة:

- كيف نضع له حداً يا فرونسكى؟

- بأن تتركي زوجك ونجعل حياتنا " واحدة"!

- إنها لكذلك الآن!

- أعنى، تمامًا.. بكل معنى الكلمة!

- ولكن كيف؟ قل لى كيف؟ هل هناك أي مخرج من مثل هذا الموقف؟ ألست زوجة زوجي؟

- هناك مخرج من كل موقف. وأي حل خير من الموقف الذي نحن فيه. لكني أرى كيف تعذبين نفسك بالتفكير في آراء الناس، ومصير ابنك وزوجك!

- كلا! فلست أفكر في زوجي البتة، إنى لا أعرفه.. إنه غير موجود!

- إنك لست مخلصة في كلامك. أنا أعرفك.. أنت تقلقين عليه!

- أوه، إنه لا يعرف شيئاً محدداً عن علاقتنا!

وفجأة تورد وجهها واندفع الدم حارّاً إلى خديها وعنقها، ولمعت عيناها.. ثم أردفت قائلة: " دعنا من الكلام عنه!".

وكان فرونسكي قد حاول مراراً من قبل أن يحملها على أن تتدبر موقفهما الراهن، لكنه كان يصطدم في كل مرة بمثل ما قابلت به محاولته هذه المرة. وكان يُخيل إليه أن " آنا" التي يعرفها تختفى حينذاك لتبرز مكانها امرأة أخرى لا يحبها بل يخافها، امرأة تعارض رغبته و تتصدّى له. لكنه اعتزم أن يجبرها على مواجهة الموقف، فقال معلقًا على عبارتها الأخيرة: " سواء أكان زوجك يعلم بعلاقتنا أم لا يعلم بها فليس هذا ما يعنينا، وإنما أريد القول إننا لا نستطيع البقاء في هذا الوضع، ولاسيما بعد الآن!".

- وماذا في وسعنا أن نفعل؟

- صارحيه بكل شيء، واتركيه!

- حسناً، لنفترض أني فعلت.. أتعرف ماذا تكون النتيجة؟ دعنى أصورها لك: إنه سيقول لى، بلهجته الصارمة: " إذن أنت تحبين رجلًا

آخر، ولكِ به علاقة إجرامية؟ لقد حذرتك من النتائج من وجهة النظر الدينية والمدنية والعائلية، لكنك لم تصغى إلى. والآن لا أستطيع أن أدعك تلوثين اسمى و.."."

ولم تقو على أن تضيف كلمة " وابنى" فعدلت عنها وواصلت حديثها قائلة: " وبالاختصار، سوف يؤكِّد لى أنه لا يستطيع أن يدعني أذهب، وأنه سوف يتخذ كل الإجراءات التي يسعه اتخاذها كي يمنع الفضيحة.. ثم ينفذ كلامه حرفياً بكل هدوء وصرامة.. هذا ما سوف يحدث. إنه ليس إنسانًا، بل آلة صماء، وآلة حقود في حالة الغضب!".

- ولكن يا آنا، لا مفر لنا من أن نصارحه بالأمر، ثم نتصرف وفقًا للطريق الذي يسلكه!

- أتعنى أن نفر معاً؟

- ولم لا؟!.. لست أرى كيف يمكن أن نستمر على هذا المنوال، لا أقول هذا من أجلي أنا، بل من أجلك أنت.. فلست بغافل عن أنك تتألمين!

- نعم، نفر معاً وأصبح خليلتك، أليس هذا ما تبغى؟

- " آنا "!

- نعم، أصبح خليلتك، وأدمر مستقبل..

ومرة أخرى عجزت عن أن تنطق بلفظ " ابنى"، فلم تكمل عبارتها!.. أما فرونسكي فقد عجز عن أن يفهم كيف تحتمل - وهي على ما هي عليه من طبيعة قوية تمقت الكذب - أن تمضى في حياة الخداع والتدليس على هذا النحو، وكيف لا تتوق إلى الخلاص منها؟ لكنه رجَّح أخيرًا أن العامل الرئيسي الذي يُملى عليها تصرفها هو.. ابنها.. الذي لم تستطع الإشارة إليه! فهي إذن حين تفكِّر في هذا الابن وفى مسلكه في المستقبل نحو أمه التي " هجرت أباه"، ينتابها الرعب والفزع مما فعلت، بحيث تعجز عن مواجهته، فتعمد - كامرأة – إلى محاولة التخفيف مما بها زاعمة لنفسها أن كل شيء سوف يظل على حاله، وإن في الإمكان نسيان السؤال المخيف بشأن علاقتها المقبلة بابنها!

وفجأة استطردت قائلة، وهي تتناول يده وتتكلَّم في لهجة مغايرة، مخلصة ورقيقة: " أرجو منك وأتوسل إليك، ألا تحدثنى في هذا الأمر مرة أخرى؟!"

- ولكن يا آنا..

- دع الأمر لى. إنى أدرك فظاعة موقفى وما ينطوى عليه من ضعة. لكن المسألة ليست بالتي يسهل تدبيرها كما تحسب، فاتركها لى وافعل ما أقوله لك: إياك أن تحدثني عن هذه الفكرة مرة أخرى. هل تعدني؟

- أعدك بكل ما تطلبين، لكني لن أستريح أو أحس بالسكينة، ولا سيما بعد ما ذكرته لى الآن. لن أستريح ما دمت أنت غير مستريحة!

- أنا؟ إنى أكون مهمومة أحيانًا، لكن هذا كله سوف ينقضى إذا كففت أنت عن أن تحدثني في هذا الأمر!

- لست أفهم..

- أنا أعلم كم يصعب على طبيعتك المخلصة الصريحة أن تضطر إلى الكذب، بل أنا أرثى لك.. وكثيرًا ما أفكِّر في أنك قد دمرت حياتك كلها من أجلي!

- وأنا كنت أسائل نفسي السؤال بعينه: كيف استطعت أن تضحي بكل شيء من أجلى؟ لست أغفر لنفسى أنك شقية!

- أنا شقية؟

واقتربت منه، ونظرت إليه وهي تبتسم ابتسامة العاشقة النشوانة، ثم قالت: " إنى مثل رجل جائع أُعطى طعاماً ليأكل. إنه قد يكون معذباً من البرد، يرتدى الأسمال البالية ويجلّل حياته بالعار، لكنه ليس بشقى. كلَّا! لست شقية. هذا هو شقائى!).. وبلغ سمعها صوت ابنها يقترب منهما، فاختلست نظرة سريعة إلى ما حول الشرفة ثم نهضت على عجل وقد التمعت عيناها بالنار التي عرفها فرونسكي وخبرها جيداً، وبحركة سريعة رفعت يديها الجميلتين المثقلتين بالخواتم، وأخذت رأس معشوقها بينهما ثم نظرت إلى وجهه نظرة طويلة وابتسمت. وبعد أن غمرت فمه وعينيه بالقبلات، دفعته عنها

بعيداً!.. وإذ تهيأت لتنطلق، عاقها عن الذهاب، هامساً في لهفة محمومة: " متى؟"، فقالت: " اليوم الساعة الواحدة!". ثم تنهَّدت وسارت بخطوتها الخفيفة السريعة لتلقى ابنها، متعمّدة أن تخاطب فرونسكي بصوت مسموع: " حسنًا، إلى اللقاء، إذ يجب أن أستعد لحضور السباق، فقد وعدتني " بتسى" بأن تمر لتأخذني معها!"

وإذ ذاك نظر فرونسكي إلى ساعته وانصرف على عجل!

-11-

وصل فرونسكي إلى حلبة السباق وقد بدأ الشوط الثاني، فمضى إلى " المظلة" التي احتشدت تحتها الجماهير، تتابع السباق بأعين ملهوفة! ثم عرج على حظائر الخيل حيث كانت فرسه " فروفرو" تعد للاشتراك في السباق، فقفز فوقها ووضع قدمه اليمني في المهماز، وأحكم وضع العنان بين أصابعه، في انتظار إشارة بدء الشوط. كان طول حلبة السباق ثلاثة أميال، بثت خلالها تسعة عوائق متنوعة، منها حاجز ارتفاعه خمسة أقدام، وفجوة جافة، ثم أخرى مغمورة بالماء، ومنحدر سريع الانحدار وأكمة عالية تتلوها مباشرة هوة لا تبدو لعين الجواد إلا وهو يعبرها - و هذا العائق " الأيرلندي" أخطر العوائق على حياة الجياد - ثم حفرتان مملوءتان بالماء، وأخرى جافة. وكانت نهاية الحلبة تواجه أماكن النظارة المحتشدين..

وانطلقت الجياد، فتبعتها الأعين والمناظير المكبرة، وتأخّرت فرس فرونسكي في البداية، لكنها لم تلبث أن تخطت ثلاثة من الجياد التي سبقتها، ولم يبق أمامها غير الفرس " ديانا" في المقدمة، وخلفها

الجواد " جلادييتور". وبعد العائق الثالث جاوزت فروفرو " جلادييتور"، ثم طرحت ديانا راكبها عن ظهرها وهو يعبر بها عائقاً عاليًّا، وهكذا أمسى فرونسكي في المقدمة، وقوى أمله في الفوز! وزادت من غبطته وحماسته هتافات التشجيع من أصدقائه بين المتفرجين.. وبدأ العرق يتصبَّب من رأس " فروفرو"، وأذنيها، وناصيتها، وتتابعت أنفاسها لاهثة، لكنه أيقن أن ما بقى من قواها يكفى لتخطى العائق الأخير وقطع الخمسمائة باردة التي تليه. وسرّه أن اجتازت الفرس ذلك العائق في خفة الطائر المنطلق في الفضاء.. على أنه في اللحظة نفسها أحس أنه ارتكب خطأ كبيرًا وهو يسترد مكانه فوق صهوة الفرس، بعد أن ارتفع جسمه عنها قليلًا أثناء القفزة العالية. وفى ثوان كان قد هوى من فوقها إلى الأرض على إحدى قدميه، بينما سقطت الفرس على جنبها، تئن وتتلوى، وقد كسر ظهرها، نتيجة لذلك الخطأ!

وغمغم فرونسكي في غيظ محتدم: " ضاع السباق! يا لها من غلطة مخجلة لا تغتفر.. والفرس العزيزة المحطمة!.. آه، ماذا فعلت؟!".. وسرعان ما التأم جمع غفير، بينه الطبيب ومساعده. وتبين فرونسكي أنه لم يصب بأى سوء، أما الفرس المكسورة فقد تقرَّر رميها

بالرصاص! واستدار الفارس المنكود مشيحًا بوجهه عن أسئلة الفضوليين، تاركًا قبعته حيث سقطت بجانب فرسه، ثم مضى لا يلوى على شيء، ولا يدرى إلى أين يتجه، بل لم يكن يرى ما حوله!.. لقد أحس بتعاسة لا مثيل لها، وشعر - لأول مرة في حياته - بأنه أصيب بنكبة لا طاقة له بتحملها!

ورافقه زميل له إلى بيته. وبعد نصف ساعة كان قد تمالك نفسه..

كان يوم السباق من أحفل أيام " أليكسي كارينين" بالعمل، لكنه مع هذا حرص على أن يذهب بعد الغداء مباشرة إلى بيته الريفي ليلقى زوجته، كعادته كل أسبوع، محافظة على المظاهر، وليعطيها بعض المال لنفقاتها.. ثم يتوجه بعد ذلك إلى حلبة السباق، حيث يقتضيه مركزه أن يكون بجانب علية القوم..

وحين وصل الحلبة كانت " آنا" جالسة في المدرج بجانب الأميرة بتسى، ورأته وهو قادم يشق طريقه وسط الزحام، وينحنى لهذا ويرد على تحية ذاك، فحدَّثت نفسها في مقت مكبوت: " إنه لا يعرف غير الطموح، وليس في دنياه غير الترقى والوصول إلى قمة المجد. وما آراؤه

السامية المترفعة، وولعه بالثقافة وتعلقه بالدين، غير بعض الوسائل إلى مطامعه!".

وأدركت آنا من نظراته نحو الجناح المخصص للنساء أنه يبحث عنها، وأن عينيه قد ضلتا هدفهما وسط البحر الذي يموج بأثواب الموسلين الزاهية، والشرائط الملونة، وريش القبعات، والمظلات والأزهار.. لكنها تعمَّدت ألا تلفته إليها! وبعد لحظات صاحت به بتسى: " أليكسى، أعتقد أنك تبحث عن زوجتك، هذه، هي"، فاتجه نحوهما، وابتسم لزوجته ابتسامة الزوج الذي فارقها منذ برهة قصيرة، ثم حيا الأميرة ومن حولها ممن يعرف.. ولم يلبث أن انهمك في الحديث مع أحد ذوى المناصب العالية!

وحين بدأ السباق، انحنت آنا إلى الأمام وهي تتابع عشيقها فرونسكي بعينين ملهوفتين، وصوت زوجها في حديثه الطويل الممل يطرق سمعها، بنبراته الهادئة البغيضة.. فلم تملك أن حدثت نفسها: " إنى امرأة آثمة، امرأة ضائعة، لكنى أمقت الكذب ولا أطيق الزيف. أما هو، فالزيف عصب حياته وقوامها! ماذا يهمه من أمرنا ما دام يستطيع أن يتكلم بهذا الهدوء؟".

وفي تلك اللحظة بدأ السباق، وصمت النظارة وتطلَّعوا إلى الجياد المنطلقة يتابعون عدوها. ولما لم يكن أليكسي شغوفاً بالسباق فقد راح يجيل بصره فيما حوله في إعياء وكلال، حتى استقرَّت عيناه على زوجته! كان وجهها شاحبًا جامداً، يوحى بأنها لا ترى غير شيء أو شخص واحد، وكانت يداها متقلصتين تضغطان مروحتها في عصبية، وقد أمسكت أنفاسها!.. وحاول أليكسي أن يقنع نفسه بأن النظارة جميعًا في مثل انفعالها، وأن يحوّل بصره عنها، كي لا يقرأ ما كُتب على وجهها بوضوح تام! لكن بصره أبى أن يتحوّل، وطفق يرتد إليها في إصرار!.. وهكذا قرأ على محياها - وهو مرتاع - الشيء الذي أراد أن يجهله!.. فعندما سقط أحد المتسابقين عن جواده، ذُعر النظارة جميعًا، لكن أليكسي قرأ على وجه " آنا" أن الرجل الذي تتابعه ببصرها لم يسقط!.. وحين سقط متسابق آخر عند اجتيازه أحد العوائق العالية، وأصيب إصابة بالغة قفز المتفرجون جميعاً من مقاعدهم، ما عدا " آنا". وأخيراً أحست آنا بنظرة زوجها الباردة الملحة مثبتة عليها، فاختلست إليه نظرة خاطفة، أيدت ظنونها، ثم

أغضت عنه، قائلة لنفسها: " لست أعبأ بالأمر". ولم تنظر إليه مرة أخرى!

وكان السباق مشئوماً، فحين اقترب من نهايته كان نصف المتسابقين تقريباً قد سقطوا وأصيبوا، فاشتد انفعال النظارة، وراحوا يتبادلون التعليقات في عصبية واهتمام. فلما سقط فرونسكى أخيرًا، وشهقت آنا بصوت مسموع من فرط انزعاجها، لم يكن في شهقتها ما يلفت الأنظار أو يثير الانتباه. لكنها لم تلبث أن فقدت اتزانها تمامًا، فبدأت تتململ كطائر حبيس، ثم التفتت هامسة إلى صديقتها بتسى: " هيا بنا نذهب.. هيا نذهب!".. لكن بتسى لم تسمعها، فقد كانت تصغي إلى حديث جار لها..

وفي اللحظة التالية كان أليكسى قد اتجه إلى حيث جلست زوجته، فانحنى لها، وقدَّم لها ذراعه قائلًا: " فلنذهب إذا أردت". لكن هذه كانت ذاهلة عنه، تصغى إلى جار صديقتها يقول " يبدو أن ساقه قد كسرت. إن هذا كثير!". ودون أن ترد آنا على عبارة زوجها رفعت المنظار المكبر إلى عينيها وسلطته على المكان الذي سقط فيه عشيقها، لكنها لم تستطيع أن تتبيّن شيئاً.. فعاد زوجها يقول وهو

يتلمس يدها: " مرة أخرى أقدم لك ذراعي إذا أردت الانصراف!".. لكنها تراجعت في إجفال، وأجابت بغير أن تنظر إليه: " كلا، دعنى. إنى باقية". وعلى أثر ذلك أقبل ضابط يحمل الخبر اليقين قائلًا: " إن فرونسكي لم يقتل، لكن فرسه أصيبت".

وهنا أخفت " آنا" وجهها في مروحتها، ورأى زوجها بوضوح أنها تبكى، فوقف بإزائها جامدًا، تاركاً لها الفرصة حتى تتمالك نفسها. ثم عاد بعد حين يقول لها: " للمرة الثالثة أقدم لك ذراعي!". وفي هذه المرة حدَّقت آنا فيه ولم تدر بماذا تجيب؟.. فخفت بتسى إلى نجدتها قائلة له: " لا يا أليكسي. لقد حضرت " آنا" معى وستعود معى". فأجابها بابتسامة مؤدبة ونظرة حازمة: " أرجو المعذرة يا صاحبة السمو، لكني أرى أن " آنا" ليست بخير، وأرغب في أن تعود معى إلى البيت!".. وعند هذا نهضت آنا مستسلمة، ووضعت يدها في ذراع زوجها، بينما همست لها بتسى: " سوف أستفسر عن أنبائه ثم أخطرك!".

وأخذت " آنا" مكانها في العربة إلى جوار زوجها وهى صامتة. وكان أليكسي – برغم كل ما رآه - ما يزال ينكر على - نفسه حقيقة حال زوجته. إنه لم ير غير الأعراض الخارجية. رأى أنها تتصرف تصرفاً غير لائق، وأن واجبه يقتضيه مصارحتها بذلك، ولكن كان من العسير أن يضيف مزيداً. وأخيراً فتح فمه وقال لها: " أراني مضطراً إلى القول بأن تصرفك اليوم لم يكن لائقاً!".. فالتفتت إليه وقالت وهي ترمقه بنظرة حازمة، أخفت وراءها بكل صعوبة شعورها بالضيق والاضطراب: " أي شيء في تصرفى لم يكن لائقاً؟"، وكان صوتها عاليّاً، فأشار إلى النافذة المفتوحة التي تفصلهما عن الحوذي وهمس قائلًا: " صه!"، ثم مدَّ يده فأحكم إغلاق النافذة، وقال لها: " لم يكن لائقاً ذلك اليأس الذي عجزت عن إخفائه حين أصيب أحد المتبارين!".

وانتظر أن تجيب، لكنها لاذت بالصمت، وهي تنظر إلى ما أمامها!.. فاستطرد: " لقد رجوتك من قبل أن تحرصى على مسلكك في المجتمع بحيث لا تدعى مجالًا حتى لأخبث الألسنة أن تخوض في سيرتك. وكنت وقتئذ أعنى مسلكك الباطني، لكنى اليوم أقصر كلامي على مسلكك الخارجي، الذي أرجو ألَّا يتكرَّر بعد اليوم!".

ولم تسمع هي نصف ما قال، إذ كانت شاردة تفكر فيما عساه يكون قد حدث لفرونسكي، فاكتفت بأن ابتسمت في سخرية متكلّفة حين فرغ من كلامه! وأراد هو أن يتعلَّق بخيط من الأمل الكاذب، لعله يبدد شكوكه، فقال لها: " لعلنى أكون مخطئاً فإذا صح ذلك فإنى أرجو معذرتك!".. لكنها أجابته قائلة وهي تحدِّق بائسة في وجهه البارد: " كلَّا، إنك لم تكن مخطئاً. فالواقع أنى انزعجت فعلًا، ولم أستطع أن أكتم انزعاجي! إنى أسمعك، ولكنى أفكِّر فيه!.. إنى أحبه.. إنى خليلته!.. ولست أستطيع احتمالك. إنى أخافك، أكرهك!".

.. ثم غاصت إلى الوراء في ركن العربة وانخرطت في البكاء بحرقة، وهي تخفى وجهها بين يديها. أما أليكسي فبقى صامتاً ينظر أمامه كالتمثال! – حتى وصلا إلى بيتهما، وعندئذ التفت إليها قائلًا، وعلى وجهه ذلك التعبير الصارم نفسه، وإن اختلج صوته قليلًا: " حسنًا. لكنى أطالبك بأن تراعى مقتضيات المظاهر الخارجية على الأقل، حتى أتخذ الإجراءات الكفيلة بصيانة شرفى!".

ثم هبط من العربة وأعانها على الهبوط، وأمام الخدم ضغط يدها مودعاً، ثم ركب العربة من جديد وانطلق إلى بيته في بطرسبرج!.. وعلى أثر ذهابه وصل رسول من خدم الأميرة بتسى يحمل إلى " آنا" رسالة جاء فيها: " لقد أرسلت إلى فرونسكي أسأله عما أصابه فأجابني بأنه بخير، لم يصب بسوء، سوى اليأس الذي استولى عليه بسبب فشله".. فحدثت آنا نفسها فرحة: " إذن فسوف يأتى. حسناً فعلت إذ صارحت أليكسي بكل شيء!".

الفصل الثالث

-12-

لم يكن يدرك مَن حول "أليكسي" – إلا نفرٌ قليل من خاصته – ما يضطرم خلف واجهته الوقورة من خللٍ دفين، وكمين ضعفٍ مستترٍ لا يكاد يبين. كان ذلك القلب، الذي لا يضطرب لصرير الحروب، يرتجف أمام دمعةٍ تنحدر من عين طفلٍ بريء، أو تنهيدةٍ مخنوقة في صدر امرأة جريحة.

دموع النساء، في عرفه، كالسحر الملعون، لا تقاوم، تهزّ ثباته، وتبعثر حساباته، وتُدخله في دوامة عاطفية تُخرِسه عن الكلام، وتُعجزه عن اتخاذ الرأي أو الحُكم.

لهذا حين أفرغت زوجته كأس خيانتها بين يديه، ثم غشيتها نوبة بكاء موجعة، لم يجد سلاحًا يحتمي به إلا صمتًا ثقيلًا، وصخرة من جمود، يخفي بها ارتجاف روحه. فقد علم أن أقلّ انفعال، وأيسر ردّ،

سيخذله أمام دموعها، ويفسد عليه صرامة الموقف، فآثر السكون... السكون الذي تتكسّر عنده رياح العاطفة وتنهار.

وحين انفرد بنفسه في العربة، بعد أن ودّعها، أحس بشيء غريب يُزيح أثقاله، كأن كابوسًا اختنق به ليلًا قد تنفّس وتلاشى. لم تعد تلك الغيرة المحمومة تعتصر قلبه، ولا تلك الريبة العاصفة تعمي بصيرته. كان أشبه برجلٍ انتُزع من فمه ضرس مسموم ظل يؤلمه سنين، وحين زال، خفّ الرأس، وهدأ الفك، واستردّ الحواس صفاءها بعد أن كانت مشغولةً بذلك الألم الغائر.

الآن فقط شعر أنه يعود إلى الحياة، لا لأنه نجا منها، بل لأنه طهّر قلبه من علّة كانت تنخره! قال يخاطب نفسه، والعربة تهوي به في ظلام الطريق كأنها تهرع لتترك خلفها ماضيًا ملوثًا:

"يا لها من امرأة ساقطة! لا شرف، لا قلب، لا وازع من ضمير! كنتُ أُبصر عِللها منذ زمن، لكنني خدعت نفسي، وسوّلت لها سُترة كانت لا تستحقّها..."

وطفِقت شواهد ماضيها تتوالى على خاطره، كأنها تشهد ضدّها في محكمة ضميره، فاسترسل يحدث نفسه بنبرة الحاسم:

"لقد أخطأت حين ربطت مصيري بها، لكن الذنب ليس ذنبي، بل ذنبها هي! ولن أسمح لها أن تظل تحتلّ فكري... فهي، في نظري الآن، عدمٌ مطلق، كأنها ما كانت!"

هكذا انسحب طيفها من وجدانه، وبدأ عقله يتجه صوب الغد، باحثًا عن مخرج نبيل من هذا المستنقع الذي لوّث به نقاء حياته. قال في نفسه بثبات:

"لن أسمح لتلك الخطيئة أن تسرق مني عمري، فكل ما عليّ الآن أن أجد مخرجًا عادلًا، مشرفًا، يُعيدني إلى طهارتي الأولى، ويجعلني أواصل طريقي منتصب الجبين... وما أنا بأول رجل خُدع في زوجته، ولا سأكون الأخير!"

وهكذا مضى في ليله الطويل، لا تحمله العربة وحدها، بل يحمل قلبه عبء القرار، وعيناه تطاردان خيط النور في آخر هذا النفق المظلم.

.. ثم راح يستعرض قائمة أمثاله من الأزواج الذين خانتهم زوجاتهم، سواء أكان ذلك في عصور التاريخ المنصرمة، أم في المجتمع العصري الذي يعيش فيه.. وخلص من ذلك إلى استعراض مختلف الحلول التي تخلّصه من مأزقه: ففكَّر أوَّلًا في مبارزة غريمه، لكنه استبعد هذا الحل على الفور بدون أن يناقشه، فهو أوَّلًا لي من أنصار استعمال العنف أو استخدام السلاح، فضلًا عن جهله بطريقة استخدامه.. ثم أنه لا يستطيع أن يفهم أو يهضم احتمال أن يذهب - وهو البرىء - ضحية الجريمة التي هو فيها في مركز المجنى عليه، سواء قُتل أو جُرح!.. وأخيراً فإن أصدقاءه الكثيرين لن يسمحوا له بتعريض حياته للخطر وهو السياسي الذي يحتاج إليه وطنه أشد الحاجة!

وهكذا انتهى إلى استبعاد فكرة المبارزة، ومناقشة الفكرة التالية لها في قائمة الحلول الميسورة، وهي: الطلاق!.. ولكنه لم يكد يفعل حتى تبين أن طلاق زوجته - حتى على فرض حصوله على الأدلة التي تثبت خيانتها – لن يؤدي إلَّا إلى إثارة فضيحة علنية في المجتمع، سرعان ما يتلقفها خصومه السياسيون لمحاولة هدمه.. هذا إلى أن هذا الحل

يحقِّق للزوجة وعشيقها الحرية التي ينشدانها، وبذلك يكافئهما على جريمتهما، بدلًا من أن يعاقبهما!

وفكَّر في حل ثالث هو الانفصال عن زوجته بغير طلاق.. لكن هذا أيضًا يثير الفضيحة نفسها التي يرى اجتنابها، ويزيد الزوجة ارتماء في أحضان عشيقها، وإذا كان هو لا يستحق أن يشقى بسببهما، فهما كذلك لا يستحقان أن يسعدا على حساب شقائه!

والواقع أن أليكسي وهو يستعرض هذه الحلول تملكته رغبة قوية في ألا يتيح لزوجته فرصة للخروج من خيانتها ظافرة، وحرص على أن تلقى عقاب جريمتها، وعلى أن يراها تقاسي، جزاء تدميرها سكينة نفسه، واغتيالها شرفه! واقتنع أخيراً، بعد استعراض كل هذه الحلول، بأن أجداها عليه هو أن يُبقى زوجته معه، وأن يخفى عن أسماع الناس ما حدث، ويستخدم كل وسيلة في مقدوره كى يحبط مؤامرة العاشقين!.. وبعد أن ركن إلى هذا المخرج، سرَّه أن وجده كذلك متفقاً مع أحكام الدين، فحدَّث نفسه قائلًا: " نعم، إننى باتباعي هذا المسلك لا أكون قد نبذت الزوجة الخاطئة، بل أكون أعطيتها فرصة

للتوبة والتكفير عن خطيئتها، ولا شك أنى – برغم صعوبة المهمة - سوف أخصص جانبًا من نشاطي لمحاولة إصلاحها وهدايتها. وستمضى الأيام، ويصلح الزمن كل شيء.. وتعود العلاقة القديمة بيننا سيرتها الأولى!".

وحين أشرف أليكسي على (بطرسبرج)، كان قد استراح إلى قراره. وصاغ في ذهنه عبارات الخطاب الذي اعتزم أن يكتبه إلى زوجته، فلما وصل إلى منزله دخل من فوره غرفة مكتبه، حيث كانت تضيئها ست شمعات، وجلس هنيهة معتمداً برأسه على إحدى راحتيه، ثم شرع في كتابة الخطاب التالي: " في لقائنا الأخير وعدتك بأن أخبرك بقرارى فيما يتصل بموضوع اللقاء. وها أنذا أفي بوعدى، بعد أن تدبرت كل شيء، وإليك ما قررته: أيًّا كان مسلكك فإني لا أراني في حل من أن أفصم الروابط التي عقدتها بيننا قوة علوية. إن الأسرة لا يمكن أن تُحطَّم بفعل نزوة أو خطيئة – لأحد الزوجين، ومن ثم ينبغي أن تستمر حياتنا كما كانت في الماضي، الأمر الذي هو جوهرى بالنسبة لى، ولك، ولابننا. وإنى لمقتنع كل الاقتناع بأنك قد ندمت وتندمين الآن على الأمر الذي دعاني إلى إرسال هذا الخطاب، وإنك سوف

تتعاونين معى على إزالة سبب النفور الذي بيننا، ونسيان الماضي. وإذا لم يكن اعتقادي هذا صحيحًا فإنكِ تستطيعين أن تتصورى المصير الذي ينتظرك أنت وابنك - وأرجو أن أوفق إلى شرح ذلك كله، لك بتفصيل أوفى في مقابلة خاصة – ولما كان الموسم يوشك أن ينتهى، فإنى أرجو منك أن تعودي إلى بطرسبرج بأسرع ما تستطيعين قبل يوم الثلاثاء، وسوف تُعد جميع التدابير اللازمة لاستقبالك. وسأطوى هذا الخطاب على بعض المال لعلك تحتاجين إليه لسد نفقاتك". "

أ. كارنين "

وقرأ الخطاب مرة أخرى، فشعر بالارتياح، سيما لكونه قد تذكَّر أن يرسل إليها بعض المال، ولأنه لم يضمن الخطاب أية عبارة نابية أو كلمة تقريع، بل كان فيه متسامحاً أكثر مما ينبغى له. فجاء الخطاب من أجل ذلك كله صالحاً لأن يكون قنطرة للتراجع الكريم!.. وطوى أليكسي الخطاب، ثم وضعه في ظرف أغلقه، ودق الجرس، فلما جاءه أحد الخدم، ناوله المظروف المغلق وقال له: " سلِّم هذا الخطاب للساعي كي يوصله إلى زوجتى غداً في المنزل الصيفى!".

كانت آنا كارنينا تطل من نافذة المنزل الصينى، حين رأت رسول زوجها يصعد السلم ويدق الجرس، فجلست على مقعد منخفض وعقدت يديها على ركبتيها، ووطنت نفسها على استقبال ما يحمله الرسول، أيًّا كان! ولم يلبث خادم أن دخل يحمل إليها الرسالة وهو يقول: " إن حاملها ينتظر ردًّا". فأجابته: " حسنًا، دعه ينتظر". ثم فضت المظروف، فتساقطت منه حزمة أوراق النقد، وقرأت الخطاب مرة، واثنتين.. فلما استوعبته، أحسَّت بالبرودة تسعى إلى أطرافها، وكأن خطباً قد دهمها على غير انتظار؟ كانت قد أسفت في الصباح على أنها صارحت زوجها بكل شيء، وودَّت لو أنها لم تنطق بكلمة مما قالته له مساء أمس. ولكن ها هو ذا خطابه يعتبر كلماتها كأن لم تكن، ويحقِّق بذلك رغبتها، فما لها تعتبر الخطاب أبشع من كل احتمال توقَّعته؟.. وراحت تحدِّث نفسها: " يا للمخلوق الشرير الوضيع! إنه يتظاهر بأنه متدين وكريم، لكن أحداً لا يفهمه غيرى! إن الذين يمتدحون صفاته لا يرون ما رأيته، ولا يعرفون كيف سحق حياتى طيلة ثمانية أعوام، سحق كل شيء كان حيًّا في! إنه لم يفكِّر يوماً في أني امرأة على قيد الحياة، ينبغي لها أن تجد الحب الذي تنشده كل امرأة!

بل إن الناس لا يعلمون كيف أذلني في كل خطوة. وأمتعه أن يفعل ذلك؟ أو لم أكافح أنا بكل قواى لكى أحبه، وأجد شيئاً يكسب حياتى طعماً ومعنى؟.. ولكنى عجزت عن أن أحبه، فركَّزت حبي كله في ابني!.. ثم جاء الوقت الذي أدركت فيه عجزي عن المضى في خداعي لنفسي. أدركت أنى حية، وأنى غير ملومة! إن الله خلقنى كى أحب وأعيش، والآن ماذا فعل الآثم؟ لو أنه قتلني، أو قتل فرونسكي، إذن لكان ذلك أكرم وأحسن!.. ولكن كلا! كيف غاب عنى أن أتوقَّع ما سوف يفعله؟! إنه يهددنى بانتزاع ابنى منى، وقد يحكم له القانون بذلك. لكنه يعلم جيدًا أني لن أتخلَّى عن طفلى أو أهجره، وألا حياة لي بغيره، حتى مع حبيبي! وإنه ليعلم أيضاً أني لست من ذوات القلوب المتحجرة الوضيعة، اللواتي تترك الواحدة منهن طفلها و تفر مع عشيقها!".

وتذكَّرت " آنا" ما ذكَّرها به أليكسي في خطابه بقوله: " ومن ثم ينبغى أن تستمر حياتنا كما كانت في الماضي!"، فاستطردت تحدِّث نفسها: " هل كانت حياتنا في الماضي غير شقاء مرير! لكنه يريدها أن تستمر، لكي يمضى في تعذيبي. إنه يكون سعيداً في صحبة الغش والنفاق، كما تسعد السمكة في الماء! كلا! لن أمنحه هذه السعادة،

سأمزق نسيج الأكاذيب الذي يريد أن يحبسني فيه، كما يحبس العنكبوت الذبابة! إن أي شيء أفضل عندي من الكذب والغش!.. ولكن كيف! يا إلهى! هل توجد امرأة أشقى منى؟ لكنى سأنجو بنفسى.. نعم سأنجو!".

وقفزت من مكانها وهي تمسح دموعها، ثم اتجهت إلى منضدة الكتابة لتكتب إليه. لكنها في أعماق قلبها كانت تشعر بأنها أضعف من أن تستطيع التخلّص من مأزقها، برغم الزيف والعار اللذين يكتنفان حياتها، فجلست إلى منضدة الكتابة، لكنها بدلًا من أن تكتب، بقيت هنيهة متكئة بمرفقيها على المنضدة ورأسها بين كفيها.. ثم انخرطت في البكاء، وتوالت شهقاتها كالطفل العاجز! كانت تبكى تبدد أملها في تسوية موقفها وجلائه. إنها تعلم الآن أن كل شيء سوف يستمر على حاله، بل لعله سيزداد سوءاً! وهى تحس أنها لا تستطيع التفريط في مكانتها الاجتماعية التي بدت لها في الصباح ضئيلة القيمة، ولن تقوى على أن تستبدل بها تلك المكانة المزرية التي يعطيها المجتمع للمرأة التي تهجر زوجها وطفلها كى تلحق بعشيقها!.. إنها لن تستمتع قط بحريتها في الحب. وإنما ستظل دائمًا زوجة آثمة، وسيظل سيف

العقاب مصلتًا فوق رأسها في كل وقت. إنها تخون زوجها من أجل صلة مخجلة برجل آخر يعيش بعيدًا عنها، ولا أمل في أن يشاركها حياتها.. بل إنها لا تعرف إلى أية نهاية سوف ينتهى بها المطاف!

وبقيت " آنا" تبكي في حرقة دون أي تحفظ. بكت كما تبكى الطفلة حين تُعاقب. و لم تفق من بكائها إلا حينما سمعت وقع خطوات الخادم يقترب منها، فأخفت وجهها متظاهرة بالكتابة، ثم سمعته يقول: " الرسول بالباب يسأل: هل هناك رد؟"، فقالت له: " رد؟ نعم، فلينتظر حتى أقرع لك الجرس!". ثم ساءلت نفسها حائرة: " ماذا أكتب؟ ماذا أستطيع أن أقرر وحدى؟ ماذا أعرف؟ ماذا أريد؟".. وأحسَّت كأن روحها توشك أن تُفلق إلى شطرين، فأفزعها هذا الإحساس، وودت لو تشغل نفسها بأى شيء يحول بينها وبين التفكير في أمرها، وقالت لنفسها: " يجب أن أرى فرونسكي. لا أحد غيره يستطيع أن يشير عليَّ بما ينبغى أن أفعل. فلأذهب إلى " بتسى"، لعلني أجده هناك"!

لكنها بعد أن أمعنت فكرها في الأمر، عادت فانحنت على الورق، وراحت تكتب إلى فرونسكي: " يجب أن أراك اليوم لأمر ضروري. تعال إلى حديقة (فريدي). حوالي الساعة السادسة". ثم ختمت الرسالة وسلمتها لمن يوصلها..

كان فرونسكي يسير في حياته وفق دستور خاص وضعه لنفسه: دستور يحرِّم على الرجل أن يكذب على رجل مثله، لكنه يجيز له أن يكذب على امرأة! ويحرم على المرأة أن تغش أحدًا سوى زوجها!.. ويحرم على الإنسان أن يغفر إهانة، لكنه يجيز له أن يوجه الإهانة إلى غيره!.. وكانت مبادىء هذا الدستور - برغم مجافاتها للمنطق والأخلاق – تسمح لفرونسكي بما يبغى من سكينة النفس وشموخ الأنف، ووفقاً لها كانت صلته الحالية مع " آنا" وزوجها غاية في الوضوح والبساطة: فهو على ضوئها يرى " آنا" امرأة شريفة، أسبغت عليه حبها، وأحبها هو، ومن ثم فهي في نظره تستحق من الاحترام والتبجيل مثل ما تستحق الزوجة الوفية، وربما أكثر!.. وإن يده لتقطع قبل أن يسمح لنفسه بحركة أو كلمة فيها ما يذلها أو يشعرها بأنه يضن عليها بأقصى ما تطمع فيه المرأة من احترام الرجل!

وفيما يختص بالمجتمع، كان دستور فرونسكي يوحى إليه بأحكام هي الأخرى غاية في الوضوح: فهو يرى أن من حق كل فرد في المجتمع أن يعلم بأمر علاقته بمدام كارنينا، أو يرتاب في ذلك، ولكن ليس من حقه أن يتحدَّث عنها علانية! فإذا جرؤ على ذلك فإنه مستعد لأن يجبره على الصمت، وعلى احترام "

الشرف المفقود" للمرأة التي يحبها!

على أن أوضح أحكام ذلك " الدستور" كانت تلك التي تتعلَّق بزوج " آنا" المخدوع: فمنذ اللحظة التي أحبَّت فيها " آنا" فرونسكى، اعتبر هذا حقوقه عليها بمثابة أمر مفروغ منه، ولم يعد زوجها في نظره غير شخص يجلب الضيق، ولا لزوم له البتة!.. وصحيح أن هذا الزوج بات في موقف لا يحسد عليه، ولكن كيف السبيل إلى معالجة ذلك؟ إن الشيء الوحيد الذي من حق الزوج أن يفعله هو أن يطلب ترضية من غريمه، بالمبارزة والسلاح، وقد كان فرونسكي على أتمّ استعداد لهذا الأمر!

لكن ثمة غيوماً جديدة بدأت تتكاثف في جو العلاقة بين فرونسكي وآنا، فتسبَّب له شيئاً من الانزعاج: فهى مثلًا قد أنبأته بأمر الجنين الذي تحمله في أحشائها منه! وقد كان رد الفعل المباشر الذي أوحى له به قلبه إزاء هذا النبأ المفاجيء أنه طالبها بترك زوجها إلى غير رجعة. لكنه ما لبث أن ندم على تسرعه، وود لو يستطيع تجنب هذه النتيجة، وجعل يسائل نفسه: " إن هجرها زوجها إجابة لطلبى معناه أن أقرن حياتى بحياتها. فهل أنا مستعد لهذه الخطوة؟ هناك عقبتان تعترضان تنفيذها: إحداهما تدبير المال الكافي لمواجهة مقتضياتها، والأخرى اضطراري للاستقالة من الجيش كى أذهب معها بعيداً عن هذا المجتمع الذي يعرفنا، ولن تكف ألسنة أفراده عن أن تلوك تلك الفضيحة!".

وكانت العقبة الأخيرة هي العقبة الكأداء حقّاً، فقد كان فرونسكي طموحاً إلى بلوغ أعلى مناصب الجيش، وكان هذا حلم طفولته وشبابه. وقد بلغ من طموحه هذا أنه لم يحجم عن الدخول مع غريمه، زوج عشيقته، في صراع الند للند! ومن ثم أخذ فرونسكي يقول لنفسه: " لو أننى هجرت الجيش فإنى بذلك أحرق سفني من خلفى،

فأقطع على نفسى خط الرجعة! أما لو بقيت فيه فلن أخسر شيئاً!..
ثم إنها قالت بلسانها أنها لا تود تغيير الأوضاع الحالية!".

ثم نهض فحلق لحيته، وارتدى ثيابه، وخرج إلى موعده مع آنا!.. وفي الطريق إلى حديقة (فيللا فيريدى) راح يحدِّث نفسه قائلًا وهو يستعيد إلى ذاكرته صورة " آنا" كما بدت له في لقائهما الأخير: " لست أبغى شيئًا سوى هذه السعادة! إن حبى لها يتضاعف كل يوم!". وحين اقترب من الحديقة قفز من العربة وصرف الحوذي، ثم دخل الحديقة مسرعًا. وحانت منه نظرة إلى اليمين فرآها قادمة، وقد غطَّت وجهها بنقاب، فسرت في جسمه على الفور قشعريرة كالتي تحدثها صدمة كهربائية! وحين التقيا ضغطت يده في قوة، وابتدرته بلهجة جادة أثارت قلقه: " إنك غير غاضب لأنى دعوتك؟". ورأى من تصرفها وحركاتها أن شيئاً قد حدث، وأن لقاءهما لن يكون بهيجًا! وسرعان ما سرت عدوى وجومها إليه، فإن إرادته كانت تفارقه في حضرتها! فسألها وهو يحاول أن يقرأ أفكارها: " ماذا بك؟ ما الذي حدث؟" لكنها سارت صامتة بضع خطوات وهي تجمع شتات شجاعتها، ثم توقَّفت فجأة وقالت له، وهي تلتقط أنفاسها اللاهثة في صعوبة: " فاتني أمس أن

أخبرك بأني صارحته بكل شيء. ذكرت له أني لا أستطيع أن أكون زوجة له، وأني.. بالاختصار ذكرت له كل شيء!".

فاعتدل فرونسكي في وقفته وارتسم على وجهه فجأة تعبير يمتزج فيه الإباء و الصرامة وقال: " هذا أفضل. أفضل ألف مرة، وإن كنت أقدِّر مدى الألم الذي سبَّبه لك هذا الموقف!".. لكنها لم تصغ إلى كلماته. كانت منشغلة بمحاولة قراءة أفكاره من تعبير وجهه! لكم كانت تود لو قابل النبأ قائلًا في حدة وعزم، لا يخالجهما تردد: " دعى كل شيء وتعالى معى!". لو أنه فعل، لتركت زوجها وابنها وذهبت معه!.. فقالت في عصبية مكتومة: " كلَّا، لم يكن الموقف أليمًا بالنسبة لي، بل حدث الأمر من تلقاء ذاته. انظر!" وأخرجت خطاب زوجها من ثنايا قفازها، فتناول الخطاب وقال لها: " أني أفهم كل شيء. وكل ما أتوق إليه - وطالما صليت لكي يتحقق - هو أن ينتهى هذا الموقف بأسرع وقت، كيما أكرِّس حياتى لتوفير سعادتك".. ثم نشر الخطاب وشرع يقرؤه، فلما أتى على سطوره رفع عينيه إليها في غير تصميم، فقرأت هي فيهما أن أملها الأخير قد خاب! وقالت له بصوت مختلج: " أرأيت أي رجل هو، إنه.."، فقطع كلامها قائلًا: " لا تؤاخذيني إذا

قلت إن هذا يسرنى. دعينى بربك أتم كلامي. إنه يسرنى لأن هذه الأوضاع لا يمكن أن تستمر بحال، ولهذا أرجو أن تتركيه، وأن تدعينى أرتب حياتنا، وغدًا.."، فقالت له مقاطعة: " ولكن ماذا يكون من أمر ابني؟ ألم تر كيف هددني في خطابه بأن يسلبني إياه؟"، فقال لها: " أيهما أفضل: أن تتركي ابنك، أو أن تظلى في هذا الوضع المزري؟"، فسكتت هنيهة ثم قالت له: " لا تقل هذا، هذه الكلمات لا معنى لها في نظري! ألا ترى أن كل شيء قد تغير في حياتي منذ أحببتك؟ لقد أصبح حبك عندي هو كل شيء!".

وخنقتها العبرات، فلم تستطع المضي في حديثها! وشعر هو بغصة في حلقه، ولأول مرة في حياته انتابه ميل إلى البكاء مثلها، لإدراكه أنه المسئول عن شقوتها، فقال متخاذلًا: " أليس الطلاق ممكناً؟". فهزَّت رأسها ولم تجب، فأردف قائلًا: " ألا تستطيعين أن تأخذى ابنك؟"، فقالت: " هذا يتوقَّف عليه وحده، والآن أراني مضطرة إلى اللحاق به!". فقال: " سأكون في بطرسبرج يوم الثلاثاء، وكل شيء يمكن أن يسوى". قالت: " حسناً! ولكن دعنا من هذا الموضوع، فلست أحب أن نتكلم فيه!".

ثم ودعته واستقلّت عربتها.. ومضت!

وكان أليكسي قد نسي، في غمرة مشاغله، اليوم الذي حدَّده لعودة زوجته.. فلما تلقى برقية تنبيء بعودتها، صُدم في البداية، وأحس شيئًا من الضيق. ثم أرسل العربة لتقلّها إلى البيت، دون أن يذهب لاستقبالها، وعندما بلغت البيت قيل لها إنه في حجرة مكتبه ومعه سكرتيره، فأرسلت تنبئه بقدومها ثم مضت إلى غرفتها الخاصة، وهي تنتظر أن يلحق بها. لكن ساعة انقضت وهو لم يظهر!.. فتوجَّهت إلى حجرة المائدة بحجة إصدار بعض التعليمات إلى الخدم. ورفعت صوتها عامدة كي يحس بوجودها. لكنه لم يخرج من مكتبه، حتى بعد أن ودَّع سكرتيره عند باب الحجرة، فقد عاد بعدها إلى الداخل! وعندئذ لم تجد هي بدًا من أن تتجه نحوه. فلما دخلت رأته قبل أن يراها. كان متكئاً بمرفقيه على منضدة المكتب، يفكِّر! إنه يفكر فيها. وما كاد يراها حتى احمَّر وجهه، على خلاف عادته، ثم نهض مسرعًا فاتجه ليلقاها، وهو ينظر لا إلى عينيها وإنما إلى جبهتها وشعرها، ثم تناول يدها ودعاها إلى الجلوس، وقال وهو يجلس بجوارها: " كم أنا مسرور لأنك حضرت!".

وحاول أن يضيف شيئاً آخر، لكنه لم يدر ماذا يقول؟! وكانت هي قد أعدَّت نفسها لتأنيبه وإظهار احتقارها له، لكنها أحست بالرثاء لحاله، فسكتت، ولم تدر هي الأخرى ماذا تقول؟! وهكذا استمر الصمت بينهما دقائق. وأخيرًا قطعه هو متسائلًا: " هل سريوشا بخير؟"، ثم أضاف دون أن ينتظر جوابًا: " لن أتناول الغداء في البيت اليوم. ثم أني مضطر إلى الخروج فوراً!".

فقالت آنا: " لقد فكَّرت في الذهاب إلى موسكو".

فقال: " كلَّا! إنك أحسنت صنعًا بالمجيء!"، ثم صمت. وإذ رأت هي عجزه عن الدخول في الموضوع، حزمت شجاعتها وقالت، وهي تنظر إليه دون أن تغض من بصرها تحت وقر نظرته الملحة إلى شعرها: " أليكسي. إني امرأة آثمة، سيئة الخلق. وقد جئت لأقول لك إني لا أستطيع أن أغيّر شيئًا من الأمور التي صارحتك بها!". فقال في حزم وهو يواجهها بنظرته المنطوية على الكراهية: " أنا لم أسالك إيضاحًا عن ذلك. لكني، كما قلت لك وقتئذ، وكرَّرت لك في خطابي، أعود فأقول لك إنه ليس من الحتم أن أقف على هذه الحقيقة، ومن

ثم فإنى أتجاهلها.. فإنه ليس كل الزوجات من الطيبة والرفق بحيث يهرعن إلى مصارحة أزواجهن بمثل هذه الأنباء " السارة"!.. نعم، إنى سوف أتجاهل الأمر ما دام مجهولًا من الناس، وما بقى اسمى غير ملوث! ومن هنا أقول لك: إن علاقتنا ينبغي أن تستمر كما كانت. وإننى لن أتخذ خطوة إيجابية لصون شرفي، إلا إذا اضطررتني أنت إلى ذلك!".

وعاودها نفورها منه، وطغى هذا الشعور على رثائها لحاله أوَّل الأمر! لكنها بقيت خائفة منه، فقالت في صوت خجول وفي ضيق ظاهر، وقد انتوت أن توضِّح له موقفها كاملًا، بأي ثمن: " لكن علاقتنا لا يمكن أن تستمر كما كانت، فلست أستطيع أن أكون زوجة لك بينما.."، وعندئذ ضحك ضحكة باردة خبيثة وقال: " يبدو أن مسلكك قد انعكس على أفكارك. لكنى أحترم ماضيك وأحتقر حاضرك، بحيث أني لم أقصد هذا الذي فسرت به كلامى!". فتنهَّدت " آنا" ونكست رأسها، بينما تابع هو حديثه قائلًا: ".. وإن كنت عاجزاً عن فهم هذا التناقض الغريب الذي يجعلك لا ترين في خيانتك لزوجك

أي غضاضة، بينما تجدين كل الغضاضة في القيام بواجبات الزوجية!".

فنظرت إليه متسائلة ثم قالت: " ما الذي تريده منى؟".

فقال: " أريدك ألَّا تستقبلى ذلك الرجل هنا، وأن تسلكي في حياتك الخاصة ما لا يجعل لأحد من الناس أو الخدم سبيلًا إلى لومك! وهذا ليس بكثير فيما أرى. وفي مقابل ذلك سوف تستمتعين بكل امتيازات الزوجة الوفية، دون أن تقومي بواجباتها! هذا كل ما أردت أن أقوله لك، والآن آن لي أن أذهب، ثم أنى لن أتناول الغداء في البيت اليوم".

واتجه إلى الباب، فنهضت هي أيضاً.. وإذ ذاك تركها تمر قبله وهو ينحنى لها في أدب!

الفصل الرابع

-13-

استمرّ الزوجان يعيشان تحت سقفٍ واحد كأسرى مجبرين على اقتسام الصمت، يلتقيان كل صباح كما يلتقي الغريب بالغريب؛ نظرة باردة، وكلمة مقتضبة، ثم يمضي كلٌّ إلى عزلته الموحشة. وكان أليكسي، مدفوعًا بوعي الرجل الذي يحرص على المظاهر، يتعمّد أن يُري الخدم تماسكًا مصطنعًا، فيظهر أمامهم صباحًا ليرى آنا، ثم يغيب عن البيت وقت الغداء كمن يفرّ من نارٍ تتأجج تحت جلده.

أما فرونسكي، فقد امتنع عن وطء عتبة منزل غريمه، ليس تهيّبًا ولا احترامًا، بل تجنبًا لصدام عبثي لا طائل منه، فكانت آنا تلتقيه خلسة، في الخارج، بعلم الزوج الذي آثر أن يغضّ الطرف، متشبثًا بوهم الكرامة.

وقد كان هذا الوضع الكئيب عبئًا على قلوب ثلاثتهم، عبئًا يئنّون تحته، ويصبرون عليه فقط لأن الأمل ما يزال يبرق لهم كسراب على أفق بعيد؛ كلٌّ منهم يعلّق قلبه بوهم التغيير. كان أليكسي، بعقليته

الجافة، يرى ما يحدث عارضًا عاطفيًا عابرًا، سيمضي كما تمضي السحب الصيفية، ويعود كل شيء إلى ما كان عليه، ويظل اسمه نقيًا لا يشوبه دنس. أما آنا، التي كانت تحمل الألم في قلبها وقسمات وجهها، فلم تكن تحتمل هذا البرزخ إلا بوعدٍ داخليٍ غير واضح، بأن النهاية قريبة، وأن الأمور ستستقيم، رغم أنها لا تعرف كيف ولا متى.

وفرونسكي، الذي بدا في الظاهر أكثرهم حرية، كان أكثرهم تيهًا؛ تبع آنا بخطى منقاد، وأملٌ خافت بأن تتدخل يدٌ من السماء – لا يده هو – فتزيل عنهم هذا العبء وتعيد لكل شيء توازنه.

وذات مساء، عاد فرونسكي إلى منزله، فوجد رسالة تنتظره، سطورها تنزف قلقًا وشوقًا:

"أنا مريضة، تعيسة.. لا أقوى على الخروج، لكنني لا أستطيع أن أظل بعيدة عنك. تعال الليلة، زوجي سيغادر في السابعة، ولن يعود قبل العاشرة."

وقف فرونسكي يتأمل الكلمات كمن يقرأ نبوءة منقوشة على حجر قديم. لقد كان طلب آنا مجازفة، يعلم أنها تتحدى فيه أوامر زوجها

وتعانق الخطر. لكنه، وقد ذاب في نار عشقها، لم يرَ بُدًّا من الاستجابة.

غير أن النوم غلبه كما يغلب المسافر المنهك، فلم يصحُ إلا والليل قد أرخى سدوله، والساعة تشير إلى الثامنة والنصف. قفز من فراشه مذعورًا، لا تزال آثار كابوس ثقيل عالقة بذهنه، وارتدى ثيابه على عجل، ثم ركب عربته، يطوي الطريق شوقًا وقلقًا.

وحين وصل، قبل التاسعة بدقائق، كانت الصدمة في انتظاره.

في المدخل، وعلى ضوء خافت يتراقص على جدران الردهة، رأى أليكسي خارجًا من البيت. وجهه كصخرة نُحتت عليها القسوة، وعيناه زجاجيتان خاويتان. نظر إلى فرونسكي نظرة جامدة، ثم رفع قبعته في إيماءة باردة ومضغ شفتيه في صمت، ومضى دون أن ينبس بكلمة.

وقف فرونسكي مكانه لحظة، ثم استأنف خطواته، وداخله يمور بالعاصفة ."*أي مهزلة هذه؟ لو أنه صفعني أو دعا إلى* duel *، لكان الأمر أكثر رجولة! أما هذا الصمت، هذه اللامبالاة الباردة، فهي تطعن*

كبريائي. لقد جعلني في موقف المخادع، وأنا ما أردت خداعًا ولا تدليسًا!"

ومنذ لقائه الأخير بآنا في حديقة "فيريدي"، تغيّرت رؤاه؛ لم يعد يملك زمام أمره، بل انقاد لضعفها، لتلك المرأة التي سلّمته روحها بكل خضوعٍ وتذلّل.

وفي نهاية الردهة، تناهى إليه وقع خطوات خفيفة متسارعة. إنها هي.. تنتظره بشغف الظمآن للماء. وما إن لمحته حتى هرعت إليه، والدموع معلّقة في عينيها كسحاب مشبع، وهمست بصوت مكسور: "كلا، إذا ظلّت الأمور تسير على هذا النحو، فالنهاية أقرب مما تتصوّر!"

–ماذا جرى، يا حبيبتي؟

- ماذا جرى؟ منذ ساعتين وأنا أنتظرك على جمر! لكني لن أتشاجر معك، فأنت بالطبع لم تستطع الحضور قبل الآن. كلّا، لن أعاتبك!

ووضعت راحتيها على كتفيه، ورمقته بنظرة طويلة عميقة، حارة فاحصة – كأنما لتعوض ما فاتها منه في غيابه! – ثم استدارت ونزعت

إبرة " الكروشيه" من قطعة الصوف التي تنسجها، وبدأت تعمل فيها من جديد بحركة سريعة عصبية. ثم سألته: " أين التقيت بزوجي عند دخولك؟"، فقال: " في مدخل الردهة". فنهضت وقلَّدت زوجها وهو ينحنى بالتحية، ثم قالت: " أهكذا انحنى لك؟"، فابتسم فرونسكي لبراعتها في التقليد، وضحكت هي في مرح، ثم أردف فرونسكي قائلًا: " الواقع أنى لست أفهم على الإطلاق: كيف يمكن أن يدع الأمور على هذا الوضع، بعد اعترافك له بمدى الصلة التي بيننا؟!"

فقالت: " إنه قانع بهذا الوضع!".

قال " " إذن ففيم ابتئاسنا جميعاً إذا كانت السعادة في متناولنا"؟

قالت: " أنت لا تعرفه كما أعرفه، إنه غارق في الزيف والنفاق حتى أذنيه. وإلا فهل يستطيع شخص عنده ذرة من الإحساس، أن يعيش في بيت واحد - كما يفعل هو – مع زوجته التي تخدعه، وأن يتحدَّث إليها ويخاطبها بكلمة " عزيزتي"؟ إنه فاقد الضمير والشعور! بل إنه ليس رجلًا، ليس إنسانًا على الإطلاق. إنه دمية لا أكثر! ولو أنى كنت مكانه لقتلت ومزَّقت زوجة مثلى منذ أوَّل لحظة! أقول لك إنه ليس

إنساناً، بل آلة مصلحية. إنه لا يستطيع أن يفهم إنى قد غدوت زوجتك أنت! أوه، دعنا نكف عن التحدث في أمره!".

فحاول فرونسكي أن يهدىء من ثائرتها وقال: " إنك ظالمة، ظالمة جدًّا يا حبيبتي. ولكن دعينا من سيرته كما تقولين، وحدثيني: ماذا كنت تفعلين؟ ماذا أصابك، وماذا قال الطبيب؟ أحسبك لست مريضة، وإنما هو الحمل الذي يسبِّب لك هذا التعب. متى يحين موعد الوضع؟". وهنا انطفأت النظرة الساخرة في عينيها، وارتسمت على وجهها بدلًا منها ابتسامة كئيبة غامضة، وما عتمت أن أجابته: " قريباً. قريباً! إنك تقول: إن موقفنا تعس جدّاً، وإننا ينبغي أن نضع له حدًّا. ولكن آه لو علمت كم أتألم أنا منه؟ وماذا أبذل كى يغدو في مقدوري أن أحبك في حرية وجرأة! والواقع أننى لا ينبغي أن أعذب نفسى وأعذبك بغيرتي، ولتثق أن النهاية ستكون قريبة، ولكن ليس على الصورة التي تنتظرها!".

وإذ تذكّرت الصورة التي تتوقَّع أن تكون عليها النهاية تدافعت الدموع إلى عينيها وعجزت عن مواصلة الكلام، فوضعت يدها على

كمه و تشبَّثت به برهة، حتى استردت صوتها فاستطردت: " إن النهاية لن تكون كما نفترض. لم أكن أريد أن أقول لك ذلك، لكنك دفعتنى إلى قوله. وقريبًا سينتهى كل شيء وننعم جميعنا بالسكينة ولا نعود نتألم!".. فبدا التساؤل في عينيه وقال لها: " لست أفهم شيئًا!"، فقالت: " ألم تسألني متى يحين موعد الولادة؟ إنه سيحين قريباً، ولن أعيش بعدها! لا تقاطعنى، أنا أعرف ذلك، أعرفه عن يقين!".. وتساقطت الدموع من عينيها، فانحنى على يدها يقبلها، محاولًا إخفاء تأثره.. بينما أردفت هي: " إنه المخرج الوحيد الذي بقي أمامنا!".

وكان هو قد اعتدل واقفًا، فرفع رأسه وقال لها: " يا للوهم! ما هذه السخافات التي تنطقين بها؟".

- إنى سأموت.. لقد رأيت حلماً!

وتذكَّر فرونسكي الكابوس الرهيب الذي رآه في نومه بعد الظهر، بينما واصلت هي كلامها قائلة: " نعم، حلمت بأني دخلت مخدعي لأبحث عن شيء، فوجدت في ركن منه قرويًا ذا لحية كثة وشكل مخيف. وحاولت أن أعدو لكنه انحنى على غرارة وراح ينبش فيها بيديه، هكذا.."، وأخذت تمثل حركته وقد ارتسم الرعب في عينيها،

فتذكَّر فرونسكي حلمه، وأحس برعب مماثل يستولى عليه، بينما استطردت هي تقول: " ثم التفت الرجل المفزع إلىَّ وقال: " سوف تموتين يا سيدتى وأنت تضعين طفلك، ستموتين!"، وعندئذ استيقظت من نومى".

-14-

على أثر التقاء أليكسي وفرونسكي عند مدخل البيت، مضى الأوَّل إلى دار الأوبرا الإيطالية، حيث شهد فصلين من الرواية، ورأى كل من أراد أن يراهم، ثم عاد أدراجه إلى البيت. وكان أوَّل ما فعله حين دخل أن ألقي نظرة على المشجب، فلما لم ير عليه معطف الضابط مضى إلى غرفته توًّا. لكنه بدلًا من أن يأوى إلى فراشه راح يذرع الحجرة حتى اقترب الفجر، وقد أزعجه تحدى زوجته لتعليماته في شأن كتمان صلتها بعشيقها!.. وبعد أن قلَّب الأمر على وجوهه قرَّر أن يكون عند كلمته فيعاقبها بتنفيذ تهديده لها بالطلاق وانتزاع ابنها من حضانتها، برغم كل العقبات والصعاب التي تكتنف هذا الإجراء!

ولم ينم طيلة الليل، وظلّ غضبه يتفاقم حتى بلغ ذروته في الصباح، فنهض وارتدى ثيابه على عجل ثم مضى إلى مخدعها رأسًا.. فأدهشها أن تراه يدخل عليها على هذه الصورة، وقد زوى ما بين حاجبيه، ولمعت عيناه بنظرة زائغة، وفي انطباق فمه وحركاته ومشيته ونبرات صوته ما يدل على الحزم والتصميم!.. واتجه دون أن

يحييها إلى منضدة الكتابة التي تخصها، فتناول مفاتيحها وفتح بها أحد الأدراج، فصاحت به آنا: " ماذا تريد؟".

فقال دون أن ينظر إليها: " رسائل عشيقك!".

فقالت: " إنها ليست هنا!". ثم نهضت مسرعة وأغلقت الدرج، لكنه أدرك من حركتها أنه كان على حق في استنتاجه، فنحاها جانبًا واختطف من الدرج حافظة أوراق كان يعلم أنها تضع فيها أوراقها الخاصة، فحاولت أن تنتزعها منه لكنه دفعها عنه في شيء من العنف قائلًا: " اجلسي، فإني أبغى أن أكلمك. لقد ذكرت لك أني لن أسمح لك بأن تستقبلى عشيقك في بيتى!".

فقالت: " أردت أن أراه كى.."، وسكتت مطرقة كأنما تبحث عن السبب، فاستطرد هو قائلًا: " لن أدخل في تفصيلات الأسباب التي من أجلها تريد المرأة أن ترى عشيقها!".

- كان غرضى أن.. على أية حال فإنك تجد من السهل عليك أن تهينني!..

- الرجل الأمين والمرأة الأمينة يتلقيان الإهانات. أما أن يقال للص إنه لص فهذا تقرير أمر واقع وليس أكثر من ذلك!

- هذه القسوة شيء جديد لم أعهده فيك!

- أهي قسوة أن يعطى الزوج لزوجته حريتها، ويعهد إليها بحراسة اسمه وشرفه، لقاء شرط واحد بسيط هو المحافظة على المظاهر؟!

- إنها أسوأ من القسوة. إنها ضعة، إذا أردت أن تعرف!

وكان وجهها وصوتها ينمان عن كراهية هائلة، ثم نهضت وهمَّت بالخروج من الغرفة، فاستوقفها بصرخة حادة غير مألوفة، ثم قبض على ذراعها بقوة وعنف وأجلسها حيث كانت، قائلًا: " كلَّا! إنما الضعة - إذا حرصت على استخدام هذه الكلمة – هى أن تضحى الزوجة بزوجها وطفلها من أجل عشيقها، في الوقت الذي تأكل فيه خبز هذا الزوج!".. فنكست رأسها، ولم تقل ما قالته لعشيقها في الليلة السابقة، من كونه هو زوجها، دون الزوج الحقيقي الذي صار منبوذاً من حياتها! بل لم تشعر في أعماقها بصحة هذا القول، وإنما شعرت

بعدالة غضبة زوجها وصدق كلماته.. فقالت في نعومة: " لن تستطيع أن تصف موقفى بأسوأ مما أحسه أنا! لكن ماذا تبغى؟".

- ماذا أبغى؟ أبغى أن تعلمي أنك ما دمت لم تنفذى رغبتى في شأن المحافظة على المظاهر الخارجية، فسوف أتخذ الإجراءات الكفيلة بوضع حد لهذة الحالة!

- كل شيء سينتهي قريبًا على أية حال!

وإذ جال بذهنها خاطر الموت القريب المنشود، لمعت الدموع في عينيها.. بينما استطرد هو فقال: " إنه سينتهى بأسرع مما دبّرتِ أنتِ وعشيقك، فما دمتما تصرّان على إشباع غرائزكما الحيوانية..".

- أليكسي، لن أقول لك إن هذا مسلك غير كريم منك، بل إنه مناف لشهامة الرجال أن تضرب ضحية خرت ساقطة!

- إنكِ تفكرين في نفسك فقط، أما آلام الرجل الذي كان زوجك فلا تعبئين بها! لا يهمك أن تنهار حياته كلها وتصير حطاماً!

وكان يتكلم بسرعة وحدّة جعلت أنفاسه تلهث، فأحست بالرثاء له، ولكنها لم تجد ما تقوله، فاكتفت بأن نكست رأسها ولاذت

بالصمت!.. وصمت هو بدوره برهة، ثم بدأ يتكلم بصوت أقل حدّة وأكثر بروداً: " لقد جئت لأقول لك.."، فنظرت إلى عينيه وحدَّثت نفسها: " أيمكن لمن له هاتان العينان البليدتان أن يحس أو يتألم؟".

- جئت لأقول لك إنى ذاهب غداً إلى موسكو، ولن أعود إلى هذا البيت. وسوف تصل إليك أنباء ما سوف أقرّره بعد استشارة المحامي الذي سأعهد إليه في قضية الطلاق. أما ابنى فسيذهب إلى بيت أختى.

- إنك تأخذ سريوشا لتنتقم منى، لا لأنك تحبه. دع لى سريوشا!

- صدقتِ، فلقد فقدت حتى حبى لابني، لأنه مرتبط بالنفور الذي أحسه نحوك. لكنى سآخذه مع ذلك، فوداعاً!

وهمَّ بالخروج، لكنها عاقته هذه المرة هامسة في ضراعة: " أليكسى، دع لي سريوشا! ليس عندي شيء آخر أقوله. دع سريوشا حتى يحين.. لن يطول بي الوقت حتى.. دعه لي!".. لكنه انتزع يده منها في غضب رهيب، وخرج.. دون أن يضيف حرفًا!

في اليوم التالى لوصول أليكسي إلى موسكو، لقيه مصادفة " ستيفان أوبلونسكي" شقيق " آنا"، وكانت معه زوجته " دوللى"

وأطفالهما... فدعاه الزوجان إلى تناول العشاء في ضيافتهما مساء اليوم التالي، مع نخبة من الأصدقاء، وأصرّا على دعوتهما برغم محاولته التملص منها!.

وفيما أليكسي جالس في اليوم التالي يعد أوراق قضية الطلاق ويضعها في ظرف تمهيدًا لإرسالها إلى محاميه، بعد أن اتفقا على خطة السير في الدعوى، سمع صوت " ستيفان" مشتبكًا في نقاش مع الخادم الذي يحول بينه وبين الدخول على سيده دون استئذان.

فهمس أليكسي محدثًا نفسه: " لا بأس، لعل الخير في حضوره. سأصارحه فوراً بموقفى نحو شقيقته، وأوضح له سبب اعتذاري عن تناول الطعام عنده!". ولم يلبث " ستيفان" أن دخل وهو يهتف في مرح: " كم أنا مسرور لأني وجدتك! أرجو أن..".. فقطع أليكسي كلامه قائلًا في برود، دون أن يدعوه إلى الجلوس: " لن أستطيع الحضور!".

- لِمَ لا تستطيع؟ ماذا تعنى؟.. لكنك وعدت، ونحن معتمدون عليك!

- أعنى أننى لن أستطيع تناول العشاء في بيتك، لأن أسباب الصلة التي كانت بيننا ينبغي أن تتوقَّف!

- ماذا؟ ماذا تعنى؟ ما السبب؟

- لأني شرعت في اتخاذ إجراءات الطلاق ضد شقيقتك، زوجتي!!

.. وقبل أن يكمل أليكسي عبارته، زفر ستيفان وتأوَّه ثم غاص في مقعد مريح وهو يقول ذاهلًا، وقد بدا الألم في وجهه: " كفى دعابة يا أليكسي، ماذا تقول؟"

- كما ذكرت لك..

- لا تؤاخذنى، إنني لا أستطيع تصديقك!

- لقد قادتني الظروف الحتمية المؤلمة إلى السعي في الطلاق!

- حسبى أن أقول لك شيئاً واحداً يا أليكسي: لقد عرفتك رجلًا نابهًا، قويم الخلق، كما أعرف عن " آنا" أنها امرأة رائعة طيبة، ولن أستطيع تغيير رأيى فيها. لذلك ينبغي أن تعذرني إذا لم أصدِّق كلامك. لابد أن في الأمر سوء تفاهم!

- ليته كان كذلك؟!

- ربما استطعت أن أفهم، ولكن يجب ألا تتعجل في تصرفك!

- لست أحب العجلة في أي شيء. لكن النصيحة لا تجدى في مثل هذه الأمور. لقد استقر قراري على ذلك!

- هذا فظيع! ولكن دعنى أناشدك أن تفعل شيئًا واحدًا قبل أن تقدم على شيء: قابل زوجتي وتحدَّث إليها في الأمر فهي تحب " آنا" كأخت، كما تحبك أنت، وهي امرأة حكيمة. فبربك حدثها في الأمر، امنحنى هذا الفضل.. أرجوك!

سكت أليكسي هنيهة، متردِّداً، فنظر إليه ستيفان في عطف دون أن يقطع صمته.. ثم قال يسائله: " أذاهب أنت لتراها؟".

- لست أدرى، فقد كان هذا سبب إحجامي عن زيارتكم، فإنى أحسب أن علاقتنا لابد سوف تتغير!

- ولِمَ؟ لست أرى رأيك. بل أعتقد أنك تكن لى - بغض النظر عن الصلة التي بيننا - مثل الشعور الودي والتقدير المخلص اللذين أكنهما لك. وحتى لو تحققت أسوأ افتراضاتك فلن ألوم طرفًا منكما، أو أنحاز

إلى الآخر، ولست أرى سبباً لأن تتأثر علاقتنا بشيء من هذا!.. والآن، افعل من أجلى هذا الصنيع تعال وقابل زوجتى!

- إن كلينا ينظر إلى الأمر من وجهة نظر مختلفة. وعلى أي حال، لن نتناقش في الأمر!

- ولِمَ لا؟ على كل حال ينبغي أن تحضر للعشاء معنا، فإن زوجتى تنتظرك. وهي امرأة متزنة، سوف ينفعك أن تحدثها في الأمر. فبربك تعال، إنى أستحلفك!

فقال أليكسي أخيرًا وهو يتنهَّد: " حسنًا، ما دمت تريد ذلك، فسأحضر!".

التأم شمل المدعوين في صالون بيت " ستيفان أوبلونسكي" منذ الغروب، ولم يبق غائبًا منهم غير " ليفين".. فلما حضر بعد قليل أخذه ستيفان من ذراعه وقدَّمه لأليكسي على اعتبار أن الأخير شخصية بارزة يسر الجميع أن يتعرفوا إليها. لكن ليفين لم يكن ليلتئذ في حالة تسمح له بسرور التعرف إلى أحد!.. فقد كانت أفكاره كلها تحوم حول " كيتى"، شقيقة ربة الدار، ولم يكن قد رآها منذ الليلة

التي التقى فيها بفرونسكي لأوَّل مرة، في دار أسرتها! وقد استنتج حين دعاه ستيفان إلى العشاء أنه سوف يرى كيتى بين الحاضرين، ومع ذلك وطَّن نفسه على احتمال أن لا يراها.

فلما أسر ستيفان إليه عند دخوله أنها موجودة، شعر بمزيج من البهجة والذعر، حتى لقد لهث قلبه بين ضلوعه من فرط الانفعال!

وكانت كيتى لا تقل عنه انفعالًا وترقّباً، فلما دخل القاعة شعرت هي الأخرى بمزيج من الغبطة والقلق، واحمر وجهها، ثم شحب، ثم احمر كالقرمز، واختلجت شفتاها.. حتى لقد خشى أهلها المتابعون للموقف أن تفقد سيطرتها على أعصابها فتجهش بالبكاء!.. فلما دنا ليفين منها انحنى لها ومد يده، دون أن يتكلم.. وفيما عدا الاختلاجة الخفيفة في الشفتين، والندى اللامع في العينين، كانت ابتسامتها هادئة وهي تقول له: " منذ متى لم ير أحدنا الآخر؟".. ثم ضغطت يده بيدها الباردة في حركة يأس، وأدارت رأسها الصغير الجميل نحوه، وابتسمت. وبرغم أن عبارتها لم تنطو على معنى غير عادي فقد أحس ليفين في كل نبرة من صوتها، ورعشة من شفتيها، ونظرة من عينيها،

توسلًا من أجل الصفح وثقة في شخصه، ورقة ناعمة خجلى، بل ووعدًا وأملًا وحبًّا له.. الأمر الذي أغرقه في فيض من السعادة الغامرة!

ودون أن يلفت " ستيفان" الأنظار، بل دون أن ينظر حتى إلى الشاب أو الفتاة، أجلسهما متجاورين، كأن ليس في المكان مقاعد أخرى خالية!.. وكانت السهرة ناجحة من كل وجه، والمأدبة فاخرة الطعام والشراب، والجماعة جذَّابة الحديث. وفي غرفة منعزلة التقى أليكسي ودوللى، فابتدرت الأخيرة ضيفها الكبير قائلة له وعلى فمها ابتسامة مشفقة: " يسرنى أنك حضرت.. فلتجلس هنا، فإن لي معك حديثًا".. فجلس بجانبها وهو يبتسم في تكلف، وعلى وجهه تعبير ينم عن عدم المبالاة، ثم أجابها بقوله: " إن هذا من حسن حظي، ولا سيما أنى كنت معتزمًا الاعتذار والتخلّف، لأني مسافر غداً!".

وكانت دوللي واثقة من براءة آنا، فشحب وجهها، وبدأت شفتاها تختلجان غضبًا لمرأى وجه أليكسي الجامد، الخالي من الشعور، ثم قالت له في عزم يائس وهي تواجهه بنظرة ثابتة: " أليكسي.. لقد سألتك أمس حين التقينا كيف حال " آنا"، لكنك لم تجب.. فماذا هنالك يا ترى؟".

- إنها فيما أعتقد بأتم خير!

- اغفر لى يا أليكسى هذا الفضول، فليس من حقى أن أسألك. لكنى أحب زوجتك حبى لشقيقتى، وأقدّرها.. ومن ثم أرجو منك، بل أتوسَّل إليك، أن تصارحنى بما شاب العلاقة بينكما؟ أي خطأ تنسبه إليها؟

تجهم وجه أليكسي، ونكس رأسه وكاد يغمض عينيه، ثم قال: " أحسب أن زوجك حدّثك عن مدى التطوّر الذي وصلت إليه العلاقات بيني وبينها". فقالت له: " لكنى لست أصدِّق شيئًا من ذلك. لست أصدقه البتة!". فقال في هدوء: " إن الإنسان لا يستطيع أن يكذب الحقائق يا دوللى!".

- ولكن ماذا فعلت هي.. ماذا فعلت بالضبط؟

- ضحت بواجباتها، وخانت زوجها.. هذا ما فعلته!

- كلا! هذا غير ممكن!.. أنت لا بد مخطىء!

ووضعت دوللي يديها على صدغيها وهي تتكلم، وأغمضت عينيها، فابتسم أليكسي في برود، قاصدًا أن يُظهر لمحدثته ولنفسه، مبلغ اقتناعه بما يقول.. لكن هذا الدفاع الحار عن زوجته، وإن لم يزعزع

يقينه، كان قد نكأ جرحه.. فبدأ يتكلم بحرارة أشد وهو يقول: " من الصعب أن يخطئ المرء حين تكون الزوجة نفسها هي التي صرَّحت له بخطيئتها، وبأن ثمانية أعوام من حياتها، وفلذة من كبدها، كانت كلها خطأ جسيمًا، وبأنها تبغى أن تبدأ حياتها من جديد!".

- " آنا" هي التي صرَّحت بخطيئتها؟ لست أستطيع أن أصدِّق ذلك!

.. وعندئذ قال أليكسى وهو يواجه محدثته لأول مرة بنظرة مباشرة، إلى وجهها الرقيق المضطرب: " ليتنى أستطيع أن أشك في الأمر.. فعندما كنت مرتابًا فيه كنت تعساً، لكن ذلك كان خيراً من حالى الآن. كانت عندي بقية من أمل، أما الآن فلم يبق ثمة أمل على الإطلاق! ومع ذلك فما زلت أرتاب في كل شيء، إلى حد أنى أمقت ولدى، وأحياناً أشك في أنه ابني!.. إنى شقى كل الشقاء!".

ولم يكن في حاجة إلى أن يقول هذا، فقد قرأته دوللى على وجهه، فرثت لحاله.. وبدأ إيمانها ببراءة صديقتها يتزعزع! لكنها عادت تقول: " إن هذا لفظيع! ولكن، أو تعتزم أنت الطلاق حقًّا؟".

- نعم، فلم يبق أمامى مخرج آخر!

فقالت دوللى والدموع في عينيها: " لم يبق أمامك مخرج آخر! أوه، لا تقل هذا!".. فقال: " إن أفظع ما في الكارثة التي من هذا النوع أن الإنسان لا يستطيع فيها - كما في خسارة المال، أو الموت - أن يحتمل مصيبته في سكينة، وإنما لا بد له من أن يتخذ خطة إيجابية يخرج بها من الوضع الذليل الذي وُضع فيه!".

- أفهم ذلك، أفهمه جيداً.. ولكن، انتظر قليلًا: أنت رجل متدين.. فكِّر فيها، وفيما عساه يكون من أمرها إذا نبذتها!

- لقد فكَّرت في ذلك، فكرت فيه مليّاً. هذا ما فعلته تمامًا حين كاشفتني بمذلتى. تركت كل شيء على حاله، ومنحتها فرصة الرجوع عن غيها.. حاولت أن أنقذها! ولكن ماذا كانت النتيجة؟ أنها لم تعبأ بمراعاة أبسط الأشياء.. فماذا في وسعى أن أفعل؟!

- أي شيء.. ما عدا الطلاق وما هو هذا الشيء؟.. كلَّا، هذا فظيع: أن لا تغدو زوجة لأحد، إنها سوف تهلك!

فقال أليكسي وهو يهز كتفيه ويرفع حاجبيه: " وماذا أصنع؟".. ثم أضاف وهو ينهض: " أنا شاكر لك عطفك واهتمامك، لكني يجب أن أنصرف الآن"، فصاحت به هاتفة في انزعاج: " كلَّا، انتظر لحظة. لا تقضِ عليها. أعطها فرصة أخرى.. ولأحدثك عن نفسي: كنت متزوجة، وخانني زوجي، فقرَّرت في نوبة غضبي وغيرتي أن أدمر كل شيء. لكني عدت إلى صوابي في اللحظة الأخيرة. ومن الذي هداني وأنقذني؟ إنها " آنا" نفسها!.. وهأنذا سعيدة بأولادي وبزوجي الذي تاب وندم على حماقته. وقد صفحت عنه، وأنت ينبغي أن تصفح أيضاً!".

أصغى أليكسي إليها، لكن كلماتها لم تؤثر فيه، فقال بصوت صارخ مرتفع، ينضح بالكرامة: " أنا أصفح؟ كلَّا! لست أستطيع، ولا أريد.. بل أعتبر الصفح هنا غلطة كبرى. لقد بذلت كل شيء من أجل هذه المرأة، لكنها نبذته جميعه وألقت به في الوحل الذي نبتت منه!.. وأنا لست رجلًا حقودًا وما كرهت في حياتي إنسانًا، لكني أكرهها هي الآن من كل قلبي، ولا أستطيع أن أغفر لها الشر الجسيم الذي فعلته بي!".. فناشدته دوللى هامسة، مرددة وصية المسيح: " أحبوا أعداءكم..

أحسنوا إلى مبغضيكم!".. لكن أليكسي ابتسم في اشمئزاز، ثم أردف قائلًا: " قد يستطيع الإنسان أن يحب كارهه، أما أن يحب المكروه، فهذا مستحيل!".

ثم تمالك نفسه، ونهض فودَّع دوللى.. وانصرف في هدوء!

على أثر نهوض المدعوين من مائدة الطعام أراد ليفين أن يخلو إلى كيتى، فتبعها إلى حيث جلست إلى إحدى الموائد الخضراء تعبث بقطعة من الطباشير الملون.. وابتدرها قائلًا: " لقد طالما أردت أن أسألك سؤالًا واحداً".. فرفعت إليه عينيها متسائلة، وعلى شفتيها ابتسامة رقيقة، بينما تناول هو قطعة الطباشير وكتب بها هذه العبارة: " عندما قلت لى إن الأمر مستحيل، هل كان قصدك أنه مستحيل وقتئذ فقط، أم على الدوام؟".

توردت وجنتاها خجلًا، لكنها تمالكت نفسها بعد هنيهة وعادت الابتسامة إلى شفتيها، ثم تناولت منه قطعة الطباشير وكتبت مجيبة عن سؤاله: " كان قصدى يومئذ على الدوام"، فلم أكن أستطيع أن أقول غير ذلك. أما الآن فالأمر مختلف!".. فقال لها مغتبطاً: " إذن

فالأمر غير مستحيل الآن؟!".. فأومأت برأسها موافقة. ثم تناولت قطعة الطباشير وهي تقول له: " اقرأ هذه العبارة"، ثم كتبت: " هل في وسعك أن تنسى، وتصفح عما حدث؟"، فقال لها على الفور: " ليس عندي ما أنساه أو أصفح عنه!".

وحين آن أوان الانصراف، كان الاثنان قد تبادلا التفاهم على كل ما يشغل بالهما.. فأكَّد هو أنه يحبها، وأكدت هي أنها تحبه، وأنها ستخبر أباها وأمها بأنه سيزورهم في صباح الغد!

ولم ينم ليفين ليلتها!.. وفي الصباح الباكر حف إلى دارها فوجد باب الزائرين ما يزال مغلقًا، فعاد أدراجه إلى فندقه وهو يتملى جمال الطبيعة في البكور، ويرقب الحمائم الجميلة وهي تهبط من أعشاشها إلى أرصفة الشوارع لتلتقط حبات الحنطة.. وقبيل الظهر استقل الشاب زحافة حملته إلى دار آل شرياتسكى، حيث استقبله الخدم في شوق ولهفة، وقد بدا في نظراتهم المرحبة أنهم " فهموا - ما هنالك"!.. ثم جلس ينتظر مشفقاً إقبال حبيبته التي ركَّز فيها كل سعادته، بل حياته كلها.. وما لبثت أن أقبلت عليه في خطى خفيفة طائرة، فلم ير غير عينيها الصافيتين الصادقتين، يشيع فيهما ذات

الحب المبارك الذي يغمر قلبه هو.. ووقفت بجانبه، وأراحت يديها على كتفيه في خجل ونشوة، فأحاطها بذراعيه.. وسرعان ما تلاقت شفاههما في قبلة نمت عن حبهما المتبادل المكين.

وكانت هي أيضاً لم تنم ليلتها، وبقيت تنتظره حتى الصباح لتخبره بأنها خاطبت أبويها في الأمر فوافقا من فورهما مرحبين. ثم جذبته من ذراعه وقالت له في مرح كمرح الأطفال: " هيا بنا، إن أمي في انتظارنا". وحاول هو أن يقول شيئاً، لكنه أشفق أن يفسد عاطفته بكلمة! وأحس أن دموع الفرح تتزاحم في عينيه، فتناول يدها وطبع عليها قبلة، ثم قال أخيرًا بصوت مختلج: " أيمكن أن يكون هذا صحيحًا؟ لست أصدق أن تحبيني أيتها العزيزة الغالية".. فابتسمت منتشية بعذوبة عبارته و نظرت إليه، ثم أجابته مطمئنة:

- نعم! نعم أيها العزيز، وإنى لسعيدة كل السعادة!

ثم قادته من ذراعه إلى أمها، فقبلتهما والدموع في عينيها، وهتفت بهما: " إذن فقد تفاهمتما؟ إنى مسرورة يا كيتي. وأنت يا ابنى، فلتحببها على الدوام!". وقال الأب متظاهرًا بعدم التأثر، وإن لمح

ليفين الدمع يرطب عينيه: " إنكما لم تضيعا وقتاً فيما أرى. لقد طالما تمنيت أنا هذه النتيجة، حتى عندما توهَّمت هذه الحمقاء الصغيرة أنها.."... فبادرت كيتي إلى وضع يدها على فمه حتى لا يتمّ عبارته. فابتسم وقال: " حسنًا حسنًا، فلأصمت. إني لسعيد جدًّا.. أوه، كم كنت غبياً!".. وقبَّل كيتي: قبل وجهها، ويديها، ثم وجهها مرة أخرى. ورسم علامة الصليب على صدرها، فانحنت كيتي على يده الجافة المعروقة وطبعت عليها قبلة رقيقة شاكرة!.

-15-

عاد أليكسي إلى غرفته بالفندق فوجد في انتظاره برقية من " آنا" تقول فيها: " إني أحتضر! أرجو منك، بل أتوسل إليك أن تحضر، كي أموت ميتة أسهل، بعد صفحك!".

وابتسم أليكسي في احتقار وهو يطوى البرقية، وقال محدثاً نفسه: " إنها حيلة مفضوحة، وأكذوبة لن تنطلى على!.. ولكن تُرى ما غرضها؟ إن موعد وضعها طفلها قد اقترب، فهل فاجأتها الساعة قبل أوانها؟ وهل تبغى بحيلتها هذه أن أعترف بأبوة المولود، أم تراها تريد أن تساومنى كى أعدل عن الطلاق؟.. لكن هل هي تحتضر حقّاً؟ وهل جعلها شبح الموت تندم وتتوب؟ لو أن ذلك كان صحيحًا ولم أستجب لدعوتها، فإن هذا يعد غباء وقسوة منى!".. ثم نادى خادمه " بيوترى" وقال له: " ادع لى عربة، فإنى عائد توًّا إلى بطرسبرج!". لقد قرر أن يذهب ليرى زوجته، فإن وجد الأمر خدعة عاد أدراجه من فوره، وإن كانت مريضة وفى حالة خطرة حقّاً، وقد أرادت أن تراه قبل

موتها، صفح عنها - إن كانت ما تزال حية - أو شيع جنازتها في موكب ملائم، إذا وصل بعد فوات الأوان!

ولم يفكِّر طول الطريق فيما عساه أن يفعل بعد وصوله. وقد وصل به القطار إلى بطرسبرج وضباب البكور يغلف المدينة بغلالة تحجب معالم الأشياء، ولا تدع غير أشباحها. وفيما كانت العربة تدرج به في الطرقات المؤدّية إلى داره، لم يستطع منع نفسه من التفكير في احتمال ألح على خاطره: " إن موتها يحل الموقف المعقّد الذي بات يكتنف حياتهما!".. وتتابعت أمام بصره أشباح الحوانيت المغلقة، والمخابز، والكناسين.. وخلال ذلك لم يكف عن التفكير في الخاطر الذي جرؤ – ولم يجرؤ، في الوقت عينه – على أن يتمناه!. وفيما هو يجتاز مدخل البيت، بُعث عزمه الخائر من مرقده – في أعمق ركن من رأسه – ونصبه أمامه مخلوقاً سويّاً، ماثلًا للعيان، ثم خاطبه قائلًا: " إن كان الأمر خدعة، فاعتصم بالهدوء المنطوى على الاحتقار، وارحل من حيث جئت. وإن كان الأمر حقيقة، فافعل ما ينبغي فعله!".

وفتح له الحارس الباب قبل أن يدق الجرس، فسأله:

- كيف حال سيدتك؟

- وضعت مولودها بالسلامة أمس!

فتوقَّف أليكسي كمن سمرت قدماه، وشحب وجهه كالأموات! لقد أدرك لِمَ كان يتمنى موتها!، لكنه عاد فسأل الخادم: " وكيف حالها؟". فقال الخادم حزينًا: " سيئة جدًّا يا سيدى، وقد اجتمع الأطباء للتشاور في أمرها أمس. ويوجد أحدهم عندها الآن!".. وهنا شعر أليكسى بشيء من الارتياح! لبقاء الأمل في موتها، ثم دلف إلى الردهة الداخلية. وحانت منه نظرة إلى المشجب فإذا عليه معطف عسكري.. فسأل الخادم: " من هنا؟"، فقال: " الطبيب والقابلة.. والكونت فرونسكى!".

ولم يكن هو في حاجة إلى أن يسمع هذا الجواب، فمضى إلى مخدع زوجته. وفي الغرفة الخارجية الملحقة بالمخدع التقى بالقابلة، فأخذت بذراعه وهمست له وهي تقوده نحو مخدع الوالدة: " حمدًا لله لكونك قد جئت. إنها تهذي باسمك بغير انقطاع، ولا شيء غير اسمك!". وسمعا صوت الطبيب ينادي من الداخل: " أسرعي بالثلج فوراً!"، فمضى أليكسي إلى مخدع زوجته.. وكان أول من رآه قرب

الباب غريمه " فرونسكى"، جالسًا على مقعد منخفض وقد أخفى وجهه بين يديه وانخرط في بكاء صامت، فلما سمع صوت الطبيب نهض ليلبي طلبه، وإذ فوجئ برؤية الزوج عراه الاضطراب فغاص في مقعده من جديد ودفن رأسه بين كتفيه، كأنما أراد أن يختفى عن ناظريه.. ثم بذل مجهودًا حتى تمالك نفسه فنهض وقال للزوج: " إنها تحتضر، والأطباء يقولون: ليس هناك أمل!.. إنى تحت رحمتك تمامًا، لكني أرجو أن تدعنى هنا.. إنى رهن تصرفك.. إنى..".

وإذ رأى أليكسي دموع غريمه، أحس بوادر تلك الفورة العاطفية التي تنتابه لدى رؤية دموع الآخرين ومظاهر آلامهم، فأشاح بوجهه عن محدثه ومضى بدون أن يسمع بقية كلامه، متجهًا إلى فراش آنا، وكانت هي في تلك اللحظة تهمس بطلب شيء. كانت راقدة على ظهرها وقد اتجهت بوجهها إلى جانبها، وكانت وجنتاها محتقنتين بلون القرمز، وعيناها تلمعان، ويداها الصغيرتان الشاحبتان تعبثان باللحاف فتنقبضان عليه وتتقلصان ثم تنفرجان.. وقد أخذت تهمس بصوت خافت واضح ولهجة سريعة: " إنى أقصد أليكسى زوجي. إنه لن يرفض رجائى. ينبغى أن أنسى، إنه لا بد أن يصفح. ولكن لم يأت

إنه طيب، طيب إلى درجة لا يعلمها هو ذاته!.. آه يا إلهى، أي عذاب هذا؟!.. أعطونى ماء، أسرعوا! أوه، هذا سوف يضرها، ابنتي الصغيرة!.. حسنًا، أعطوها إذن لممرضة. نعم، أنا موافقة. هذا أفضل في الواقع. إنه سيأتى، وسوف يؤلمه أن يراها.. أعطوها للممرضة!".

وقالت لها القابلة: " آنا.. لقد جاء، هذا هو!".. فأجابتها وهي لا ترى زوجها: " هراء! كلَّا! أعطوني إياها، أعطوني صغيرتي.. إنه لم يأت بعد.. تقولون إنه لن يأتى؟ إنكم لا تعرفونه. لا أحد يعرفه غيرى، وقد قاسيت طويلًا حتى عرفته على حقيقته. إنى أعرف عينيه، وقد ورث سريوشا عنهما نظراته، لذلك لا أطيق أن أراها. هل تناول سريوشا غذاءه؟ أعلم أن الجميع سوف ينسونه، لكنه هو لن ينساه. يجب أن يُنقل سريوشا إلى الغرفة التي في الزاوية، وقولوا ل- " مارييت" أن تنام معه!".. وهنا وقعت عينها على أليكسي، فأجفلت وارتدَّت في فراشها مذعورة.. ثم رفعت يديها إلى وجهها في فزع كأنما لتدرأ عن نفسها ضربة قاضية! وأخيرًا هتفت قائلة " لا، لا.. لست خائفة منه، إنى خائفة من الموت. أليكسي، تعال هنا، إنى متعجلة، لا وقت عندى

أضيعه. لم يبق أمامى غير وقت قصير أحياه. ستبدأ الحمى حالًا ولن أعود أفهم شيئاً. لكني الآن في وعيى، أفهم كل شيء وأرى كل شيء!".

واكتسي وجه أليكسي المغضن بطابع النزع، فتناول يدها وحاول أن يقول شيئًا، لكنه عجز عن أن ينطق به، فاختلجت شفته السفلى، وظل يصارع عاطفته – وهو ينظر إليها بين لحظة وأخرى - فيرى في كل مرة عينيها تحدِّقان فيه في لطف ورقة بالغين لم يكن له عهد بهما من قبل. وما لبثت أن خاطبته، في صوت متقطِّع، قائلة: " انتظر لحظة. أنت لا تعرف. أمكث قليلًا، أمكث.. نعم، نعم، نعم. هذا ما أردت أن أقوله، ولا تدهش له. إنى ما زلت كما كنت، لكن هناك امرأة أخرى في داخلي، وأنا خائفة منها. إنها أحبت ذلك الرجل، وأنا حاولت أن أكرهك، لكني عجزت عن نسيانها.. إنى لست تلك المرأة.. أنا الآن على حقيقتي. إلى الآن أحتضر، أعلم أنى سأموت. اسأله.. إنى أشعر.. انظر هنا، ها هي الأثقال على قدمي، على يدى، على أصابعي. انظر كم هي ضخمة أصابعي!.. لكن هذا كله لن يلبث أن ينقضى. شيء واحد أريده: اغفر لى، اغفر لي تمامًا.. إنى مخطئة، لكن الممرضة تقول لى.. الشهيدة المقدسة، ماذا كان اسمها؟ كانت أسوأ منى، وأنا سأذهب إلى

روما. هناك توجد أحراش، وهناك لن أضايق أحداً.. فقط سآخذ سريوشا والصغيرة معى.. كلَّا، إنك لا تستطيع أن تغفر لي! أنا أعلم، إنه شيء لا يُغتفر!.. كلا، كلا، اذهب بعيداً، إليك عنى.. أنت طيب أكثر مما ينبغي!..

وأمسكت بيده في إحدى يديها الملتهبتين من الحمى. بينما راحت تدفعه عنها باليد الأخرى!.. وكان انفعال أليكسي العصبى آخذًا في الازدياد، حتى بلغ درجة عجز معها عن مقاومته، ثم أحس أن انفعاله تحوَّل إلى سكينة مباركة منحته فجأة سعادة لم يكن له عهد بها طيلة حياته!.. لم يعد يشعر بأن أحكام الدين هي التي تطالبه بأن يصفح عن أعدائه ويحبهم، بل أحس أن الصفح والحب يملآن قلبه دون أن يفرضهما عليه عامل خارجى.. فجثا على ركبتيه وأمسك يد " آنا"، وألصق جبينه بذراعها المتقدة بحرارة الحمى.. ثم راح ينشج باكيّاً، كطفل صغير! وأحاطت هى رأسه بذراعها، ثم زحفت بجسمها نحوه ورفعت عينيها في كبرياء وتحد، وقالت: " هذا هو. إنى أعرفه. والآن فلتصفحوا عنى جميعكم، واحداً واحداً، وأنت، تذكَّر شيئاً واحدًا: هو أنى لا أريد غير الصفح، ولا شيء غيره. لِمَ لا يأتى هو؟".. وأدارت

عينيها نحو الباب، نحو فرونسكي، ثم أضافت: " تعال، تعال. أعطه يدك"!.. وأقبل فرونسكي إلى جوار الفراش، فلما التقى بصره بآنا أخفى وجهه بين يديه، فهتفت به: " اكشف وجهك، انظر إليه. إنه ملاك. أوه، اكشف وجهك، اكشف وجهك. أواه يا أليكسي، اكشف وجهه! أريد أن أراه!".. فأخذ أليكسي يدى فرونسكي في يديه وأبعدهما عن وجهه، الذي كانت ترتسم عليه أبشع تعبيرات الذعر والعار، وإذ ذاك ناشدت " آنا" زوجها قائلة: " أعطه يدك. اصفح عنه!".. فمد أليكسي إليه يديه، دون أن يحاول قمع الدموع التي هطلت من عينيه، واستطردت هي تقول: " حمداً لله.. حمداً لله..!.. الآن صار كل شيء معداً. لم يبق غير أن أمد ساقى قليلًا. هكذا، هذا أفضل. ما أسوأ رسم هذه الزهور، إنها لا تشبه البنفسج في شيء. يا إلهى، يا إلهى، متى سينتهى كل شيء؟ أعطنى حقنة " مورفين" يا دكتور. أعطنى حقنة مورفين. أوه، يا إلهى.. يا إلهى!".. ومضت تتأوَّه وتتقلَّب في الفراش. إنها حمى النفاس، فيما قال الأطباء، وهي تنتهى بالموت في تسع وتسعين حالة من كل مائة!.. واستمرت الحمى، والهذيان، والغيبوبة، تتتابع على المريضة طيلة اليوم. وفي منتصف الليل فقدت المريضة

وعيها تمامًا، وضعف نبضها حتى كاد لا يُسمع.. وبدت النهاية متوقعة!

وانصرف فرونسكي إلى بيته.. وفي الصباح عاد ليستفسر عن ألحالة، فقال له أليكسى: " يحسن أن تبقى، فقد تسأل عنك".. ثم قاده بنفسه إلى حجرة الزينة الملحقة بالمخدع!

وفي اليوم الثالث تكرَّر الهذيان، وفقدان الوعى، وقال الأطباء إن هناك بصيصًا من الأمل!.. وفي ذلك اليوم توجَّه أليكسي إلى حجرة الزينة حيث جلس فرونسكى، ثم أغلق الباب وجلس في مواجهته.. فابتدره هذا وقد توقَّع أن يفاتحه الزوج في حل للموقف: " أليكسي، أنا عاجز عن الكلام، عاجز عن الفهم، فجنبنى كل ذلك الآن. ومهما يكن الأمر قاسيًّا عليك فصدقنى إنه أكثر فظاعة بالنسبة لى!".. وهمّ بالنهوض، لكن أليكسى جذبه من يده وقال له " أتوسل إليك أن تصغى إلى، فهذا ضروري. يجب أن أوضح مشاعري، المشاعر التي أملت على تصرفاتي وسوف تمليها علىَّ، كيلا تقع في خطأ يتصل بي. أنت تعلم أننى اعتزمت الطلاق، بل شرعت في اتخاذ إجراءاته، ولا

أخفى عليك أني حين بدأت السير في هذا السبيل كنت فريسة لشك وشقاء مروعين، تحدوني الرغبة في الانتقام لنفسي، منك ومنها. وحين تلقيت برقيتها جئت إلى هنا تتملكنى هذه المشاعر نفسها، بل أعترف بأني كنت أتمنى موتها!".

وتردَّد برهة، حائراً بين الإفضاء بجلية مشاعره أو كتمانها، ثم استطرد فقال: " لكني رأيتها، وصفحت عنها!.. وأرشدتنى سعادتي بالغفران إلى واجبي الذي ينبغي أن أؤديه. إنى أغفر غفراناً كاملًا، بل إنى على استعداد لأن أدير خدى الآخر لمن صفعنى! وكل ما أصلى إلى الله من أجله هو ألا ينزع منى بركة الغفران!".. وتحجرت الدموع في عينيه، وأثَّرت نظرته البرَّاقة الصافية في نفس فرونسكى، بينما استطرد هو فقال: " هذا هو موقفى. وفي استطاعتك أن تمرغنى في الوحل، وتجعلني أضحوكة العالم بأسره، لكني لن أنبذها، ولن أتوجَّه إليك يوماً بكلمة لوم! إن واجبي واضح أمامي كالشمس، ينبغى أن أبقى بجانبها، وسأبقى.. فإذا أرادت أن تراك فسوف أخبرك برغبتها. أما الآن فأعتقد أنه يحسن بك أن تذهب بعيداً!"..

ونهض، وقد قطعت غصته الكلمات في حلقه، و نهض فرونسكى في أثره، عاجزًا عن فهم مشاعر أليكسي، وإن أحس أنها أرفع وأسمى من أن يستطيع التحليق إلى سمائها.. ثم هبط سلم الدار ووقف عند مدخلها: لم يذكر إلا بصعوبة أين هو؟ وإلى أين ينبغي أن يمضى؟.. أحس نفسه ذليلًا آثمًا، مجلَّلًا بالخزي والعار، محروماً من كل أمل أو فرصة في أن يستطيع غسل مذلته!.. بل أحس أن الأوضاع قد انقلبت. أحس ضعته وزيفه هو، وسمو غريمه وصدقه!.. وبدا أليكسي في نظره رائعاً عظيماً، حتى في أساه ومحنته، بقدر ما بدا هو وضيعاً حقيراً، في خداعه!.. على أن هذا الإحساس بمذلته أمام الرجل الذي كان هو يحتقره ظلماً، من غير حق، لم يكن غير عامل ضئيل من عوامل شقائه الحاضر. فهو الآن يحس أنه تعس! إن عاطفته نحو آنا، عادت أقوى منها في أي يوم مضى! - وكان قد ظن أنها بدأت تفتر ويعتريها البرود – لقد أدرك أنه فقد " آنا" إلى الأبد. فقدها بعد أن رأى منها – في مرضها – روحها ونفسها، فبدا له أنه لم يحببها حقّاً قبل ذلك! والآن وقد عرفها كما ينبغي أن تُعرف، وأحبها كما يليق أن تحب،

ها هو يهان ويذل أمامها، بل ها هو يفقدها إلى غير رجعة، غير تارك معها من نفسه إلا ذكرى مخزية!

وأفاق من خواطره الموجعة على صوت الحارس يسأله: " أتريد زحافة يا سيِّدى؟"، فغمغم قائلًا: " نعم، أريد زحافة!". وحين بلغ بيته، بعد ليال ثلاث لم يذق فيها النوم، تمدد بملابسه فوق " كنبة" عريضة، ووسد رأسه راحتيه! لكم تثقل رأسه الصور، والذكريات، والأفكار التي تتتابع على وعيه في حدة وسرعة خارقتين!.. وحين أوشك في لحظة من اللحظات أن يغيب في إغفاءة مريحة شهية، تنبه فجأة على فحيح مخيف يهمس في سمعه ووعيه: ".. وفي استطاعتك، أن تمرغنى في الوحل!".. وتمثّل له أليكسي واقفًا أمامه، و " آنا" بوجنتيها المضرجتين، وعينيها الزائغتين الملتهبتين، ترمقان زوجها بالحب والرقة والوله!.. ثم تمثّل أليكسي وهو يمد يديه إلى راحتيه فيبعدهما عن وجهه، ليكشفه لآنا كما طلبت!.. وتقلَّب على فراشه كمن يتقلب على سعير. وهكذا أدرك أن لا أمل له البتة في أن يظفر في ليلته هذه بنعاس، أو نسيان، فقفز جالساً على حافة الأريكة وهو يغمغم في عصبية: " ما هذا؟ هل أوشك أن أفقد عقلي؟ ربما! ما الذي يفقد

الناس عقولهم؟ ما الذي يغرى الناس بإطلاق الرصاص على أنفسهم؟ هكذا ينتحر الإنسان، كى ينجو بنفسه من المذلة!"

ومضى إلى الباب فأغلقه، ثم مضى إلى منضدة فأخرج من درجها مسدساً، وتلفَّت حوله.. ثم استغرق في التفكير، في ذكريات سعادته التي فقدها إلى الأبد!.. وجعلت أفكاره تدور وتدور حول تلك الدائرة من الذكريات والصور، فمد يده بالمسدس إلى الناحية اليسرى من صدره، وشدّد قبضته عليه.. ثم جذب الزناد!

ولم يسمع صوت الطلقة، لكن ضربة عنيفة على صدره ألقته على الأرض. وحاول أن يتشبَّث بحافة المنضدة، تاركًا المسدس يسقط من يده، لكنه هوى برغم ذلك إلى أسفل، فلم يحس بنفسه إلا وهو جالس القرفصاء على أرض الغرفة ينظر إلى ما حوله في دهشة. وتنبه من ذهوله على صوت خطوات خادمه يقبل مهرولًا، فبذل محاولة لكي يستيقظ من دواره. وإذ رأى الدم على السجادة وعلى ذراعه، أدرك أنه قد أطلق النار على نفسه!.. وبرغم أن المسدس كان إلى جواره فقد بقيت يده تبحث عنه فيما حوله، دون جدوى. ثم تحامل على نفسه

وحاول أن يستند إلى جذعه كي يواصل البحث، لكنه فقد توازنه فسقط بعنف يتخبط في دمه! وذعر الخادم إذ رأى سيده على هذه الصورة، غارقاً في بركة من الدماء! فهرع إلى الخارج ينشد إسعافاً، تاركاً الجريح ينزف دمه بدون توقف. ولم تمض ساعة حتى كان الخادم قد عاد ومعه " فاريا" زوجة أخي سيده، ثم وصل ثلاثة الأطباء دعتهم " فاريا" لإسعافه في وقت واحد، فحُمل الجريح إلى فراشه حيث بقيت زوجة أخيه ساهرة عليه تمرضه و تعنى به!

-16-

لم يكن أليكسي قد عرف قلبه على حقيقته، حتى كان ذلك اللقاء الفاجع بينه وبين زوجته وهي على فراش الموت، حيث ترك العنان - لأول مرة في حياته - لذلك الشعور بالإشفاق على المتألمين، الذي كان قبل ذلك يعدّه ضعفاً مخزيًّا، غير خليق بالرجال!.. فلما انتابته تلك الشفقة على زوجته، والندم على كونه قد تمنى موتها، والفرحة الغامرة بالغفران لها والصفح عن إثمها، شعر من فوره بالخلاص من آلامه الخاصة، وبسلام نفسي وسكينة روحية لم ينعم بهما قط من قبل!.. شعر بأن الشيء الذي كان مبعث ألمه وعذابه قد بات مبعث نشوته الروحية.. وأن ما كان يبدو له غير قابل للحل – وهو في نوبة لومه وبغضه وتفكيره في الانتقام – قد أمسى بسيطاً واضحاً محلولًا من تلقاء ذاته، حين صفح وأحب!.. لكنه بمضى الزمن ازداد إدراكاً وشعوراً بأنه مهما يبدو الموقف الآن في نظره طبيعياً، فإن الظروف لن تسمح له بالبقاء على ذلك طويلًا! شعر أن هناك، بجانب القوة الروحية المباركة التي تسيطر على نفسه، قوة أخرى وحشية تضارعها

بل تزيد عليها سطوة، هي التي تسيطر على حياته.. وأن هذه القوة الأخيرة لن تسمح له بأن ينعم طويلًا بذلك السلام المتواضع الذي تاق إليه. وأحس أن كل شخص ينظر إليه في عجب وتساؤل، وأن موقفه صار في نظر الناس غير مفهوم، وأن المجتمع ينتظر منه شيئًا ما! وفوق هذا كله، أحس بمدى الزيف وعدم الاستقرار اللذين يلابسان صلته بزوجته!.. كان قد بدأ يلحظ - على أثر زوال خطر الموت عن زوجته – إنها تخافه، ولا يبدو عليها الارتياح لوجوده، فهي تتجنَّب مواجهته بنظراتها، أو مواجهة نظراته، وهي تظهر بمظهر من تريد أن تفضى إليه بشيء، لكنها لا تجرؤ أن تفعل!.. بل إنها تبدو كما لو كانت تتوقَّع منه شيئاً، وترى في لوحة الغيب أن علاقتهما الحالية لا يمكن أن تستمر!

وقرب نهاية شهر فبراير حدث أن مرضت طفلة آنا - التي أطلقت عليها بدورها اسم " آنا"! - فلما علم أليكسي بذلك في الصباح، قبل خروجه إلى عمله، أوصى باستدعاء الطبيب. وحين عاد من مكتبه، نحو الساعة الرابعة بعد الظهر، رأى في ردهة البيت خادماً في ثياب موشاة بالقصب يحمل معطفاً ثمينًا من الفراء الأبيض، فسأله: " مَن

هنا؟"، فأجاب الخادم: " الأميرة اليزابيتا فيديروفنا تفرسكوى" – وكان ذلك هو الاسم الرسمى للأميرة " بتسى"، صديقة آنا - فضايق أليكسي أن تنشغل آنا باستقبال صديقتها عن استدعاء الطبيب لفحص طفلتها المريضة، ومن ثم توجَّه من فوره إلى غرفة المائدة ودقَّ الجرس طالبًا استدعاء الطبيب فورًا. و لم يأنس من نفسه ميلًا إلى رؤية آنا أو رؤية صديقتها بتسى، لكنه خشى أن تفسر زوجته مسلكه تفسيراً مبالغاً فيه، فمضى إلى غرفتها راغمًا. وحين اقترب من الباب – المفتوح - لم يملك نفسه من أن يسمع حديثًا لم يقصد أن يسمعه. كانت بتسى تقول لزوجته:

- لو لم يذهب بعيداً، على أثر مرضك، لاستطعت أن أفهم حكمة لجوابك، وجوابه أيضاً. لكن زوجك ينبغى أن يسمو بنفسه عن هذا!

- ليس زوجي هو الذي لا يريد ذلك، بل أنا التي لست أريده.. فلا تقولى هذا!

- لكنك ينبغي أن تهتمى بتوديع رجل أطلق النار على نفسه من أجلك!

- بل إن هذا هو نفسه ما يجعلنى أحجم عن رؤيته!

ووقف أليكسي مأخوذًا، وود الرجوع من حيث أتى، لولا أنه رأى في ذلك ما لا يشرفه، فتكلَّف السعال وواصل سيره إلى داخل الحجرة، حيث كانت " آنا" جالسة على مقعد مريح، فلم تكد تراه حتى انطفأ كل تعبير في وجهها، كعادتها كلما رأته، ونظرت إلى بتسى في شيء من عدم الارتياح. أما هذه فكانت جالسة إلى جوارها وقد ارتدت أفخر أزياء الموسم، فلما رأت أليكسي حيّته بابتسامة ساخرة وهي تحنى رأسها، ثم قالت متكلَّفة الدهشة: " آه، لكم يسرنى أنك جئت، فإنك لم تعد تظهر في أي مجتمع. منذ متى لم أرك؟ منذ مرض " آنا"! و قد سمعت بما عانيته من قلق على حياتها. حقّاً إنك لزوج مثالي!". فانحنى أليكسي لتحيتها في برود، ثم قبَّل يد زوجته وسأل عن حالها، فأجابت وهي تتجنَّب نظرته: " أعتقد أنى أحسن حالًا!".

- لكن لونك يبدو كلون المحمومة؟

فتدَّخلت بتسى في الحديث قائلة: " الواقع أننا ثرثرنا كثيراً، وربما تعبت هي من الكلام. إنها أنانية من جانبي، ويحسن أن أنصرف الآن!".. ونهضت، فاحمَّر وجه " آنا" فجأة وتشبثت بيدها قائلة في

إلحاح: " كلَّا! بل أتوسل إليك أن تبقى قليلًا. إن لدى ما أريد أن أقوله لك. كلا! بل لك أنت يا أليكسي، فأنى ما عدت أبغى – ولا أستطيع – أن أكتم عنك شيئًا! كانت بتسى تقول لى إن الكونت فرونسكي يريد الحضور ليودعنا قبل رحيله إلى (طشقند)، فقلت لها إنى لا أستطيع استقباله!".

فتدخلت الأميرة مصححة قولها: " بل قلت يا عزيزتي إن الأمر يتوقَّف على أليكسي!".. فقالت آنا: " أوه، كلَّا! لا أستطيع استقباله. وأي موضوع يمكن أن؟.. بالاختصار لست أريد مقابلته!".. وهنا تقدَّم أليكسي ليتناول يدها، فكادت تجفل وتتراجع، لولا أن بذل مجهوداً، فتركت يدها له. وأردف هو قائلًا: " أنا شاكر لك ثقتك، ولكن.."، وتوقَّف في شيء من الارتباك والضيق، حائرًا بين كتمان مشاعره الحقيقية المنطوية على الحب والغفران، وبين المجاهرة بها أمام الأميرة، التي تمثل حلقة الاتصال بينه وبين المجتمع!

وتداركت الأميرة الموقف، فقالت وهي تنهض فتقبّل " أنا" في وجنتها: " حسناً، إلى اللقاء يا عزيزتي!". وحين صحبها أليكسي إلى

الباب، توقّفت وقالت له وهي تشد على يده مرة أخرى في حرارة: " أليكسي.. إنك حقّاً رجل نبيل، وأنا امرأة محايدة، لكني أحبها وأحترمك إلى الحد الذي يجعلني أجرؤ فأتوجَّه إليك بالنصح: استقبله في بيتك. إن فرونسكي نموذج للشرف، ثم إنه راحل إلى طشقند..".

فأجابها أليكسي وهو يرفع حاجبيه اعتداداً بكرامته، بحكم العادة، وإن لم ينطو موقفه في الأشهر الأخيرة على شيء من الكرامة: " أشكرك يا سيدتي على عطفك ونصحك، أما رغبة زوجتي في استقبال أي إنسان أو عدم استقباله فهذا أمر متروك لها وحدها!" ثم ودَّع بتسى عند الباب وعاد إلى زوجته، ففاجأها وهي تخفى أثر دموع في عينيها، لكنه تجاهل ذلك قائلًا لها: " أكرِّر شكري لك من أجل ثقتك بي، كما أشكرك على قرارك، فأنا بدوري أرى أنه ما دام الكونت فرونسكي يعتزم الرحيل فليس ثمة ضرورة لحضوره.. وعلى أية حال فإذا..".. فقاطعته " آنا" في انفعال لم تقو على قمعه: " لكني قلت ذلك فعلًا، فما معنى تكراره؟"، وشردت برهة تحدِّث نفسها في سخرية: " ليس ثمة ضرورة لأن يأتى رجل كى يودِّع المرأة التي يحبها، والتي دمَّر حياته من أجلها! المرأة التي لا تقوى على الحياة بعيداً عنه. ليس ثمة ضرورة البتة!"..

ثم ضغطت شفتيها وخفضت عينيها المحترقتين إلى يدى زوجها، بعروقهما النافرة، وكان يفركهما في عصبية.. وأضافت وقد استردت هدوءها: " فلنكف عن التحدّث في هذا الموضوع الآن!".

- لقد تركت الأمر لتقديرك، ويسرنى أن أرى..

- إن رغبتى تتفق مع رغبتك!

- نعم.. وإن تدخل الأميرة في دقائق هذه المسائل العائلية الشائكة لهو أمر غير مرغوب فيه، ولا سيما أنها هي بالذات..

- لست أصدِّق حرفاً من كل ما يقال عنها، وأنا أعلم أنها تحبنى حقاً!

فتنهَّد أليكسي ولم يجب، بينما بدا في حركات " آنا" وهي تعبث بطرف قميصها أنها تتوق إلى الخلاص من وجوده الذي يُثقل على صدرها.. فقال لها، مغيراً موضوع الحديث: " لقد أرسلت في طلب الطبيب، فإن الصغيرة ليست على ما يرام، ويبدو أن المرضعة ليس لديها اللبن الكافي لإرضاعها..".

- لِمَ لا تدعونى أرضعها؟ لقد طلبت ذلك فحلتم بيني وبينها.. والآن ألام على ذلك!

- لست ألومك..

- بل إنك تلومني! يا إلهى، لماذا لم أمت؟

وأجهشت بالبكاء، ثم تمالكت نفسها وقالت: " اغفر لى أن أعصابي مضطربة. إنى أتجنَّى عليك، ولكن بربك اذهب الآن!".. فغادر الغرفة محدثاً نفسه: " كلَّا، لا يمكن أن يستمر الأمر على هذا المنوال!". إنه لم يلمس من قبل بعض ما يلمسه اليوم من حرج موقفه في أعين المجتمع، وكراهية زوجته له!.. وإنه ليرى بوضوح أن الناس جميعًا، وزوجته، ينتظرون منه شيئًا ما.. أما ما هو هذا الشيء، فهذا ما يعجز عن فهمه!

لم تكد الأميرة بتسى تبلغ الباب الخارجي حتى لقيها عنده ستيفان أوبلونسكي، وكان قادماً لزيارة شقيقته، فوقفا برهة يتحدثان في أمرها. وقالت بتسى: " إنه يقتلها. هذا مستحيل، مستحيل!".

- يسرني أنك ترين مثل ما أرى، وهذا ما جعلني أحضر إلى بطرسبرج لأراها!

- إن المدينة بأسرها تتحدَّث بهذا الأمر. موقف " مستحيل!".. إنها تذبل رويداً رويدًا كل يوم، وهو لا يستطيع أن يفهم أنها امرأة حساسة لا تستطيع تجاهل مشاعرها.. واحد من أمرين: إما أن يدعه يأخذها بعيداً، ويتصرف في حزم ونشاط، وإما أن يمنحها الطلاق.. أما هذا الوضع فلن يؤدي إلا إلى قتلها!

- نعم، نعم، هذا صحيح.. وهذا ما جئت من أجله! حسناً!

- حسنًا، فليوفقك الله!

ثم مضت الأميرة إلى الخارج، بينما مضى ستيفان إلى مخدع شقيقته، فوجدها غارقة في دموعها! وأثر فيه حزنها فسألها متلطفًا عن حالها، وكيف قضت يومها، فقالت له: " على أسوأ حال من البؤس.. اليوم وجميع الأيام الماضية، والأيام المقبلة!".. فقال: " أعتقد أنك تستسلمين للتشاؤم. يجب أن تقاومي، وتنعشي نفسك وتواجهي الحياة.. أعلم أن هذا عسير ولكن ولكن..".

- يقولون إن النساء يحببن في الرجال حتى رذائلهم.. وأنا أكره فيه فضائله! لست أطيق العيش معه. أتفهمني؟ إن رؤيته وحدها تحدث فيَّ نفورًا. لا أستطيع أن أعيش معه! لكن ماذا أفعل؟ لقد كنت شقية، وكنت أعتقد أن الإنسان لا يمكن أن يكون أكثر شقاء مما كنت، لكن الحالة الفظيعة التي أجتازها الآن تفوق كل ما تصوَّرت! أتصدق أني أكرهه برغم علمي بأنه رجل طيب، بل رجل رائع، وأنى لا أساوى أصبعًا من أصابعه؟ إننى أكرهه بسبب كرمه، ولا أرى أمامي سبيلًا غير..

وكادت تقول: " الموت".. لولا أن قطع شقيقها كلامها قائلًا: " إنكِ مريضة مرهقة الأعصاب. وأنت تغالين مغالاة شنيعة في أمر هو أهون كثيراً مما تظنين!" ثم ابتسم ستيفان، ولو فعلها شخص غيره لعد ابتسامه في موقف كهذا قسوة جارحة، لكن ابتسامة ستيفان كانت من العذوبة والنعومة بحيث تداوى ولا تجرح، وكأنها بلسم لطيف الوقع. وسرعان ما أحست " آنا" بهذا الشعور عينه، فقالت وقد خفَّت حدة انفعالها: " كلَّا يا ستيفان.. إنى ضائعة، ضائعة، بل أسوأ من ضائعة!.. إنى مثل وتر مشدود يوشك أن ينقطع. وسوف تكون نهايته مخيفة!"

- فلنحاول أن نرخيه شيئاً فشيئاً.. فليس ثمة مأزق لا مهرب منه!

- لقد فكَّرت وفكرت طويلًا في مخرج، فلم أجد غير حل واحد هو..

ومرة أخرى أدرك من عينيها المذعورتين أن المخرج الذي تعنيه هو الموت، فحال بينها وبين أن تفصح عنه، بأن قطع كلامها بقوله: " هذا هراء! إصغى إلى. إنكِ لا تستطيعين أن ترى موقفك مثلما أراه أنا، فدعيني أصارحك برأيى".. وابتسم مرة بأخرى ابتسامته الشبيهة ببلسم ملطف، ثم أردف: " دعينى أبدأ من حيث بدأت المشكلة. لقد تزوجت من رجل يكبرك بعشرين عاماً تزوجته عن غير حب، بدون أن تعرفي ما هو الحب وكيف يكون!.. وكانت هذه غلطة، فلنعترف بالأمر الواقع..".

- بل غلطة فظيعة!

- دعينى أتم كلامي: ثم حدث أنكِ - لسوء الحظ - أصبت بحب رجل آخر غير زوجك، وعلم الأخير بالأمر وصفح عنك. والسؤال الذي يواجهنا الآن هو: هل في مقدورك مواصلة العيش مع زوجك؟ وهل تريدين ذلك؟ وهل يريده هو؟

- لست أدرى.. لست أدرى!

- لكنك قلت بلسانك: إنك عاجزة عن احتمال ذلك!

- كلا، لم أقل هذا. أنا أنكر ذلك.. ولست أستطيع أن أقرِّر شيئًا. لست أدرى شيئاً في هذا الشأن!

- ولكن دعينا..

- إنك لا تفهمني: أحس كأني راقدة في هاوية، لست أقوى على الخلاص منها!

- لا بأس، في وسعنا أن نُلقى إليك في القاع بشيء تتشبثين به، ثم نجذبك إلى السطح. إنى أفهمك تمامًا. أفهم أنك لا تجرؤين على تحمل مسئولية الإفصاح عن رغباتك ومشاعرك!

- لست أريد شيئًا، لست أريد شيئًا غير أن أستريح من كل هذا!

- لكنه يرى هذا ويعرفه، ولا تحسبى أن الأمر لا يثقل عليه مثلما يثقل عليك. كلاكما تعس.. لكن ما النتيجة؟.. ليس هناك غير الطلاق حلًّا يكفل حل هذه المشكلة المستعصية!

وهكذا أفصح ستيفان عن رأيه في الموضوع، ثم نظر إليها نظرة ترقب ذات معنى.. لكنها لم تجب، فاستطرد قائلًا: " لكم أنا مشفق عليك! ولكم يسعدني لو استطعت أن أجد لك مخرجاً من مأزقك. كلَّا! لا تنطقى بكلمة، فالله يشهد أني أتكلم بوحى من شعوري الصادق. إنى ذاهب لأقابله!"

ونظرت " آنا" إليه بعينين حالمتين مشرقتين، ولم تقل شيئًا!

ومضى ستيفان إلى غرفة أليكسي وقد ارتسم على وجهه التعبير الصارم الذي يتخذه حين يجلس إلى مقعد الرئاسة في عمله، وكان أليكسى يذرع الغرفة ذاهباً آيبًا وقد عقد يديه خلف ظهره واستغرق في التفكير. كان يفكِّر في الموضوع نفسه الذي كان ستيفان يتحدَّث فيه إلى " آنا"! وإذ رأى ستيفان على محياه علائم الضيق " المؤدب" بلقائه، ابتدره قائلًا: " أرجو ألا أكون قد أزعجتك؟"

- كلا.. هل تريد شيئًا؟

- نعم، أردت.. أردت.. نعم، أردت أن أتحدَّث إليك.. وأرجو أن تثق مقدمًا في حبي لشقيقتى، وإعجابي المخلص - واحترامي - لك!

وقف أليكسي بلا حراك، ولم يجب بحرف، بينما تابع ستيفان كلامه قائلًا: " لقد صح عزمي على أن أتحدَّث إليك في شأن أختى وموقفكما المتبادل".. فابتسم أليكسي في أسى، ودون أن يعلِّق بكلمة مضى إلى المنضدة فتناول من فوقها خطابًا ناقصاً، قدَّمه إلى ستيفان وهو يقول: " إنى أفكر بلا انقطاع في الأمر ذاته. وهاك ما بدأت أكتبه إليها، تحت تأثير اقتناعي بأنى أستطيع التعبير عنه بالكتابة أكثر من اللسان، ما دام وجودي يثيرها!"

تناول ستيفان الخطاب، وقرأ فيه: " أرى أن وجودي بات يضايقك ويزعجك. وبرغم ما ينطوى عليه هذا من إيلام لى، فإنه الأمر الواقع، الذي لا مراء فيه، وأنا لست ألومك، بل يشهد الله أني حين رأيتك أثناء مرضك قرَّرت مخلصاً أن أنسى كل ما كان بيننا كى نبدأ معًا حياة جديدة!.. وما أنا بنادم – ولا سأندم – على ما فعلت، لكني أردت به شيئاً واحداً: هو خيرك. خير روحك ونفسك! والآن يبدو لى بوضوح أني لم أصل إلى بغيتي!.. فصارحينى أنتِ بما عساه أن يمنحك السعادة الحقة وسكينة النفس. وإنى أضع نفسي رهن مشيئتك تمامًا، وأعتقد أنى أستطيع أن أركن إلى حسن تقديرك لما هو صواب..".

وإذ فرغ ستيفان من قراءة الخطاب أعاده إلى أليكسي، وهو لا يدرى ماذا يقول. ثم سادت فترة صمت ثقيلة، قطعها أليكسي بقوله: " هذا ما أردت أن أقوله لها!"، ثم أشاح بوجهه. فأجابه ستيفان بصوت مختلج: " نعم، نعم.."، وخنقته عبراته فلم يكمل عبارته. وحين تمالك نفسه استطرد فقال: " نعم، إني أفهمك". فقاطعه أليكسي قائلًا: " بودي لو أعرف ماذا تبغى هي؟!"

- أخشى أن تكون هي نفسها عاجزة عن فهم موقفها. إنها لا تصلح حكمًا في الموضوع، فقد سحقها كرمك. ولو أنها قرأت هذا الخطاب لما استطاعت أن تقول، أو تفعل، شيئًا.. سوى أن تنكِّس رأسها أكثر مما تنكّسه أمامك!

- وما العمل إذن؟ كيف أعرف رغباتها الحقيقية؟

- إذا سمحت لي بإبداء رأيي، فأنا أعتقد أن عليك أنت أن توضِّح فوراً الخطوات التي تراها ضرورية لإنهاء الموقف!

- إذن فأنت ترى أن الموقف ينبغي أن يُنهى؟ ولكن كيف؟ لست أرى مخرجًا ممكنًا!

- هناك مخرج من كل مأزق. لقد فكَّرت ذات يوم في أن تطلب الطلاق، فإذا كنت مقتنعًا الآن بأن ليس في وسعكما أن تعيشا معاً سعيدين..

- السعادة مسألة نسبية، يختلف فهم الناس لها. ولكن افترض معى أنني سأوافق على أي حل، ولا أبغى شيئًا خاصًّا.. فما هو المخرج الذي تراه؟

- رأيي الشخصي أنها لن تصرح برغبتها الحقيقية، لكنها قد تكون راغبة في وقف علاقتكما المشتركة وذكرياتكما المتصلة بها. والمهم في موقف كهذا - في نظري - هو اتخاذ مسلك جديد لكل منكما نحو الآخر.. وهذا لا يمكن أن يستقر إلا على أساس من حرية الطرفين..

فقاطعه أليكسي مجفلًا: " أنت تعنى الطلاق إذن؟"

- نعم. يُخيل إلى أن الطلاق هو أسلم مخرج ممكن في مثل موقفكما، وإلا فأي مخرج سواه يستطيع أن يلجأ إليه زوجان يجدان حياتهما معاً مستحيلة؟.. إنه أمر شائع الحدوث.

وتنهَّد أليكسي، وأغمض عينيه.. بينما أردف ستيفان: " وإذا لم يكن أحد الطرفين راغبًا في إنشاء علاقة جديدة مع ثالث، فالأمر يغدو غاية في البساطة".. وبقى أليكسي صامتاً، مفكِّراً: إن هذا الذي يعتبره ستيفان غاية في البساطة قد جال بخاطره ألف مرة، وقتله بحثاً، فوجده مستحيلًا! إن شعوره بكرامته، واحترامه للدين وأحكامه، يمنعانه من أن يلصق بنفسه تهمة " الزنا" كذباً وافتعالًا، وبالأحرى يمنعانه من إلصاقها بزوجته – التي صفح عنها وأحبها - وتعريضها لأن تُضبط متلبسة، وتستهدف للخزي والعار.. بل لقد بدا له الطلاق مستحيلًا، لاعتبارات لا تقل عن ذلك أهمية: فماذا يكون من أمر ابنه، في حالة الطلاق؟ إنه لن يتركه طبعًا في حضانة أمه، حيث ينشأ في كنف أسرة غير شرعية وبين أخوة غير أشقاء.. فهل يأخذه في حضانته؟ إن هذا يكون إجراء انتقاميًّا لا يريد أن يقدم عليه! على أن أهم عامل كان يجعل أليكسي يرى الطلاق مخرجاً مستحيلًا هو أنه بموافقته عليه إنما يدمر حياة " آنا" تدميرًا كاملًا، كما قالت له " دوللى" بحق.. بل إنه بذلك ينزع من وجوده آخر حلقة تربطه بالحياة: الأطفال الذين أحبهم!.. وينزع من وجودها هي آخر حلقة تبقيها في

الطريق المستقيم، بحكم القانون الديني الذي يحرم على المطلقة أن تتزوج، ما بقى مطلقها على قيد الحياة. ومن ثم سوف تضطر آنا إلى أن ترتبط مع فرونسكى برباط غير شرعي، فلا يمضى عام أو نحوه حتى ينبذها ويزهد فيها، وإذ ذاك ترتمي في أحضان آخر، وهكذا يكون مصيرها الدمار، ويكون هو المسئول عن هلاكها!.. إذن فالطلاق ليس أمراً غاية في البساطة كما يزعم شقيقها! وانتزعه أفكاره صوت هذا يستطرد قائلًا: " بقى أمر الشروط التي تشترطها كى تمنحها الطلاق، وهي لا تطلب شيئًا في صدد ذلك. لا تجرؤ أن تطالبك بشيء، وإنما تترك الأمر كله لكرمك!".

- يا إلهى، يا إلهى! ماذا فعلت كي أستحق هذا؟

وأخفى أليكسى وجهه بين يديه وقد مرّت بخاطره المخازي التي يعرض نفسه لها لو تحمل عن زوجته تهمة الزنا، وحدَّث نفسه مردِّداً قول المسيح: " من لطمك على خدك الأيمن، فأدر له الخد الأيسر أيضًا.. ومن انتزع منك جزءاً من ردائك، فأعطه ثيابك كلها.."، وعندئذ صاح أليكسي في حشرجة أليمة: " نعم، نعم، سوف أتحمل الخزى بدلًا منها، وأتخلّى حتى عن ولدى ولكن.."، واستدار كى لا يرى

ستيفان وجهه، ومضى فجلس على مقعد إلى جوار النافذة، وقد غمر قلبه شعور بالمرارة والعار.. فبدا التأثر في وجه ستيفان، وقال: " أليكسي، صدقنى إنها تقدِّر كرمك ومروءتك. ولكن يبدو أنها كانت إرادة الله: إنها نهاية تعسة، وكارثة لا شك فيها، لكن المرء ينبغى أن يتقبلها كأمر واقع. ولسوف أبذل قصارى جهدي كي أساعد كلاكما في هذه المحنة!".

ثم ودَّع أليكسي وانصرف!

كان الجرح الذي أصيب به فرونسكي من طلقة المسدس جرحاً خطرًا، وإن لم يلمس القلب، فلبث يتأرجح أياماً بين الحياة والموت.. وحين استرد قدرته على الكلام، همس لزوجة شقيقه قائلًا وهو ينظر إليها جاداً: " فاريا، لقد أطلقت الرصاص على نفسى بدون قصد، فرجائى إليك ألا ترددى هذا الموضوع، وأن تقولى ذلك لكل من يسألك، وإلا كان الأمر مثاراً للسخرية!".. فقالت فاريا وهي تطل في عينيه الصافيتين وتبتسم مغتبطة: " شكراً لله. إنك لا تحس ألماً!"، فأشار إلى صدره وقال: " هنا أحس بعض الألم".. فقالت: " إذن دعنى

أغير لك الضمادات!". وحين فرغت من مهمتها عاد يقول لها: " لست أهذي، ولكنى أعنى ما أقول! فأرجو ألا يلغط أحد بأني أصبت نفسي عامداًا!".

- لا أحد يلغط بهذا. وكل ما نرجوه ألا تصيب نفسك " بدون قصد" مرة أخرى!

- كلَّا لن أفعل، ولكن ليت إصابتي كانت..

وابتسم في كآبة.. ولكنه برغم هذا كله ما كاد يتماثل للشفاء حتى أحس أنه تخلَّص على الأقل من جانب واحد من جوانب بؤسه وشقائه، إذ غسل بفعلته العار والمذلة اللذين استشعرهما من قبل، وبات يستطيع أن يفكِّر في غريمه أليكسي بشيء من الهدوء، وأن يواجه غيره من الرجال بدون خجل أو خزى، وأن يعود إلى حياته السابقة بالتدريج!.. شيء واحد عجز عن أن ينتزعه من قلبه، برغم طول كفاحه من أجل ذلك، هو أسفه المرير على فقد " آنا" إلى الأبد! لقد كفَّر عن إثمه في حق الزوج، وصار خليقًا به أن يهجرها، ولا يعود إلى الوقوف حائلًا دون توبتها وندمها، ورجوعها إلى زوجها!.. وقد استقر عزمه على أن يتخذ هذا الموقف دون أن ينسى أساه من أجل

فقدانه حبها، أو ينسى تلك اللحظات من السعادة التي لم يحسن تقديرها في أوانها، والتي تطارده الآن بكل سحرها وروعتها!

وحين دبَّر له رؤساؤه عملًا في (طشقند) لم يبد أدنى تردد أو اعتراض. ولكنه كان كلما اقترب موعد الرحيل، تفاقم إحساسه بمرارة التضحية التي بذلها من أجل ما يعتقد أنه واجبه!.. وفيما هو يعد العدة للسفر، ويزور مودعاً أخلص أصدقائه، ساوره حنين طاغ إلى أن يرى " آنا" مرة أخيرة، ثم يدفن نفسه " حيًّا" في منفاه، فهمس بهذه الفكرة في أذن " بتسى"، وتولَّت هذه نقلها إلى مسامع آنا.. ثم عادت تحمل له جواباً بالنفي!.. وحدَّث فرونسكى نفسه، معزيّاً: " لعل هذا أفضل، فقد كانت نزوة ضعف خليقة بأن تبدد ما تبقى من قواى وعزيمتي!".

لكن بتسى عادت إليه في صباح اليوم التالي تقول إنها سمعت من " ستيفان أوبلونسكى" نبأ قاطعاً بأن أليكسي وافق على الطلاق، ومن ثم بات في استطاعة فرونسكي أن يرى " آنا"! ودون أن يكلف نفسه عناء انتظار خروج بتسى من مسكنه، أو يسأل عن الموعد الذي يستطيع

أن يرى فيه " آنا"، أو عن مكان وجود زوجها في الوقت الحالي، هرع إلى الخارج ووجهته منزل آل كارينين، ناسياً كل إقراراته وعهوده مع نفسه!.. و لما بلغ الدار وثب يصعد سلمها عدواً، بغير انتظار أو استئذان، ثم اقتحم مخدع " آنا"! وبغير أن يتلفت ليرى هل في الغرفة غيرها أم لا، ألقى ذراعيه حولها وراح يغطى وجهها، ويديها، وعنقها، بالقبلات!

وكانت " آنا" قد أعدَّت نفسها لهذا اللقاء، وفكرت فيما عساها تقوله له فيه.. لكنها لم تفلح في أن تقول مما أعدته حرفاً، فقد استغرقتها عاطفته الجارفة الكامة، وعبثاً حاولت أن تهدئه، أو تهدىء نفسها، فإن أوان ذلك كان قد فات.. وأصابها انفعاله بعدواه، فاختلجت شفتاها، وظلّت برهة لا تقوى على الكلام! وأخيرًا قالت وهي تضغط يديه فوق صدرها:

- نعم، لقد قهرتني.. وإني لك!

- كان لا بد أن يحدث ذلك.. وما دمنا على قيد الحياة فلا مفر من أن نكون معًا.. الآن أوقن وأعتقد بذلك!

- هذا صحيح.. لكن هناك شيئاً رهيبًا ما زال في الطريق!

- سوف ينقضى كله، سوف ينقضى! وسوف نسعد غاية السعادة معاً. إن حبنا سيقوى – إن كان ثمة مزيد لقوته – بتأثير ذلك الشيء الرهيب نفسه!

وكانت قد أخذت رأسه بين يديها وعانقته، فرفع وجهه إليها وقد انفرجت أسنانه الجميلة عن ابتسامة، لم تستطع إلا أن تستجيب لها، لا بتأثير كلماته بل بتأثير الحب السافر في عينيه.. ثم تناولت يده وجعلت تربِّت بها خديها الباردين، فهمس لها وهو يحدِّق في عينيها: " لست أعرفك بهذا الشعر القصير. لقد غدوت أجمل مما كنت، ولكأنك غلام وسيم. ولكن ما أشد شحوب وجهك!"

- نعم، إنى ضعيفة.. ضعيفة جدًّا!

- فلنرحل إلى إيطاليا.. ولسوف تستردين قوتك وصحتك.

- أيمكن حقًّا أن نكون بمثابة زوج وزوجة، وحيدين؟

- بل إن الذي يبدو غريباً في نظري ألا نكون كذلك!

- ستيفان يقول إن زوجي وافق على كل شيء، لكنى لا أستطيع أن أقبل كرمه وإحسانه.. لست أريد طلاقًا الآن، وإن كنت لا أدرى ماذا يعتزم بشأن ابننا " سريوشا"!

- لا تتحدثي في شيء من هذا الآن، بل لا تفكرى فيه!

- أوه، لماذا لم أمت! كان ذلك أفضل..

وانحدرت على وجنتيها دموع صامته، لكنها حاولت أن تبتسم، كى لا تجرحه!.. وحتى تلك الساعة كان فرونسكى يعتبر التخلي عن المهمة التي انتدب لها في " طشقند" – على إغرائها وخطورتها - أمراً مخزيًا، بل ومستحيلًا.. لكنه الآن، دون أي تردد أو تدبر، تخلى عنها!.. وإذ لاحظ في دوائر القيادة العليا استياء من مسلكه وانتقادًا له، استقال من فوره من الجيش!

ولم ينقض شهر حتى كان أليكسي قد تُرك وحده مع ابنه سريوشا في داره ببطرسبرج.. بينما رحلت آنا وفرونسكي إلى الخارج، دون أن يحصلا على طلاق لها من زوجها، بل لقد نبذا كل تفكير في ذلك الطلاق!

الفصل الخامس

-17-

لم تكد شمس ذلك اليوم المبارك ترتفع إلى كبد السماء، حتى انفرد ليفين بنفسه في غرفته، وقد انسحب أصدقاؤه الثلاثة، أولئك العزاب الذين شاركوه مائدة الغداء بأحاديث طريفة وضحكات تناثرت كالعطر في بهو الفندق. جلس هنيهة يسترجع وقع كلماتهم على قلبه، كلمات تلوّنت بالسخرية من قيد الزواج، متغنية بحرية يظنونها الفردوس المفقود. تمتم يسائل روحه: "أحقًا أكون على شفا هاوية؟ أأقيد عنقي طائعًا؟" غير أنه لم يلبث أن تبسّم في مرارة، ساخراً من تلك الأوهام الطائشة. فقد أدرك بقلبه لا بعقله، أن السعادة لا تسكن في بيت العزلة، بل تُبنى لبنة لبنة في عشّ الحب، حين يهب المحب نفسه طائعًا، مجردًا من حريته، مخلِّصًا قلبه لمحبوبه.

لكن من تحت هذا اليقين، تسلل صوت خفيّ، مبهَم النبرة، كأنما جاء من أعماق سحيقة لم يطرقها من قبل، يقول له: "هل تعرف حقًا ما الذي تريده هي؟ أتعلم رأيها؟ أتشعر بمكنونات صدرها؟" فغارت

الابتسامة من وجهه كأن لم تكن، وغشاه حزن ثقيل كالغيم، وارتجف قلبه بأسئلة ترتج كيان العاشق المتردد.

"ومن قال إنها تحبني؟ أليس من الجائز أنها تسعى إلى الزواج لذاته، لا لي أنا؟ ربما هي لم تفطن بعد إلى حقيقة شعورها، لكنها حين تفيق من سكرات هذا القرار، قد تصحو على يقين بأنها لا تهواني، ولن تهواني قط"!

وإذا بالأفكار تتدافع على قلبه كأنها زوبعة، وإذا بغبار الغيرة القديمة يتصاعد في صدره، يذكّره بتلك النظرة العالقة التي رمقت بها فرونسكي منذ عام، نظرة إعجاب لم ينسها. تراءت له شبحًا يخفي خلفه نصف اعتراف لم يُقل. فوثب من مقعده كالملسوع، وقد استبدّ به اليأس وانقض عليه كقابض من حديد.

قال يخاطب نفسه بشجاعة يائسة: "لا، لن أستسلم لوهم ساكن، سأسألها.. سأنطقها بالكلمة التي قد تحسم كل شيء: لا يزال في الوقت متسع، لسنا بعدُ مقيدين، أفلا يكون من الأفضل أن ننقذ مستقبلنا من أن يتحول إلى جحيم دائم في ظلال الشك والخيانة؟" ومضى

يسير كمن تهفو به الرياح لا قدميه، مشحونًا بمرارة الرجال كلهم، غاضبًا من نفسه، ومنها، ومن العالم بأسره.

لكن حين عاد إلى الفندق، كان قد انطفأ في قلبه ذلك الحريق العاصف، وهدأ روعه، فإذا به يلقى أخاه ودوللي – أخت عروسه – وزوجها ستيفان، قد ارتدوا حُلَل الزفاف وشرعوا في ترتيب ما بقي من طقوس هذا اليوم المهيب. ولما حان موعد ارتداء سترته الرسمية، اكتشف أن خادمه نسي أن يضع له قميصًا نظيفًا، فتأخر عن الكنيسة، ودخلها متأخرًا على موعده، وقد ازدانت بالمصابيح الوهاجة، ترشّ النور على الوجوه الحسناء، وتضيء الحلي البراقة على الأعناق والصدور.

وحين انتهت المراسم، التفت إلى عروسه فطبع على شفتيها قبلة حيية، ثم مدّ لها ذراعه، فتقبّلا معًا التهاني والدعوات بالخير. وما إن أسدل الليل ستاره، حتى مضيا معًا إلى الريف، ليبدآ شهر عسل لا يشاركهما فيه سوى صمت الطبيعة وحنان القلبين.

أما آنا وفرونسكي، فقد عاد بهما القدر إلى بطرسبرج، فنزلا في أحد أفخم فنادقها؛ هو في الطابق الأسفل، وهي مع طفلتها والمربية والخادمة في جناح يضم أربع حجرات في العلو. وما إن وصلوا، حتى قصد فرونسكي دار شقيقته، حيث كانت أمه قد وفدت من موسكو لشأن يتعلق بأملاكها، فحيّته ببرود الأرستقراطيين الذين يخجلون من الفضائح، وسألته مع زوجة شقيقه عن رحلته، دون أن تلمح أي منهما بكلمة إلى آنا.

وفي الصباح، جاءه شقيقه الأكبر، وسأله عنها، فما لبث أن أجابه فرونسكي بصراحة، قائلاً إنه يعتبر ارتباطه بآنا زواجًا حقيقيًا، وينوي ترتيب أمر الطلاق ليعقد قرانه عليها في العلن. ثم أضاف في نبرة تتحدى العُرف: "إن لم يقبل الناس بذلك، فلن أبالي. ولكن إن كان أقربائي يودّون الاحتفاظ بودّي، فعليهم أن يعاملوا آنا كما لو كانت زوجتي بالفعل".

وهكذا، بين زواج يُبارَك في الكنيسة ويُتوَّج في الريف، وآخر يتأرجح بين هوى القلب وغضبة المجتمع، تمضي الرواية على نغمة القدر التي

تعزف في أعماق الإنسان لحن الأمل والتردد، والجرأة والندم، والصدق والخيانة.

وَقَبِلَ الأخ الأكبر هذا الرأي برحابة صدر، كما اعتاد أن يتلقى آراء فرونسكي دومًا، ثم قال في وقار العارف بشؤون الدنيا:

"ليس لي اعتراض على ما تقوله، فالحكم في مثل هذه الأمور، إنما هو حق خالص للمجتمع!"

ثم مضى معه لزيارة آنا في جناحها الكائن في علِّيّة الدار، وقد حرص فرونسكي على أن يكلِّمها أمام أخيه بكلمات موزونة، يخالطها الحذر ويغلفها التحفظ، كأنما يُلقيها في قاعة قصرٍ لا غرفةٍ خاصة.

وجلس الثلاثة يتداولون أمر رحيل آنا إلى ضيعة فرونسكي، حيث تقيم فيها بعض الوقت، يلفّها السكون، ويُخفيها عن العيون المتطفلة. وكان فرونسكي، وهو ابن العرف والذوق، يظن أنه ملمٌّ بمكائد المجتمع ومراياه، لكنه أخطأ التقدير وساء به الظن؛ إذ لم يدرك أن بوابات المجتمع المذهّبة لا تُفتح بالأهواء ولا تُخدع بالمظاهر، بل تُغلق على من يشذ عن نغمة جوقة الأخلاق.

توهم، في غرور المتحرر المتأنق، أن رياح العصر الجديد قد هدّأت صرامة الأعراف، وأن الناس ما عادوا يضربون بعصا الحلال والحرام كما كانوا يفعلون من قبل. تحدَّث إلى نفسه، كمن يهمس لوهم جميل:

"ربما لم يُفتح لها باب البلاط ولا يُفرش لها ممر المراسم، لكن أصدقاءنا الأوفياء لن يضنوا علينا بقلوبهم!"

لكن سرعان ما كشفت الأيام سوء فهمه؛ فالباب الذي يُفتح له بابتسامات وعبارات ترحيب، يُغلق في وجه آنا بإحكام. كانت اللعبة واضحة كـ"لعبة القط والفأر"، إذ تُرفع الأيدي احترامًا له، ثم تهبط في غلظة لقطع الطريق أمامها.

وكانت الأميرة بتسي، بنت عمه، أولى سيدات الطبقة المخملية التي التقاها بعد عودته. استقبلته بمرحٍ مصطنع، وقالت وهي تُخفي دهشة ممزوجة برغبة في الفضول:

"ها قد عدت! وكيف حال آنا؟ وأين أنتما الآن؟ أفترض أن روما كانت مسرحًا لشهر عسلكما؟"

لكن لهجتها ما لبثت أن خفَّ بريقها حين علمت أن الطلاق لم يتم، وأن رباط آنا القديم لم يُفصم بعد، فقالت بفتور يكسوه التظاهر بالجرأة:

"سيُرجمني الناس إن زرت آنا، ولكن... سأذهب، نعم، لا بد أن أذهب!"

وقد فعلت، ولكن زيارتها كانت أشبه بزيارة المتسائل المتردد، أكثر منها زيارة صديقة وفية. تباهت بشجاعتها، كما يتباهى جندي خائف بانتصار وهمي، وتوسلت إلى آنا أن تُقدّر هذا "الإخلاص" المزعوم. جلست معها عشر دقائق لا غير، نثرت فيها شائعات المجتمع كما تُنثر فتات الخبز للطيور الجائعة، ثم قالت وهي تستعد للرحيل:

"لم تخبريني بعد، متى سيتم الطلاق؟"

ثم أضافت ببرود قاتل:

"قد أتحمّل وحدي ثقل مخالفة الناس، لكنهم هم، سيعرضون عنكِ حتى يتم زواجكما!"

وهي تهمّ بالخروج، رمت إليها بعبارة مهذبة في ظاهرها، حادة كالسيف في باطنها:

"أنتِ راحلة يوم الجمعة، أليس كذلك؟ آسفة، لن أراكِ قبل ذلك!"

وكان حريًا بفرونسكي أن يستشف من تلك الكلمات، ومن نبرة الصوت التي تنزف احتقارًا مستترًا، المصير الذي ينتظر آنا عند بوابات الآخرين، لكنه مع ذلك قرر أن يخوض محاولة أخرى ضمن دائرة أسرته. لم يكن بوسعه أن يستند إلى أمه، رغم ما أظهرته من إعجاب بآنا يوم لقائهما الأول، إذ كانت لا ترى فيها سوى امرأة أفسدت طريق ولدها نحو المجد، وضيّعت عليه الفرصة الذهبية.

علّق آماله على زوجة أخيه، امرأة يظنها أكثر عدلًا وإنصافًا، تزن الأمور بميزان الوجدان لا بميزان النفاق. قصدها في اليوم التالي، وفتح لها قلبه دون مواربة، لكنها أجابته بصوت الأم المتزنة والزوجة الحذرة:

"أنت تعلم مقدار مودتي لك، وأنا مستعدة لفعل أي شيء يُرضيك... لكن، في هذا الشأن، أعجز أن أساعدك أو أساعد آنا!"

ثم أضافت وقد ارتسمت على وجهها ملامح الحسرة والحذر معًا: "لا تظن أني أدينها، لا! بل لو كنت مكانها، لربما اخترت كما اختارت، لكن علينا أن نُسمي الأشياء بأسمائها. أنت تريدني أن أزورها، وأن أدعوها إلى بيتي، وتظن أن في هذا ترميمًا لصورتها في المجتمع، لكن... أفهمني جيدًا: لدي بنات أوشكن على سن الزواج، وواجبي كأم وكزوجة أن أساير المجتمع، لا أن أتحداه!"

ثم ختمت حديثها بحكمة المرأة التي تعرف حدود الاحتمال: "سأزورها، نعم، ولكن دعها تفهم دون أن أُصرِّح: لن أستطيع أن أستقبلها في منزلي. فكيف أضمن أن لا يصادفها عندي من يحتقرها؟ وهل أُحرجها وأجرحها وهي ضيفتي؟ لا، لا أستطيع. أنا لا أملك أن أرفع عنها هذه العثرة، ولا أملك أن أغسل ما لوّثته ألسنة الناس!"

وهكذا، تهاوت آمال فرونسكي، كما يتهاوى برجٌ شُيّد على الرمال، أمام صخرة المجتمع الذي لا يصفح ولا يرحم، وبدت آنا، في عينيه،

كزهرة مقطوفة، تتفتح في العزلة، وتذبل تحت وطأة النظرات القاسية.

.. فقال فرونسكي في اكتئاب و هو ينهض يائسًا من إقناعها بتغيير قرارها: " لهذه المناسبة يهمنى أن تعلمى إنى لا أعتبرها ساقطة أكثر من مئات النساء اللواتي تستقبلينهن في بيتك!".. فقالت له في هدوء: " فرونسكي، لا تغضب لصراحتي. إنى غير ملومة!".. فقال: " لست غاضبًا، ولكني آسف لشيء واحد، هو أن ذلك يضطرني إلى فصم عرى صداقتنا، أو إضعافها في القليل. ولعلك تفهمين أن الأمر بالنسبة لي أيضًا لا يمكن أن يكون غير ذلك!".

ثم ودّعها وانصرف..!

وهكذا أدرك فرونسكي أن لا فائدة من أية محاولة أخرى يبذلها في هذا السبيل، وأن عليه أن يقضى الأيام القليلة الباقية في بطرسبرج كما لو كان يعيش في مدينة غريبة، يتجنب كل لون من ألوان الصلة مع أفراد جماعتهم القديمة، بغية عدم التعرض للمضايقات وأنواع المذلة التي لا يستطيع بطبعه أن يتحملها!.. وكان من أقسى الملابسات التي تكتنف موقفه في بطرسبرج أنه صار يلتقي في كل مكان بغريمه

أليكسي، أو يسمع اسمه في مختلف المناسبات. وزاد في قلقه أنه بدأ يلحظ على " آنا " أعراضاً وأطواراً غريبة، عجز عن فهمها أو تعليلها! كانت تبدو أحيانًا شديدة التعلّق والشغف به، وأحيانًا أخرى باردة العاطفة ثائرة الأعصاب، عميقة الغور.. ولم يبد أنها لاحظت المذلة التي سممت حياته، والتي لا شك أنها كانت أشد إيلامًا لأعصابها المرهقة!

-18-

كان من أهم الدوافع التي حملت " آنا " على العودة من إيطاليا إلى روسيا، شوقها إلى رؤية ابنها! ومنذ اليوم الذي غادرت فيه إيطاليا، لم تكف صورته عن مطاردة خيالها، فلما اقتربت من بطرسبرج تضاعفت لهفتها، بحيث ألهتها عن التفكير في الوسيلة التي تمكنها من لقائه. لقد بدا لها أمراً طبيعياً – غاية في البساطة - أن ترى ابنها، ما دامت تقيم معه في مدينة واحدة! لكنها لم تكد تصل إلى المدينة، حتى صُدمت فجأة بالموقف الذي اتخذه المجتمع إزاءها، وبدأت صعوبة لقائها لابنها تلوح لخاطرها بوضوح يزداد يومًا بعد يوم!.. حتى بدأ الانزعاج يساورها في اليوم الثالث، حين أحست أنها لم تقترب من هدفها خطوة واحدة، بل ابتعدت خطوات!.. فجعلت تستعرض الحلول جميعاً واحداً بعد واحد: هل تذهب رأسًا إلى بيته، حيث يعيش مع أبيه؟ كلَّا! فليس من حقها أن تفعل ذلك، وقد يحال بينها وبين الدخول، وتوجَّه إليها الإهانات! إذن فلتكتب إلى أبيه - زوجها – خطابًا، ولكن التفكير في هذا الحل يورثها الشعور بمدى شقائها، وهي لا تستطيع أن تنعم بسكينة النفس إلا إذا كفَّت عن التفكير في زوجها

تمامًا!.. لم يبق إذن إلا أن تنتظر ابنها خارج البيت والمدرسة لتُشبع نهمها إلى رؤيته ذاهبًا آيباً! لكن هذا لا يكفيها، فلقد طالما أعدت نفسها لهذا اللقاء، أعدت الكثير لتقوله له في هذه المناسبة، ومنت ذراعيها بعناقه، وفمها بتقبيله، بحيث يصعب عليها أن تقنع بما دون ذلك!

ووصل إلى سمعها أن ثمة صلة وثيقة تربط زوجها بالكونتة ليديا إيفانوفنا، فكتبت إليها خطابًا، كلفتها كتابته جهداً وألمًا عظيمين، وتعمَّدت أن تقول فيه: " إن الإذن لها في رؤية ابنها يتوقّف على كرم أليكسي!".. فقد كانت تعلم يقينًا أن الخطاب لو عُرض على الزوج لكان عند خلقه النبيل، وأبى أن يرفض طلبها ولكن الوسيط الذي حمل الخطاب عاد إليها يحمل ما هو أقسى من أي رد تصورته! لم يكن هناك أي رد على الإطلاق!.. وأحسَّت " آنا " عندئذ أنها قد أذلت وأهينت إلى حد لم تتصوَّر أن تبلغه في يوم من الأيام!.. لكنها أدركت – إلى ذلك - أن الكونتة ليديا كانت، من وجهة نظرها الخاصة، على صواب! وضاعف من حدة عذابها أنها ألفت نفسها مضطرة إلى أن تتحمل هذا العذاب وحدها، في صمت، ودون تذمر! فهى لم تشرك

فيه فرونسكي لعلمها أن رؤية الأم لابنها تبدو في نظره أمرًا لا تكاد تكون له أهمية برغم أنه كان السبب المباشر في محنتها العميقة! بل كان برود لهجته كلما أشارت إلى ابنها يجعلها تشعر بأنها بدأت تكرهه! ولم يكن ثمة ما تخشاه أشد من هذه النتيجة، ومن أجل ذلك صارت تحرص على أن تخفى عنه كل ما يتصل بابنها!

وفكَّرت أخيراً في أن تكتب إلى زوجها!.. وفيما هي تصوغ عبارات الخطاب في أناة، جاءها خطاب من الكونتة ليديا إيفانوفنا. ولئن كان صمت الكونتة في المرة الأولى قد آلمها وأحرجها، فإن ما قرأته بين السطور في خطابها هذه المرة قد حيرها وأحنقها أضعافًا مضاعفة! فجعلت تحدِّث نفسها: " إنهم بهذا البرود واصطناع الشرف الزائف يريدون إهانتي وتعذيب إبنى، لكنى لن أستسلم لهذا. إن ليديا أسوأ خلقًا منى. أنا لا أكذب على الأقل!".. وقررت أن تمضى في اليوم التالي - يوم عيد ميلاد - سريوشا – إلى منزل أبيه حيث ترشو الخدم أو تخدعهم بأية وسيلة كى تلقى ابنها وتزيل الأثر السيء الذي يريد القوم إدخاله في روعه نحوها!

وغادرت الفندق من فورها، قاصدة إلى أحد محال بيع لعب الأطفال، واشترت بعضها لتحملها معها إلى ابنها. ثم عكفت بعد ذلك على تدبير خطة " الهجوم ": إنها سوف تذهب متنكرة إلى بيت زوجها في الساعة الثامنة صباحًا، قبل أن ينهض من فراشه، وستمضى إلى جناح ابنها دون أن ترفع نقابها، زاعمة أنها مبعوثة من أحد أقرباء الصبى لتهنئته بعيد ميلاده، وتترك إلى جوار فراشه ما تحمل من لعب ودمى!

وفي هذا الموعد، كانت " آنا " تهبط من الزحافة التي استأجرتها، لدى باب منزلها القديم! وكان مساعد الحارس غلامًا جديداً لا تعرفه، فلما فتح لها الباب دست في يده ورقة مالية قيمتها ثلاث روبيات وقالت له: " أريد رؤية سريوشا". لكنه أوقفها عند الباب الزجاجي الداخلي ومضى ليدعو رئيسه، فلما جاء هذا قالت له وهي ما تزال متنكرة: " إنى قادمة من عند الأمير سكورودوموف لمقابلة سريوشا".. فأجابها قائلًا: " إن الصبى لم ينهض من فراشه بعد. هل تتكرمين بانتظاره هنا "؟.. لكن الأم المتلهفة للقاء ابنها لم تع ما يقول. إن منظر ردهة البيت الذي عاشت فيه تسع سنوات أنعش في وعيها

ذكريات - عذبة وأليمة معًا - أخذت تتوالى على لوحة خيالها دون رحمة! وفي أثناء ذلك كان الحارس قد مد يده ليتناول معطفها، وإذ حانت منه نظرة إلى وجهها عرفها – برغم النقاب - فانحنى لها صامتًا، وقال في احترام:

- تفضلي بالدخول يا سيدتى!

وحاولت أن تقول شيئاً، لكن صوتها أبى أن يطاوعها!.. فرمقت الحارس المسن بنظرة خجلى متوسلة، واتجهت إلى السلم تبغى الصعود.. فلحق بها هاتفًا متلعثمًا: " إن معلمه معه.. أقصد أنه ربما لا يكون قد ارتدى ثيابه. سوف أخبره أولًا!".. لكنها استمرت تصعد درجات السلم المألوفة لها دون أن تعي ما يقول.. فهرع لحظة وعاد يقول: " إنه قد استيقظ لفوره". فأجابته وهي تواصل اتجاهها نحو الغرفة: " دعنى أدخل، واذهب أنت! "

كان الصبى جالسًا في فراشه، ما يزال يتمطى ويتثاءب، وفي اللحظة التي انطبقت فيها شفتاه ارتسمت عليهما ابتسامة عذبة يخالطها النعاس، ثم ارتمى على ظهره وغلبه النوم من جديد.!.. فهمست له أمه وهي تدنو منه دون أن تحدث جلبة: " سريوشا". وخُيل إليها وهي

تتأمله أنه قد تغيّر كثيرًا عما كان حين تركته. استطالت قامته، ونحل عوده، لكن رأسه، وشفتيه، ورقبته الناعمة، وكتفيه الصغيرتين، باقية كلها كما عهدتها!.. وعادت تهمس في أذنه في رفق: " سريوشا "، فرفع الصغير جذعه على مرفقه وأدار رأسه هنا وهناك، كما لو كان يبحث عن شيء، ثم فتح عينيه.. وفى بطء وتثاقل نظر إلى أمه الواقفة بلا حراك أمامه، بضع ثوان، ثم ابتسم فجأة ابتسامة ملائكية وارتمى بين ذراعيها وقد أغمض عينيه! فهتفت لاهثة الأنفاس وهي تنحنى على جسمه الصغير وتضمه إلى صدرها: " سريوشا، ابني الحبيب!".. فهتف هو وقد استراح لضمتها الحنون: " أماه!".. ثم ألقى ذراعيه الصغيرتين على كتفيها وهو ما يزال يبتسم ويغالب النعاس، ومضى يحك وجهه في رقبتها وكتفيها، بتلك العذوبة الدافئة التي لا يعرفها غير الأطفال!.. ثم قال وهو يفتح عينيه آخر الأمر: " كنت أعلم أنك ستأتين يوم عيد ميلادي". سأنهض حالًا". وإذ قال ذلك غلبه النعاس مرة أخرى فنام بين ذراعيها! وراحت " آنا " تتأمله في شراهة ونهم. رأت كيف تغير في غيبتها، فخنقتها دموع التأثر والأسى! وفي أثناء ذلك فتح الصبى عينيه مرة أخرى وسألها: " لم تبكين يا أماه؟". وإذ عجزت

عن أن تجد صوتها لتجيبه، صاح بها في صوت بللته دموع الانزعاج: " أماه، لماذا تبكين؟ " فأجابته وقد حبست دمعها وأشاحت بوجهها عنه: " لن أبكى ثانية يا بني.. إنى أبكى من فرحتي.. منذ زمن طويل لم أرك! لكني لن أبكى ثانية، لن أبكى!".

ثم أردفت وهي تجلس على مقعد مجاور لفراشه: " تعال، آن أن تلبس ثيابك. كيف كنت تلبسها بعدى؟ كيف؟! "، وحاولت أن تفيض في الكلام ببساطة ومرح لكنها لم تستطع، فأشاحت بوجهها مرة أخرى!.. بينما مضى الصبى يثرثر قائلًا: " لم أعد آخذ حمامًا بارداً. بابا لا يوافق.. أوه، إنك تجلسين فوق ثيابى! "، وضحك في انشراح، فنظرت إليه وابتسمت، وإذ ذاك ارتمى على صدرها مازحًا وهو يصيح فرحاً: " أماه، حبيبتي! " ثم أضاف وهو يخلع عنها قبعتها: " لست أريد هذه بعد".. وإذ رآها أقرب إلى طبيعتها بغير قبعة، اندفع يقبلها ويعانقها من جديد!

- ولكن ماذا قالوا لك عنى؟ لعلك حسبتني قد مت؟!

- لم أصدّق ذلك أبداً!

- حقًّا يا حبيبى؟

- كنت أعرف.. كنت أعرف أنك ستأتين!

واختطف يدها التي كانت تمشط شعره.. فضغط راحتها على شفتيه، وقبلها!

وكان مساعد الحارس قد استنتج من مسلك " آنا " عند دخولها أنها " الزوجة التي هجرت زوجها " – كما قيل له عندما التحق بخدمة البيت بعد رحيلها – فلما حانت الساعة التي ألف فيها أن يعين الصبى على ارتداء ثيابه، تردد حائراً ماذا يفعل، ثم استقر عزمه على أن يؤدي واجبه المألوف، فمضى إلى الباب وفتحه.. لكن عناق الأم والطفل، وحديثهما وضحكاتهما المتبادلة، جعلته يغير رأيه، فهز رأسه وتنهد - وهو يغلق الباب - هامسًا لنفسه: " سأنتظر عشر دقائق أخرى".. وكفكف الدموع التي انحدرت على خديه!

.. وكان نبأ حضور " آنا " قد انتشر بين الخدم، فأشفقوا جميعًا من أن يدخل سيدهم غرفة ابنه في الساعة التاسعة، كما ألف أن يفعل، فيلتقى فيها بزوجته!.. وصح عزمهم على أن يحولوا دون ذلك ما

أمكنهم، فقالت مربية الصبى، تُحدث خادم أليكسي الخاص: " اذهب أنت فاشغل السيد بأي شيء يعوقه عن الذهاب إلى غرفة ابنه.. ريثما أهرع أنا إلى الغرفة فأخرج منها السيدة بأية طريقة!.. يا له من مأزق!".

وحين دخلت المربية الغرفة، كان سريوشا يقص على أمه كيف كان يلعب فوق إحدى الزحافات، فانزلق منها وانقلب على جنبه ثلاث مرات.. وكانت " آنا " تصغى إلى رنين صوته، وتتأمل وجهه والتعبيرات التي تتوالى عليه، وهي تلمس يده في حنان!.. لكنها لم تكن تتابع كلامه أو تفهم ما يقول، فقد كان يقلقها التفكير في وجوب انصرافها في الوقت المناسب، قبل أن تلتقى بزوجها! ولكن كيف تذهب وتفترق من جديد عن ابنها، وهي لم تكد تلقاه؟.. وسمعت خطوات مساعدالحارس وهو يدنو من الباب، ويسعل منبهًا.. كما سمعت وقع خطوات المربية وهي تقترب.. لكنها ظلت جالسة في مكانها وكأنها قد استحالت إلى تمثال من حجر، عاجزة عن أن تتكلم أو تنهض.. حتى أقبلت عليها المربية تقبل يديها، وكتفيها، هاتفة في شوق: " سيدتي العزيزة! لقد أرسلك الله إلى الصبى يوم عيد ميلاده. إنك لم تتغيرى البتة! "

- أهذه أنت؟ لم أكن أعلم أنك باقية هنا!

- لست أقيم هنا. لقد تركت العمل هنا لأعيش مع ابنتى. لكني جئت اليوم فقط من أجل عيد ميلاد سريوشا. أوه يا سيدتى العزيزة!

وغلبها التأثر فانفجرت باكية، وعادت تقبل يدى سيدتها من جديد.. بينما راح الصبى يقفز فوق الفراش وهو ممسك بيمناه يد أمه، وبيسراه يد مربيته، وقد أشرق البشر في عينيه وابتسامته.. وأثرت فيه رقة عاطفة المربية نحو أمه، فهتف نشوان: " أماه!.. إنها تأتى كثير لتراني، وحين تأتي.. "، لكنه توقف، وقد لحظ أن المربية تهمس لأمه في أذنها بعبارة ما، وأن وجهها تغير فجأة، وبدا فيه مزيج من الرعب والفزع والخجل!.. ثم توجَّهت أمه نحوه قائلة: " يا حبيبي!".. ولم تقو على أن تقول " وداعًا". لكن التعبير الذي ارتسم على وجهها قالها ففهم الصبى.. ثم أردفت قائلة: " إنك لن تنساني يا حبيبي؟ أليس..؟ "، لكنها عجزت عن إكمال عبارتها! ولكم جالت بخاطرها فيما بعد عبارات كان ينبغي أن تقولها للصبى وهي تودعه، لكنها الآن لم تدر ماذا تقول، ولم تستطيع أن تقول شيئًا.. وإن كان سريوشا قد فهم كل ما

أرادت أن تقوله له: فهم أنها شقية مبتئسة، وأنها تحبه.. بل فهم حتى ما همست به المربية، فقد التقطت أذنه هذه الكلمات: " دائمًا في الساعة التاسعة "، فأدرك أنها تعنى بها أباه، وأن أباه وأمه ينبغى ألا يلتقيا!.. كل هذا فهمه. لم يبدو الرعب والخزى على وجه أمه؟.. إنها لم تخطئ في شيء، لكنها خائفة وخجلي من شيء!.. وقد ود لو يلقى عليها سؤالًا يريحه من شكوكه، لكنه لم يجرؤ!.. ورآها تعسة مكتئبة، وأشفق عليها، فالتصق بها في صمت وهمس: " لا تذهبي الآن.. إنه لن يأتي حالًا!".

فأبعدته الأم قليلًا لتقرأ في وجهه ما يجول بخاطره، وتفكِّر فيما عساها أن تجيب به.. وسرعان ما أدركت أنه يعني بكلامه أباه، بل قرأت في وجهه أنه يريد أن يسألها كيف تكون نظرته إلى أبيه، وماذا يعتقد فيه؟ فقالت له ضارعة: " سريوشا يا حبيبى.. أحببه! إنه أفضل، وأكثر عطفاً منى.. وقد أسأت أنا إليه.. وحين تكبر سوف تستطيع أن تحكم!".. فصاح الصبى يائساً، من خلال دموعه: " لا يوجد من هو أفضل منك! "، ثم تشبَّث بكتفيها والتصق بها بكل قوته، ويداه ترتعشان من الانفعال! فهتفت " آنا " في مثل ضعفه

وصبيانيته: " يا حبيبي، يا صغيري الغالي! "، وفي تلك اللحظة فُتح الباب، ودخل منه مساعد الحارس. وسُمع قرب الباب الآخر وقع أقدام تصعد السلم، فهمست المربية في وجل: " إنه قادم!، ثم أعطت " آنا " قبعتها!، بينما غاص سريوشا في فراشه وأجهش بالبكاء، وقد أخفى وجهه بين يديه.. فأزاحت " آنا " يديه وقبّلت وجهه الندى بالدموع مرة أخرى، ثم أسرعت نحو الباب.. في الوقت الذي أقبل فيه زوجها، فالتقيا على عتبة الباب.. وإذ رآها أليكسى توقَّف وحنى رأسه لها بالتحية!

و برغم ما ذكرته للصغير منذ لحظات بصدد أفضلية أبيه عنها، في الطيبة والرقة، فإن النظرة السريعة التي رمقته بها الآن كانت تنطوي على النفور والكراهية له، والغيرة منه على ابنها!.. وبحركة سريعة أرخت نقابها على وجهها ثم هرعت خارجة من الغرفة وهي تكاد تعدو، حاملة معها طرد الدمى والهدايا التي ابتاعتها لابنها في اليوم السابق، وقد نسيت في اضطرابها أن تحل رباطها وتعطيها للصبى..!

لم تكن " آنا " – برغم اشتياقها إلى رؤية ابنها، وطول تدبيرها أمر لقائه، وإعدادها نفسها لهذا اللقاء – تتوقَّع تأثرها برؤيته كل هذا التأثر العميق! فلما عادت إلى جناحها المنعزل بالفندق لبثت فترة طويلة شاردة الذهن تفكِّر في حالها، وتحدِّث نفسها وهي جالسة في مقعد مريح بجوار المدفأة، دون أن تخلع حتى قبعتها: " لقد انتهى كل شيء.. وها أنذا عدت وحيدة من جديد! "

وبعد قليل عادت المربية الإيطالية التي جلبتها معها من رحلتها، بعد أن خرجت بالطفلة للنزهة بعض الوقت، وأعطت الطفلة لأمها. فلما رأت الصغيرة، الممتلئة الجسم، أمها، مدت إليها يديها الصغيرتين البدينتين، وبابتسامة عذبة من فمها الخالي من الأسنان بدأت تعبث بحواشي ثوبها المطرزة المقواة بالنشاء، فتحدث من احتكاك أصابعها بها أصواتاً خشنة طريفة كان مستحيلًا على من يسمعها ألا يبتسم ويقبل الطفلة، ويداعبها.. وقد فعلت " آنا " كل ذلك، وأخذتها بين ذراعيها وجعلتها ترقص، وقبلت خدها الصغير اللدن ومرفقيها الصغيرين العاريين.. لكنها أدركت وهي ترى الطفلة، أن الشعور الذي تحسه نحوها لا يمكن أن يسمى حبًّا بالقياس إلى ما تحسه نحو

سريوشا! كل شيء في هذه الطفلة جذاب، ولكن حبها لها ليس عميق الجذور في قلبها كما هو شأن حبها لطفلها الأول، الذي تركَّزت فيه – برغم نفورها من أبيه – كل عواطفها التي لم تجد لها من قبل متنفساً! لقد ولدت طفلتها الجديدة في أسوأ الظروف وآلمها، فلم تجد من العناية والحدب جزءاً من مائة مما أريق على سريوشا، الذي أضحى الآن ذا شخصية مستقلة محبوبة، يفهم أمه ويحبها ويشتاق إليها.. والذي انتزع منها إلى الأبد - لا جسمًا فقط، بل جسماً وروحاً - وبات إصلاح هذه الحال من المحال!

وإذ بلغت " آنا " هذه المرحلة من تفكيرها، أعادت طفلتها إلى مربيتها وصرفتها، ثم فتحت علبة صغيرة كانت تحتوى على صورة لسريوشا حين كان في مثل سن الطفلة الجديدة، وبعد أن تأملتها لحظة قامت فخلعت قبعتها وتناولت من أحد الأدراج " ألبومًا " يحوى صور الصبى في مختلف مراحل طفولته، ثم أخرجتها كلها من الألبوم كى تقارن بينها.. لكن صورة منها – هي أحدث وأجمل صورة له - استعصت على أصابعها إذ التصقت بالصورة المجاورة لها، وكانت الأخيرة لفرونسكي، أُخذت له في روما أخيرًا.. فلم يكد بصر " آنا " يقع

عليها حتى انثال إلى ذهنها فجأة خاطر غريب: أنه هو سبب تعاستها الحالية! ولم تكن قد فكرت فيه لحظة منذ بداية الصباح، أما وقد صادفت الآن وجه عشيقها المكتمل الرجولة، المألوف لديها والغالى عليها، فقد أحست فورة حب مفاجئة تنتابها نحوه! وساءلت نفسها: " أين هو؟ كيف يتركنى وحدى أقاسي كل هذا الشقاء؟".. ولم تملك إلا أن تحتضن هذا الخاطر المنطوي على اللوم والتوبيخ، ناسية أنها كتمت عن فرونسكي كل ما يختص بابنها!

وأرسلت تدعوه إلى أن يصعد إليها من فوره.. ولبثت تنتظره بقلب واجف، مرددة لنفسها الصيغة التي سوف تفضى إليه فيها بكل شيء، وعبارات الحب التي تتوقَّع أن يواسيها بها!.. لكن الرسول عاد إليها يقول: أن عند الكونت فرونسكى زائر هو الأمير " ياشفين " الذي وصل الآن إلى بطرسبرج، ولكنه سيصعد إليها حالًا برغم ذلك. وهو يسألها إن كانت تسمح له بأن يحضر ضيفه معه؟. وعادت " آنا " تحدِّث نفسها: " إنه لن يأتى وحده، برغم أنه لم يرنى منذ ظهر أمس، وإنما سيأتي ومعه ضيفه، وهكذا لن أستطيع أن أفضى إليه بكل شيء!".. وداهمها خاطر غريب: " ماذا لو كان قد كف عن أن

يحبها؟!". وباسترجاع حوادث الأيام القليلة الماضية بدا لها أنها تجد في كل شيء تأييداً لهذا الخاطر الرهيب: فهو لم يتناول العشاء في الفندق مساء أمس، وهو قبل ذلك قد أصرّ على أن يتخذ لنفسه جناحًا منفصلًا مستقلًّا في الفندق. ثم ها هو الآن لا يحضر إليها وحده، كأنما لقاءها على انفراد!.. ومضت تحدِّث نفسها: " كان ينبغي له أن يصارحنى بذلك! يجب أن أعرف الأمر على حقيقته، فلو عرفته لتبينت ما ينبغي أن أفعله!". ولم تستطع أن تصوِّر لنفسها الموقف الذي تمسى فيه إذا اقتنعت بتحول قلبه عنها! وأحست عقب التفكير في هذا الاحتمال بأنها توشك أن تتردي في هاوية اليأس.. فدقت الجرس لخادمتها ومضت إلى حجرة الزينة لترتدى أفخر ثيابها وتعد شعرها أجمل إعداد، وكأنما أرادت أن توقعه في غرامها من جديد إذا صح أن حبه لها بدأ يعتريه الفتور!

ثم سمعت الجرس يدق، فمضت إلى حجرة الاستقبال.. لكن عينيها التقيا بالأمير ياشفين أوَّلًا، أما فرونسكي فكان يتأمل صور سريوشا التي نسيتها متناثرة على المنضدة، ولم يبد عليه أنه يتعجل مقابلتها! وقالت " آنا " ترحب بالضيف وهي تضع يدها الصغيرة في

يده الضخمة: " لقد التقينا من قبل، في ميدان السباق خلال الموسم الماضي "، ثم انتزعت من يد فرونسكي - بحركة سريعة - صور ابنها، قائلة له وهي ترمقه بنظرة ذات معنى من عينيها الحادتين: " أعطني إياها!".

وبعد أن تحدَّث الثلاثة في شئون السباق وغيرها من الأمور فترة من الوقت - لاحظت " آنا " خلالها أن فرونسكي كان يكثر من النظر إلى ساعته! – نهض الأمير مستأذنًا في الانصراف، متسائلًا عما إذا كانت تعتزم البقاء طويلًا في بطرسبرج؟ فأجابته مترددة، وهي تنظر إلى فرونسكي: " كلَّا.. فيما أعتقد "، فقال الأمير: " إذن نلتقي ثانية؟ "، فقالت: " تعال لتتناول العشاء هنا معنا. إن الطعام عندنا ليس ممتازًا، لكنك سوف ترى فرونسكي على الأقل. إنه لا يشتاق إلى أحد من زملائه القدامي في الجيش مثلما يشتاق إليك!".. فقال: " حسنًا.. يسرنى أن أحضر!". ثم صافحها وانصرف، فسألت فرونسكى: " أذاهب أنت أيضًا؟". فأجابها: " الواقع أني تأخرت عن موعدي!". ثم صاح بالأمير الذي سبقه: " اذهب أنت، وسوف ألحق بك بعد لحظة! " وأمسكت " آنا " يده، وبقيت تحدِّق في وجهه صامتة، وتكد ذهنها

بحثاً عبارة تستطيع بها إغراءه بالبقاء!.. وأخيرًا قالت له: " انتظر لحظة، هناك شيء أود أن أقوله لك. هل كنت مصيبة في دعوة الأمير إلى العشاء؟". فأجابها فرونسكي بعد أن قبَّل يدها وابتسم لها ابتسامة صافية أظهرت أسنانه الناصعة: " لقد أحسنتِ صنعًا.. "، فاستطردت وهي تضغط يده بين راحتيها:

- فرونسكي، ألم يتغير شعورك نحوى؟ إني تعسة جدًّا هنا، فمتى نسافر!؟

- قريباً، قريباً.. إنك لا تعلمين مبلغ ضيقى أنا بنظام معيشتنا هنا!

وسحب يده من يدها، فقالت له بلهجة تحد، وهي تمضى عنه:

- حسنًا.. اذهب!

حينما عاد فرونسكي إلى الفندق، لم تكن " آنا " هناك!.. وقيل له إن سيدة جاءت لزيارتها ثم خرجتا معًا، فجعل يحدِّث نفسه: " عجبًا! ما معنى خروجهما على هذا النحو، دون أن تترك لى رسالة عن وجهتها؟ وما معنى تأخرها إلى هذه الساعة؟! بل ما معنى خروجها بلا علم منى؟ وتلك النظرة الغريبة المنفعلة التي بدت في عينيها، واللهجة

الحادة التي خاطبتني بها، وهي تنتزع صور ابنها من يدى أمام " ياشفين "؟ "

وانتهى فرونسكي من تفكيره إلى وجوب مفاتحتها في الأمر بصراحة، فجلس ينتظرها في حجرة استقبالها.. لكن " آنا " لم تعد وحدها، بل كانت معها عمتها العانس العجوز الأميرة أوبلونسكي، وكانت هي الزائرة التي حضرت وأخذت " آنا " معها منذ ساعات!.. و بدا على " آنا " أنها تلحظ قلق فرونسكى ونظراته المتسائلة، فمضت تتحدَّث في مرح عن تفاصيل جولتها مع عمتها بين المتاجر لشراء بعض الحاجيات. ورأى فرونسكي في عينيها اللامعتين، وحركاتها العصبية، ولهجتها السريعة في الكلام، أنها تخفى شيئاً! فكتم قلقه وانزعاجه على مضض، ريثما أعد الخدم العدة كي يتناول الأربعة العشاء معًا. وفيما هم يتأهبون للجلوس حول المائدة، أقبل رسول من قبل الأميرة بتسى يحمل رسالة منها إلى " آنا " تعتذر فيها عن تخلفها عن الحضور لزيارتها، ثم ترجو منها أن تذهب إليها في موعد حددته.. فقالت " آنا " للرسول وهي تبتسم ابتسامة واهنة:

- يؤسفني أني لن أستطيع الذهاب في هذا الموعد!

فقال الرسول: " إن هذا يسوء الأميرة ولا شك! "

فقالت: " وهو يسوؤني أيضًا!". وسكتت. فعاد الرسول يقول: " لعلكم ذاهبون لسماع (باتى) في الأوبرا؟ "، فقالت: " باتى؟ لم تكن لدى هذه الفكرة، ولكن لا مانع عندي من الذهاب إذا وجدت مقصورة في الأوبرا "، فقال: " إذا شئت ففي وسعى الحصول لك على مقصورة هناك!".. فقالت: " أكون شاكرة لك. هل لك أن تتناول العشاء معنا؟ "

ووجد فرونسكي نفسه في حيرة تامة أمام تصرفات " آنا "، وساءل نفسه في غيظ مكبوت عما دعاها إلى دعوة الأميرة " أوبلونسكي " للعشاء، ثم استبقائها رسول بتسي للعشاء أيضًا، فضلًا عن تفكيرها في الذهاب إلى الأوبرا، حيث ينتظر أن تلتقى هناك بجميع أفراد بيئتها الذين تقتضيها الحكمة أن تتجنبهم!.. ونظر فرونسكي إليها نظرة فيها كل تساؤله هذا، فما كان جوابها إلا أن حدجته بنظرتها المتحدية، التي تجمع بين المرح واليأس والتي لم يفهم مغزاها على الإطلاق! وحين حضر الأمير " ياشفين " وجلس الخمسة إلى المائدة، كانت " آنا "

بادية المرح والانطلاق، تكاد تغازل " ياشفين " تارة، وتغازل الرسول صديق بتسى تارة أخرى!.. فلما نهضوا عن المائدة مضى صديق بتسى ليحصل لآنا على تذاكر الدخول إلى الأوبرا، بينما هبط ياشفين مع فرونسكي إلى حجرته بالطابق الأسفل كي يدخنا ويتحدثا فيما يعنيهما من شئون. وحين صعد فرونسكي إلى جناح " آنا " بعد حين وجدها قد ارتدت ثوباً فاخراً من ثياب السهرة - كانت قد ابتاعته من باريس - عارى الصدر، مصنوعًا من الحرير الشفاف والقطيفة.. وحلت رأسها بغطاء من الدانتلا البيضاء الثمينة، فبدا جمالها الرائع في أبهى صوره! فقال لها متعمدًا ألا ينظر إليها:

- أذاهبة أنت حقًا إلى الأوبرا؟

- ولم تسألني بهذا الانزعاج؟.. لم لا أذهب؟!

فأجابها متجهمًا: " حقًّا.. ليس ثمة سبب على الإطلاق!".. على أنها تعمَّدت أن تتجاهل السخرية البادية في لهجته، وقالت وهي تتناول قفازها الطويل المعطر: " هذا ما أراه أنا أيضاً!". وعندئذ صاح بها ضارعًا، كما فعل زوجها يومًا:

- " آنا "، بحق السماء ماذا دهاك؟!

- لست أفهم ماذا تعنى!

- ألا تعلمين ما في ذهابك من مجازفة؟!

- لست ذاهبة وحدى، ستكون الأميرة معى!

فهزَّ كتفيه في حيرة ويأس، ثم أردف قائلًا: " هل تقصدين أنك لا تعلمين أن.."،. فقطعت كلامه صائحة: " لست أبالي! لست أبالى! أننى لست آسفة على ما فعلت! كلا! كلا!.. ولو أننى وجدت في الظروف ذاتها مرة أخرى ما تصرفت إلا تصرفي هذا نفسه!". ثم أردفت قائلة، دون أن تترك له فرصة للكلام: " فرونسكي.. إن كل ما يهمنا – كلينا - لا يعدو أمراً واحداً، هو: هل يحب كل منا الآخر أم لا؟ أما الناس فلسنا في حاجة إلى أن نعبأ بآرائهم. لِمَ لا أذهب؟ أنى أحبك، وإذا لم يكن شعورك قد تبدَّل فلست أبالي بأي شيء! لِمَ تتجنَّب النظر إلىَّ؟".

ونظر إليها.. فأخذت عيناه بجمال محياها، وأناقة ثيابها وزينتها، ولكن تصرفها على ذلك النحو بقى يحز في نفسه، فقال لها في ضراعة

ورقة، وإن بدا الفتور في عينيه: " أنت تعلمين أن شعوري نحوك لا يمكن أن يتغيّر، لكني أرجو، بل أتوسل إليك..".. ولم تسمع هي كلماته، إذ شغلها التفكير في الفتور البادي في عينيه، فقطعت كلامه قائلة: " وأنا أرجو أن توضِّح لى لِمَ ينبغي ألا أذهب!؟".

- لأن ذهابك قد يسبب لك...

وتردَّد.. فأردفت هي: " لست أفهم.. أن " ياشفين " ليس بالرجل الذي يثير الريب، والأميرة ليست أسوأ من الأخريات!.. أوه، ها هي قد ارتدت ثياب السهرة وعادت! "

حينما لحق فرونسكي بآنا في الأوبرا، كانت الأنوار قد أضيئت فتلألأ وهجها من مئات الشمعدانات والثريات، والتقت حماسة النظارة في عاصفة من التصفيق المدوى، إعجابًا بالمغنية الأولى، التي انحنت ترد لهم التحية وتبتسم وهي تتلقى عشرات من باقات الأزهار التي انهالت عليها من كل صوب!.. على أن فرونسكي لم يلق باله إلى هذه المظاهرة المألوفة، وجعل يدير بصره فيما حوله. كانت هناك المجموعة عينها من النساء، بصحبة المجموعة عينها من الرجال، التي ألف أن يراها في مثل هذه المناسبات!.. ولم يكن بصره قد وقع

بعد على " آنا "، لكنه عرف - من اتجاه النظرات - أين تجلس، فتعمَّد أن يتجنب الالتفات إلى ناحيتها! وأحس شيئاً من الارتياح حين تبين تخلف أليكسي عن الحضور إلى المسرح في هذه الليلة. ثم تناول المنظار المكبّر وراح يجيله في حذر في كل اتجاه.. وفجأة لمح رأس " آنا " الجميل الأبي، وقد رفت على فمها ابتسامة ساحرة، وأشرق وجهها داخل إطار الدانتلا البيضاء. كانت في المقصورة الخامسة، على قيد عشرين خطوة منه، جالسة في مقدمة المقصورة تتحدَّث إلى ياشفين! و ذكرته هيئتها بليلة رآها في الحفلة الراقصة في موسكو، لكن نظرته إلى جمالها تغيَّرت كثيراً عنها في المرة الأولى، وفقدت عنصر الغموض والفضول. وبرغم أن هذا الجمال قد إزداد بهاء وحدة، فقد بدا لعينيه وكأنه اكتسب طابع الأذى والخطر! وحين أدار فرونسكي منظاره ناحية المقصورة مرة أخرى رأى الأميرة تضحك ضحكاً متكلفاً وقد احمر وجهها، وراحت تلقى نظرات متقطعة إلى المقصورة المجاورة، بينما حرصت " آنا " على تجنب النظر في ذلك الاتجاه، واتخذ وجه ياشفين ذلك التعبير المألوف منه كلما خسر مالًا في القمار، وكان بدوره لا يفتأ يختلس النظرات إلى المقصورة المجاورة!

كانت تجلس في تلك المقصورة أسرة " كارتاسوف "، التي يعرف فرونسكى أفرادها، ويعلم أن " آنا " تعرفهم كذلك معرفة وثيقة. وكانت السيدة – مدام كارتاسوف - قد نهضت وأعطت ظهرها لآنا، بينما وقف زوجها – وهو رجل بدين أصلع - يعاونها على ارتداء معطفها. وكانت تتكلم في حدة، وقد شحب وجهها وبدا عليه الغضب، في حين أخذ زوجها يهدىء من ثائرتها ويلتفت بين حين وآخر إلى ناحية " آنا". فلما خرجت زوجته تلكأ بعدها برهة، كأنما يحاول أن تلتقى عيناه بعيني " آنا "، كي ينحنى لها محيياً.. لكن هذه حرصت فيما يبدو على تجاهله، فخرج آخر الأمر بدون أن يلقى إليها بالتحية.. وبقيت المقصورة شاغرة!

لم يستطع فرونسكي أن يفهم على وجه الدقة ما حدث بين أسرة كارتاسوف وبين آنا، لكنه استنتج مما لاحظه أن شيئًا ينطوى على إهانة لها قد وقع، ولا سيما بعد ما رأى وجه آنا يختلج، وأنها تحاول قمع اختلاجه جاهدة.. على أنها أفلحت على وجه العموم في الاحتفاظ بثباتها المتكلّف وإخفاء انفعالها عن كل من لا يعرف طبيعتها أوثق المعرفة، بحيث لم يكن ليدور في خلد من يراها إلا أن يعجب بحسنها

الباهر، دون أن يخالجه أدنى ريب في أنها تعاني في تلك اللحظات ما يعانيه المضارب في بورصة المال!

وانتابت فرونسكي حمى من الفضول واللهفة على معرفة ما حدث، فنهض متجهًا إلى مقصورة أخيه. وفي الطريق التقى بزوجة أخيه " فاريا "، فصافحته، وابتدرته قائلة في انفعال لم يلحظه عليها من قبل: " إنها ضعة وحقارة كريهة! ما كان يليق بمدام كارتاسوف أن تفعل ذلك. إن مدام كارنينا..".

- ولكن ما الذي حدث؟ لست أعرف شيئاً على الإطلاق!

- ماذا؟ ألم تسمع؟

- كلَّا! إني آخر شخص يمكن أن تبلغ إليه هذه الأخبار!

- ليس أحقر في رأيي من هذه " المدام كار تاسوف "!

- ولكن ما الذي فعلته؟

- لقد قص على زوجي أنها أهانت مدام كارنينا! كان زوجها قد بدأ يتجاذب أطراف الحديث مع " آنا " من مقصورته، فثارت ثائرة

زوجته وتفوهت بعبارة ماسة بآنا، بصوت مسموع، ثم غادرت المسرح على الفور! وفيما كان فرونسكي يتحدَّث مع زوجة أخيه، جاءه رسول من قبل أمه يدعوه إليها - وكانت في مقصورة أخيه الأكبر - فمضى إليها، وابتدرته قائلة في تهكم: " لقد انتظرنا حضورك طول الوقت، لكنك كنت مختفياً عن الأنظار!".

- مساء الخير يا أماه، ها أنذا قد جئت!

- لِمَ لا تذهب لمغازلة مدام كارنينا؟ إنها أكثر فتنة ولفتًا للأنظار من المغنية " باتى "!

- أمي، لقد سألتك ألا تحدثيني في هذا الموضوع مطلقاً!

- لست أقول غير ما تلوكه الألسنة كلها!

ولم يجب فرونسكي، بل بادر إلى الخروج وهو يحس بالدم يغلي في عروقه، وبأنه ينبغي أن يفعل شيئاً، لكنه لا يدري ما هو! إن قلبه مفعم غضباً على آنا لأنها وضعت نفسها ووضعته في مثل هذا الموقف الشائك، لكن قلبه مفعم بالشفقة عليها أيضاً!.. ومضى رأسًا إلى

مقصورتها، فانحنى لها، ووقف ليصافح الذين معها.. فابتدرته هي قائلة في تهكم: " أنك جئت متأخرًا، فقد فاتتك أروع أغنية!".

- أنى لست خبيرًا بالموسيقى على أي حال!

- مثل الأمير " ياشفين "، إن من رأيه أن " باتى " تغنى بصوت أعلى مما ينبغي!

.. ثم أطفئت الأنوار، فعاد فرونسكي إلى مقعده. لكنه لاحظ في منتصف الفصل الثاني أن مقصورة " آنا " قد خلت منها، فهرع خارجًا أثناء التمثيل، غير مبال بصهصهة الاستياء وطلب الصمت التي لاحقه بها بعض النظارة لتعكيره سكون القاعة!.. وحين بلغ الفندق وجد " آنا " قد سبقته إليه، ورآها جالسة على أحد المقاعد دون أن تخلع شيئاً من ثيابها، وقد شرد بصرها في الفضاء. فلما دخل، التفتت إليه، ثم عادت إلى وضعها السابق.. فصاح بها: " أنا!".. وإذ ذاك نهضت، وأجابته ودموع اليأس والكراهية تبلل صوتها:

- أنت، أنت المسئول عن كل ما حدث!

- لقد رجوت منك، توسلت إليك ألا تذهبي.. كنت أعلم أن السهرة سوف تكون غير سارة!

- غير سارة؟ بل فظيعة، لن أنساها ما حييت. لقد سمعتها تقول بأعلى صوتها: " إن من العار أن تجلس بجانب.. !".

- ثرثرة امرأة حمقاء! ولكن ما كان أغناك عن تعريض نفسك لمثلها، وتحدى الناس جميعاً!

- إني أمقت هدوءك! ما كان ينبغي أن تقودني إلى هذه النتيجة. لو أنك أحببتني!

- آنا؟! ما دخل موضوع حبى في هذا الشأن؟

- لو أنك أحببتني كما أحبك.. لو أنك تعذبت مثلى!

ونظرت إليه نظرة أسى ولوعة.. فرثى لحالها، وإن بقى غاضباً من تصرفها، ثم اضطر - كى يهدىء من ثائرتها - إلى أن يؤكّد لها حبه، ويكرِّر أدلته عليه.. ولم يوجه إليها أية كلمة لوم أو تأنيب!.. على أن توكيده لحبه - الذي بدا له أمراً مبتذلًا، خجل من النطق به – نزل على قلبها برداً وسلاماً.. ولم تمض برهة قصيرة حتى هدأت ثائرتها!

وفى الصباح كانا قد تصالحا تمامًا، فحزما أمتعتهما وشدا رحالها عائدين إلى الريف!

الفصل السادس

-19-

كانت دوللي وأطفالها يقضون الصيف في ضيعة ليفين - زوج شقيقتها كيتي - حين بلغها نبأ قدوم آنا وفرونسكي إلى ضيعة الأخير، لقضاء أسابيع. وبرغم بعد الشقة بين الضيعتين، قررت دوللي أن تذهب لتزور آنا، ولتظهر لها أن عواطفها نحوها لم تتغير. تبعًا لتغير موقفها ونظرة المجتمع إليها! وكانت دوللى تعلم بتوتر العلاقات بين ليفين وكيتى من جهة، وبين فرونسكي وآنا من جهة أخرى، وذلك منذ استئثار آنا بفرونسكي وعدوله من أجلها عن خطبة كيتى.. ومن هنا لم تشأ دوللى أن تستعير عربة ليفين، ذات الجياد الأربعة، كي تقلها إلى حيث تقطن آنا، وآثرت أن تستأجر عربة من إحدى حظائر القرية! لكن ليفين ما كاد يعلم بالأمر حتى أصر على أن تذهب في عربته، مؤكداً أنه لا يمانع البتة في زيارتها لمنزل فرونسكى!

وحين وصلت دوللي، بعد أن استغرقت الرحلة نهارًا كاملًا، استقبلتها آنا مرحبة، وبادرتها قائلة: " إنك تنظرين إلَيَّ وتعجبين،

كيف أستطيع أن أكون سعيدة في وضعي الحالي؟.. لكني في الواقع – وإن أخجلني أن أعترف بذلك - سعيدة كل السعادة! إن شيئًا أشبه بالسحر قد حدث لي. وكما تحسين بالراحة والغبطة حين تستيقظين من كابوس مرعب رهيب، كذلك أحسست أنا حين استيقظت من حياة التعاسة والخوف التي كنت أحياها وها أنذا الآن - ولا سيما منذ حضرنا إلى هنا - أستمتع بسعادة كاملة!".. وصمتت، وهي تنظر إلى ضيفتها وتبتسم في خجل.. فابتسمت دوللي بدورها وأجابتها، في لهجة جاءت برغمها أبرد مما أرادتها:

- لكم يسرنى أن أسمع منك ذلك. لماذا لم تكتبى إلىّ؟

- لماذا؟ لأني لم أجد الشجاعة الكافية. إنك تتناسين موقفى!

- معى أنا لا تجدين الشجاعة؟ ليتك علمت كيف كنت.. إنى أرى..

ولم تتم عبارتها، إذ شعرت بأنه قد فات أوان التعبير عن أفكارها، وفي أثناء ترددها سألتها آنا:

- كيف ترين موقفى؟.. وماذا تعتقدين في صدده؟

- لست أعتقد شيئاً سوى أنى كنت دائما - وما أزال – أحبك، وإذا أحب الإنسان شخصًا فإنه يحبه كما هو في الواقع، لا كما ينبغي أن يكون!

وحوّلت آنا عينيها عن وجه صديقتها، وأرخت أجفانها وقد بدا عليها التردد، كما لو كانت تحاول التعمق في المعنى الحقيقى الكامل لكلام ضيفتها! وإذ انتهت إلى تفسيره كما بدا لها، عادت تنظر إليها وتقول: " أيًّا كان رأيك، فأنا سعيدة بحضورك لزيارتي وأشكر لك هذه العاطفة النبيلة!".. ورأت دوللي الدموع تطفو على عين صديقتها، فضغطت يدها في صمت.. وعندئذ استدارت آنا إليها متسائلة: " هل في استطاعتك البقاء هنا بعض الوقت؟ يومًا واحدًا مثلًا؟ أحسب ذلك مستحيلًا!".

- لقد وعدت بالعودة مباشرة، ثم هناك الأطفال ..

- لا.. لا يا عزيزتي دوللى! على أي حال سوف نرى.. تعالى معى، تعالى!

ثم قادتها إلى غرفة الضيافة الأنيقة، وقالت لها وهي تجلس بجانبها: " كم أنا سعيدة يا عزيزتي. حدثيني عن كل أمورك.. كيف حال ابنتك اللطيفة " تانيا "، أحسبها غدت صبية كبيرة الآن؟".

- نعم، وطويلة القامة جداً. لقد قضينا أيامًا ممتعة في ضيافة ليفين.

- آه لو كنت أعلم أنك لا تضمرين لى احتقارًا، لدعوتكم جميعاً إلى قضاء أيام عندنا. إن ستيفان صديق قديم لفرونسكى!

واصطبغ وجه آنا فجأة بحمرة الخجل، من إشارتها إلى عشيقها.. فأجابت دوللي في ارتباك: " نعم، لكننا جميعاً..".. وحين لاحظت آنا ترددها، قاطعتها وهي تقبلها مرة أخرى: " يبدو أن فرحتى تجعلني أهذي بترهات.. الشيء المهم في الأمر كله يا عزيزتي أني جد مغتبطة بزيارتك، لكنك لم تذكرى لى حتى الآن: ماذا تعتقدين في؟ لشد ما يشوقني أن أعرف! وإنه ليسرنى أن تريني كما أنا، على حقيقتي. إنى لا أبغى غير أن أعيش، ولا أؤذي أحدًا غير نفسي! - فلست أملك حق

إيذاء الغير! - لكن هذا موضوع شائك، وسوف نتكلم فيه بالتفصيل فيما بعد!".

وكان موعد العشاء ما يزال باقيّاً عليه حوالى ساعتين، فاقترح فرونسكي على آنا أن يأخذا ضيفتهما إلى نزهة في الحديقة يستقلون بعدها زورقاً للتنزه في النهر.. وسرعان ما نفذا هذا الاقتراح. وقد أعجبت دوللي بكل شيء رأته، ولا سيما بشخصية فرونسكي، ومرحه الطبيعي، وبساطته المحببة، فحدّثتها نفسها غير مرة قائلة: " نعم، إنه رجل ظريف حقًّا، وطيب " وكم من مرة حاولت وهي تراقبه أن تضع نفسها موضع آنا وتنظر إليه من هذه الزاوية، فكانت في كل مرة تلتمس لآنا العذر في كونها أحبته!.. وفيما كانوا يتجولون في الحديقة، انتهز فرونسكي فرصة انشغال " آنا " بتفقد الجياد في حظائرها، وهمس لدوللي وهو يرمقها بعينين ضاحكتين: " هناك شيء أحب أن أقوله لك: إنك صديقه لآنا وهي شديدة الشغف بك، فهل لك أن تساعديني في إقناعها بأمر، من الخير لها أن تقتنع به؟".. ثم سار بجوار ضيفته صامتاً بعض الوقت، وعاد فأردف: " إنك وحدك - دون صديقات آنا القديمات - التي حضرت لزيارتنا! لكنى واثق بأنك لم

تفعلى ذلك لأنك تعتبرين موقفنا طبيعيّاً لا غبار عليه، بل لأنك تفهمين كل المصاعب التي تكتنف هذا الموقف، وما زلت تحبين " آنا " وترغبين في مساعدتها.. أليس كذلك؟".

- أوه، نعم.. ولكن..

- كلا، ما من شخص يشعر بحرج موقف " آنا " في حدة وتعمق مثلما أشعر به أنا! وإذا منحتنى شرف الافتراض بأنى أملك قلباً بين جوانحي، فلا شك أنك تفهمين جيداً أني أنا المسئول عن هذا الوضع الأليم، وهذا ما يزيدني شعوراً به!

- أفهم قصدك، ولكن لأنك تعتبر نفسك مسئولًا، فأنت فيما أعتقد تغالي في الأمر، وإن كنت مقتنعة بحرج موقف " آنا " إزاء المجتمع!

- بل إنه الجحيم بعينه! وليس في استطاعتك تصور آلام نفسية أفظع مما قاسته " آنا " في بطرسبرج خلال الأسابيع الأخيرة!

- هذا صحيح، ولكن ما دمتما لا تشعران هنا بحنين أو شوق إلى المجتمع..

- المجتمع؟ كيف يمكن أن أشتاق إليه؟

- إنك حتى الآن - وربما إلى الأبد - سعيد وساكن النفس. وما أراه من " آنا " يحملني على الاعتقاد بأنها هي الأخرى سعيدة، سعيدة جداًا! لقد قالت هي ذلك بلسانها!

- نعم، نعم.. أعلم أنها قد انتعشت الآن، بعد كل ما قاسته، وأنها سعيدة.. سعيدة في الحاضر! لكني.. لكنى أخشى ما ينتظرنا في المستقبل، فهل يمكن أن تدوم هذه السعادة؟.. لسنا الآن بصدد تقدير ما انطوى عليه تصرفنا من صواب أو خطأ، فإن هذا لن يغير شيئًا من الحقيقة الواقعة: وهي أننا غير مرتبطين معاً برباط مشترك مدى الحياة!.. وبرغم أنه تربطنا جميع وشائج الحب التي نقدسها - فقد أنجبنا طفلًا، وربما ننجب أطفالًا آخرين! – إلا أن القانون، وشتى ملابسات موقفنا، تضع فى طريقنا آلافًا من العقبات والعوائق التي لا تراها آنا، ولا تريد أن تراها!.. في حين أننى لا أملك إلا أن أرى هذه العقبات.. من ذلك مثلًا أن ابنتي هي بحكم القانون ابنة أليكسي وليست ابنتى، وأنا لا أستطيع تحمل هذا الزيف!.. وغدًا قد يولد لنا ولد .- هو ابني أنا - لكنه بدوره سوف يحسب قانوناً ابن أليكسي، فلا

يرث اسمى ولا أملاكي!.. ومهما نكن سعداء في حياتنا الخاصة، ومهما نرزق بأطفال، فلن تكون بيننا رابطة حقيقية - ولعلك تقدرين مرارة هذا الوضع! – ولقد حاولت أن أكلم " آنا " في هذا الموضوع، فكان ذكره يثيرها دائماً! إنها لا تفهم الموقف كما ينبغى، بل إننى لا أستطيع التحدث إليها بصراحة في شأنه!.. ثم انظري إلى الأمر من ناحية أخرى: إنى سعيد حقًّا بحبها، لكنى ينبغى أن أجد لى عملًا أشغل فيه وقتى وجهدي. وقد وجدت هذا العمل، وأنا فخور به وأعتبره أنبل من وظائف زملائي القدامى في الجيش والبلاط. إنى أعمل هنا وقد استقر في المقام في مكاني المناسب، وأنا سعيد قانع، ولسنا في حاجة إلى شيء آخر يكمل سعادتنا. إنى أحب عملى هنا، والواقع أنه..

ولاحظت دوللى أن فرونسكي اعتراه اضطراب، وأنه يجاهد لكى يفضى إليها بدخيلة نفسه.. لكنه تمالك جأشه بعد حين واستطرد: " غير أن العامل الأهم في الأمر كله هو أني أريد أن أشعر وأقتنع عن يقين – وأنا أعمل – بأن عملي لن يموت بموتى، وبأنه سيكون لى ورثة يخلفونني.. وهذا ما ينقصنى الآن.. فبربك تدبرى موقف رجل يعلم أن أطفاله، وأطفال المرأة التي يحبها، لن ينتسبوا إليه.. بل لابد من

انتسابهم إلى شخص آخر يمقتهم ولا يعتني بهم أو يقيم لهم وزنًا!.. إنه لأمر فظيع!".

ثم أطرق وقد غلبه التأثر.. فقالت له دوللى: " هذا كله صحيح ومفهوم، ولكن ماذا تستطيع " آنا " أن تفعل؟".. فأجابها فرونسكى: " هذا يؤدي بي إلى هدف كلامي: تستطيع " آنا " أن تفعل الكثير، والأمر يتوقف عليها دون سواها.. فحتى لو تقدمنا للقيصر بطلب إقرار شرعية نسب الأطفال، فإن الطلاق يظل أمرًا لا بد منه.. وهذا يتوقَّف على رغبة " آنا "! فقد وافق زوجها على الطلاق – وكان لزوجك فضل إقناعه بذلك - وهو لن يمانع فيه الآن فيما أعتقد، فكل ما يحتاج الأمر إليه أن تكتب " آنا " خطابًا بهذا المعنى. صحيح أن مطالبته إياها بهذا الخطاب فيها شيء من القسوة – وإنى لأقدّر العذاب الذي تسببه لآنا كتابة خطاب كهذا! - لكن المسألة من الأهمية بحيث لا يبقى مفر من التجاوز عن الاعتبارات العاطفية، سيما وأن الأمر يتوقّف عليه سعادة آنا وسعادة أطفالها - ولن أتحدث عن نفسي، برغم الآلام، التي أقاسيها من جراء محاولتي إقناعها بأن تكتب إليه، وتطلب منه الطلاق! "

فأجابت دوللى كالحالمة، وهي تذكر حديثها الأخير مع أليكسي: " بكل تأكيد.. بكل تأكيد!".. بينما استطرد فرونسكى يناشدها: " في استطاعتك أن تستخدمى نفوذك عندها، لتجعليها تكتب إليه.. فإني لا أرغب – بل لعلى لا أقوى - على أن أتحدّث إليها في هذا الشأن!".. فقالت دوللى: " حسن جداً سوف أحدثها في الأمر. ولكن كيف لا تفكِّر هي فيه، من تلقاء نفسها؟".. ثم شردت لحظة، وعادت تكرِّر، جواباً على نظرة الشكر التي بدت في عينيه: " نعم، بلا شك.. من أجلي أنا نفسى، ومن أجلها هي، سأحدثها في الأمر! "

كانت دوللي تتهيأ للمضى إلى فراشها، حين دخلت " آنا " عليها مرتدية ثياب النوم. وكانت " آنا " قد شرعت أكثر من مرة - خلال النهار - في التحدث إلى صديقتها عن أمورها الخاصة، لكنها كانت تتوقّف في كل مرة قائلة لنفسها: " فيما بعد، حين نخلو إلى أنفسنا، سوف نتحدث في كل شيء.. فإن عندي الكثير الذي أود أن أفضى به إليها".. على أنها بعد أن خلت إليها في هذه الساعة المتأخرة من الليل، لم تدر كيف تبدأ الحديث، فجلست إلى جوار النافذة تنظر إلى دوللى، وتستعرض في مخيلتها كل ما اختزنته من موضوعات خاصة كانت

تبغى أن تفضى بها إليها، فلم تجد بينها ما يصح الإفضاء به! لقد خُيل إليها الآن أن كل شيء قد قيل واستنفد بحثاً!.. فآثرت أن تفتح الحديث من باب آخر. قالت وهي تتنهّد: " ما أنباء كيتى؟. صارحيني القول يا دوللى، أليست غاضبة منى؟".

- غاضبة؟. أوه، كلا!

- لكنها ولا شك تكرهني.. تحتقرني؟!

- كلا! لكنك تعلمين أن هذه الأشياء لا تغفر بسهولة!

- نعم، أعلم ذلك. لكني لم أكن الملومة. ومن الملوم في هذا الأمر؟ وما معنى اللوم في صدد شيء كهذا؟ هل كان يمكن أن يحدث غير ما حدث؟ ماذا ترين أنت؟ هل كان يمكن ألا تصبحي أنت زوجة لستيفان؟

- في الواقع، أنا لست أدرى! وهذا ما أريد أن أعرفه منك.

- حسناً، لكننا لم ننته بعد من حديث كيتي، أهي سعيدة؟ يقولون إن زوجها رجل ظريف..

- إنه أكثر من ظريف، بل لست أعرف رجلًا أفضل منه على الإطلاق!

- لكم يسرنى ذلك!

- ولكن دعينا من هذا وحدثينا عن نفسك، فأمامنا أشياء كثيرة نتناقش فيها. وقد كان لى حديث طويل في هذا الشأن مع.. فرونسكى!

- أعرف فيم تحدثتما.. لكنى أردت أن أسألك أوَّلًا عن رأيك في.. في حياتي؟

- وكيف أستطيع أن أقطع في هذا برأى سريع؟ في الواقع لست أدرى..

- بل صارحينى برأيك على أي حال.. ولكن ينبغي ألا تنسى أنك ترييننا في الصيف، وأنك الآن معنا ولسنا وحيدين.. أما يوم جئنا فقد كنا في الربيع، نعيش وحدنا، وسوف نعود فنغدو وحيدين.. ولست أطمع في شيء أفضل من هذا. ولكن ماذا قال لك هو حين تحدث إليك؟

- قال ما أحب أنا أيضًا أن أقوله، وفى وسعى أن أنوب عنه في الحديث بسهولة، في صدد الحديث عن استعدادك لأن تصححى موقفك.. أعنى أن تتزوجا!

- تعنين أن أحصل على الطلاق؟.. أننى لست زاهدة في هذه النتيجة، وليس أدل على ذلك من أن المرأة الوحيدة التي زارتني في بطرسبرج كانت " بتسى تفرسكوي " التي تعرفين أنها أحقر امرأة وجدت على سطح الأرض. لقد خانت زوجها مع " توشكيفتش " على أحط صورة يمكن تصورها!.. فهل تعلمين ماذا قالت لي؟ إنها لا تريد أن تكون لها صلة بي ما دام موقفى غير سليم!.. والآن، ماذا قال لك فرونسكي عنى؟

- إنه قلق عليك، وعلى نفسه. قد تقولين: إن هذه أنانية لكنها أنانية مشروعة ونبيلة. إنه يريد أول كل شيء أن يقرر شرعية نسب ابنته، وأن يصير زوجًا لك، له عليك حقوق الزوج القانونية!

- إن أية زوجة بل أية امرأة لا يمكن أن تكون خاضعة له مثلى في موقفى الحاضر!

- لكنه لا يريد أن تشقى أنت وتتعذبي..

- هذا مستحيل!.. ثم ماذا يريد أيضاً؟

- يريد أن يكون لأطفالكما اسم ينتسبون إليه!

- أي أطفال؟

- ابنته " آنى "، وأولئك الذين سوف يجيئون..

- لا داعي لأن يشغل ذهنه بالتفكير في هذا الموضوع، فلن يكون لى أطفال آخرون!

- كيف تجزمين بذلك؟

- أجزم لأني لا أريد أطفالًا بعد الآن!

وإذ لمحت " آنا " على وجه دوللى علائم الفضول والعجب، والذعر الساذج، لم تملك إلا أن تبتسم وتبادر إلى إيضاح كلامها قائلة: " لقد صارحنى الطبيب بعد مرضى بأني لن أرزق أطفالًا آخرين!".

- إذن فهذا أدعى إلى أن تصححي موقفك ما استطعت!

- نعم، ما استطعت!

- لعلك لا تعنين أن حصولك على الطلاق أمر مستحيل.. فقد قيل لي إن زوجك وافق على الطلاق!

- دوللى، لست أريد الإفاضة في هذا الموضوع!

- إذن فلن نفيض فيه. كل ما أريد أن أقوله إنك تنظرين إلى الأمور نظرة متشائمة.

- دوللى، ألا ترين حرج موقفى؟ إنى أحاول أن أتجاهل الأمر تمامًا لو استطعت!

- لكني أعتقد أنك ينبغي ألا تفعلى.. ينبغي أن تبذلى كل ما في وسعك.

- وماذا في وسعى؟ لا شيء. تطلبين إليَّ أن أتزوج من فرونسكي، وتحسبين أنى لا أفكر في هذا الأمر؟!

وصعد الدم إلى وجهها، ثم نهضت فتمطَّت وزفرت زفرة حرى من قلب مثقل، ثم راحت تذرع المكان ذهاباً وجيئة وهي تستطرد: " إنى أفكِّر فيه، وألوم نفسي على تفكيرى فيه! إن هذا التفكير قد يفقدنى عقلى. نعم، يفقدنى عقلى!.. فكلما فكرت فيه أجدنى لا أستطيع النوم

بغير " المورفين "!.. ولكن دعينا من ذلك، ولنتكلم في هدوء. يقولون لي: الطلاق!.. وأول جواب لى على هذا: أنه لن يمنحنى الطلاق! إنه الآن خاضع لتأثير الكونتة ليديا إيفانوفنا! "

انتصبت دوللي في جلستها، وأدارت رأسها تتبع " آنا " حيثما راحت، بوجه يبين فيه الإشفاق والتألم لصديقتها.. ثم قالت في هدوء ونعومة:

- في وسعك أن تحاولى على الأقل!

- افرضى أني حاولت.. فماذا يعني هذا؟ يعني أن أذل نفسي كي أكتب إليه، أنا التي أكرهه، مسجلة على نفسي أني قد أثمت في حقه، وأنه نبيل غفور!.. ثم افرضى أني حاولت ذلك، فماذا تكون النتيجة؟ إما أن أتلقى رفضًا مهيناً، أو قبولًا مذلًا!.. على أننا لو سلمنا جدلًا بأني تلقيت منه رداً بالقبول.. فماذا يكون من أمر ابني؟.. إنهم لن يعطونى إياه. وسينشأ طاوياً قلبه على الاحتقار لى، مثل أبيه الذي هجرته!.. أترين؟.. إنى أحب " سريوشا " و " فرونسكي "، بالتساوى فيما أعتقد.. أحب كلاهما أكثر مما أحب نفسي!

ثم أقبلت فوقفت في مواجهة دوللي وقد عقدت يديها على صدرها، وأردفت: " هذان هما المخلوقان اللذان أحبهما، لكن كل واحد منهما يطرد الآخر من حياتي!.. ليس في وسعى أن أحصل عليهما معًا، وإن كان ذلك كل ما أتمناه. ولما كنت لا أستطيع الحصول عليه، فليس يهمنى بعد ذلك شيء آخر من شئون دنياى.. لست أعبأ بأي شيء فيها على الإطلاق، وليكن ما يكون! لذلك لست أطيق، ولا أريد، أن أتحدث في هذا الموضوع.. فبربك لا تلوميني! إنك بقلبك النقي لا تستطيعين أن تفهمي العذاب الذي أقاسيه!".. ثم أقبلت فجلست إلى جوار دوللي، وحدّقت في وجهها، ثم تناولت يدها قائلة: " فيم تفكرين ماذا ترين في؟ لا تحتقريني، فلست أستحق الاحتقار.. إنى، بكل بساطة، شقية تعسة.. ولئن كانت في الدنيا امرأة واحدة شقية تعسة فهي أنا!".

ثم أجهشت بالبكاء، وخرجت من غرفة ضيفتها لا تلوى على شيء!.. وحين وصلت إلى غرفتها تناولت قدحًا فقطرت فيه بضع قطرات من دواء كان أهم محتوياته " المورفين". و بعد أن جرعته

جلست ساكنة بعض الوقت، ثم مضت إلى فراشها وقد تحسنت حالتها النفسية إلى حد ما!

وفي الصباح، وبرغم احتجاجات آنا وفرونسكي، استقلت دوللي العربة التي أحضرتها، عائدة أدراجها إلى ضيعة " ليفين " زوج شقيقتها كيتى..

-20-

قضى " فرونسكى " و " آنا " الصيف كله وجانباً من الشتاء في الريف، يعيشان في مثل الظروف التي لمستها دوللى خلال زيارتها لهما، دون أن يتخذا أية خطوة إيجابية في سبيل الطلاق المنشود، أو يختلطا بأحد من الناس.. فلما حل الخريف بدآ يسأمان حياة العزلة ويفكران في تغييرها، على صورة ما.. وصادف أن حلّ في أكتوبر موعد الانتخابات المحلية في منطقة (كاسننسكي)، حيث تقع أملاك فرونسكي و أوبلونسكي وليفين وغيرهم، وكانت الانتخابات المذكورة حدثاً استرعى عناية الجماهير وأحاديثها في كل مكان، فتوافد الناس من أجلها من موسكو وبطرسبرج كى يشتركوا في معمعتها.. فلما فاتح فرونسكي آنا برغبته في الاشتراك في المعركة، لتأييد أحد المرشحين من أصحاب الفضل عليه، عارضت في سفره ووقعت بينهما مشادة تركت أثراً سيئاً في نفسية كليهما. ثم حان موعد رحيله إلى الإقليم الذي يجرى فيه الانتخاب، فدخل على آنا وهو يتوجس شرّاً، ويعد نفسه لمشادة أخرى، لكنها قابلت نبأ سفره بهدوء غير متوقع، واكتفت بسؤاله عن موعد عودته، وهي تبتسم ابتسامة من تزمع في نفسها

أمراً!.. وتجاهل هو ذلك، تجنبًا للاشتباك في معركة أخرى، محاولًا أن يقنع نفسه بأن استسلامها ما هو إلا نتيجة تعقلها ورجوعها إلى رشدها.. فاكتفى بأن قال لها: " أرجو ألا تتضايقي أثناء فترة غيابي! "، فأجابته: " كلا! لن أتضايق. لقد تلقيت أمس في البريد طائفة من الكتب الجديدة، وسأعكف على مطالعتها!". وبعد أن تبادلا قبلات الوداع، خرج فرونسكي وهو يحدث نفسه: " إني أستطيع التفريط من أجلها في كل شيء، ما عدا استقلالي الشخصي!".. لكنه لم يشأ الاعتراف لنفسه بأن من أهم العوامل التي أغرته بالمشاركة في المعركة الانتخابية شعوره بالسأم من حياته في الريف، ثم رغبته في أن يظهر لآنا حرصه على صيانة حقه في الاستقلال!

وفي اليوم السادس لرحلته، أقام فرونسكي مأدبة تكريم لمرشحه الذي فاز في الانتخاب. وبعد أن أكل المدعوون وشربوا وقضوا وقتاً طيباً، فوجىء الداعي بخادمه الخاص يدخل عليه حاملًا خطابًا أحضره رسول خاص من الريف! وأدرك فرونسكي قبل أن يطلع على الخطاب أنه من آنا، وأنها تلومه فيه لأنه لم يعد في نهاية الأيام الخمسة التي

حددها لغيبته! واستنتج أن خطابه الذي أرسله إليها في اليوم السابق موضحًا فيه ظروف تأخيره لم يصل إليها بعد.

وكان الخطاب كما توقَّع، لكن اللهجة التي كتبته بها ضايقته، فقد قالت له: " إن الطفلة " آنى " مريضة جداً، ويخشى الطبيب على حياتها، الأمر الذي يكاد يفقدنى عقلى! وقد انتظرتك أول أمس، وها أنذا أكتب إليك هذا الخطاب لأعرف أين أنت وماذا تفعل. لقد فكرت في الذهاب إليك بنفسي، لكني خشيت أن تستاء من ذلك. أرسل إلَيَّ ردًّا كي أعرف ما ينبغي أن أفعل!".. وساءل نفسه حائراً: " الطفلة في خطر، والأم تفكِّر في الحضور؟! الطفلة في خطر، وأمها تكتب إلى أبيها بهذه اللهجة العدائية؟!.. أي تناقض هذا؟!". وأحس - للمرة الأولى - أن كاهله لم يعد يقوى على حمل الأثقال التي يراكمها عليه حب آنا! لكنه لم يجد مفرًا من العودة إليها، فاستقل أول قطار في تلك الليلة، عائداً إليها وكأنه عائد إلى سجن!

وكانت " آنا " قد أحسَّت - قبيل رحيل " فرونسكى "، وعلى أثر المشادة الأولى - أن تكرار المناقشات الحامية بينهما كلما فكر هو في السفر لن ينتج غير إطفاء شعلة حبه لها، بدلًا من إضرام لهيبها،

فقرَّرت أن تبذل كل ما في وسعها كي تتمالك نفسها لتتحمل الفراق بجأش ثابت. لكن النظرة الباردة القاسية التي تسلح بها وهو داخل عليها ليودعها قبيل سفره قد جرحتها. وقبل أن يخرج كانت سكينة نفسها التي استنجدت بها قد تزعزعت وانهارت!.. وحين خلت لنفسها بعد ذلك، واستعادت ذكرى تلك النظرة التي عبَّرت عن اعتداده بحقه في الحرية، انتهت إلى حيث كانت تنتهى عقب كل أزمة نفسية من هذا النوع. أحست مدى " مذلتها " في حياتها معه، وأخذت تُحدِّث نفسها قائلة: " إن له الحق في أن يذهب وقتما يحلو له، وحينما يريد. يذهب ويتركنى! بل إن له هو كل الحق، وليس لي أنا أي حق! وما تلك النظرة الباردة التي رمقني بها إلا بداية عدم الاكتراث، الذي هو أول نذر انطفاء الحب! "

وبرغم يقينها بأن " برودًا " ما من ناحيته بدأ يظهر ويتفاقم، فإنها لم تكن تملك أن تفعل شيئًا! لم يكن في وسعها أن تغير صلتها به. وكما هو الأمر دائماً، كان الحب والفتنة هما السلاحان الوحيدان اللذان تستطيع بهما أن تحتفظ به. ومن ثم صارت تشغل نفسها بشتى وسائل التسلية خلال النهار، وتلجأ إلى " المورفين " في الليل، كى

تخنق الفكرة الرهيبة التي لا تفتأ تراودها: فكرة ما عساه أن يحدث لو أنه كفَّ يومًا عن حبها، وتحوّل قلبه عنها!.. وإزاء خطورة الاحتمال، استقر عزمها على أن تسعى إلى تطليق زوجها والاقتران به هو، عند أول فرصة تسنح لذلك!

وقضت الأيام الخمسة بعد رحيله، وليس ثمة ما يخفف من عذابها غير التهام الكتب التي جاءتها، كتاباً بعد كتاب، والخروج للمشى بين المزارع والحقول بصحبة إحدى صديقاتها.. فلما حلّ اليوم السادس ولم يعد، شعرت بعجزها المطلق عن طرد الأفكار السوداء من رأسها. ثم حدث أن مرضت الطفلة فجأة، ولكن انشغالها برعايتها لم يحول أفكارها عن اتجاهها السابق، ولا سيما أن المرض لم يكن خطيراً. فلما حل المساء بلغ انزعاج " آنا " وقلقها لطول غيبة فرونسكى حداً جعلها تقرِّر السفر فوراً للحاق به! لكنها حين أمعنت الفكر في الأمر انتهت إلى إيثار كتابة ذلك الخطاب الجاف الذي تسلمه فرونسكي خلال مأدبته الانتخابية!.. ودون أن تعمد إلى مراجعة الخطاب بعد كتابته أرسلته من فورها مع رسول خاص. وفي الصباح التالي تسلمت رسالته التي برَّر فيها تأخره، فأسفت على تعجلها

بالكتابة إليه. وخشيت أن يحدجها حين يعود بمثل تلك النظرة الباردة القاسية التي ودعها بها، ولا سيما حين يعلم أن مرض الطفلة لم يكن خطيراً!

وهنا لم يسع " آنا " إلا أن تعترف لنفسها بأنها غدت حملًا على كاهل فرونسكى، وأن خطابها سيلجئه إلى التخلي عن حريته كارهًا كي يعود إليها!.. لكنها برغم ذلك لم تملك نفسها من أن تسر لقرب عودته، وبأنه سيكون إلى جانبها بعد حين! وكانت جالسة في غرفة الاستقبال إلى جوار مصباح تقرأ كتاباً جديداً للفيلسوف " تين "، وتصغي لصفير الريح في الخارج، وهي تتوقَّع وصول العربة التي تقله في أية لحظة.. وكم من مرة خُيل إليها أنها سمعت صوت العجلات، ثم تبينت خطأها! وأخيرًا سمعت الصوت المنشود، يتلوه صياح الحوذي وضجيج الخدم في مدخل الدار، فنهضت واقفة وقد صعد الدم إلى وجهها. خشيت لحظة اللقاء كما تخشى الخطر الداهم، لئلا يقابلها بذلك التعبير الذي ينم عن الاستياء، وتلك النظرة الباردة!.. سيما وأن الطفلة قد تماثلت للشفاء في اليومين الأخيرين! وأحست بحقد على

الصغيرة الخبيثة التي بدأت صحتها تتحسن منذ كتبت إلى أبيها.. ثم انتقلت بتفكيرها إليه هو، إنه هنا، بلحمه ودمه.. بيديه، وعينيه!

.. وسمعت صوته، فنسيت كل شيء وجرت تهبط الدرجات عدواً نحوه، فرحة مرحبة. وسألها مشفقاً وهو في أسفل السلم: " كيف حال آنى؟".

- أوه، إنها في تحسن..

- وأنتِ؟

فأخذت يده بين يديها وجذبتهما إلى خصرها، دون أن تحول بصرها عنه.. فقال وقد فهم جوابها: " هذا يسرنى". ومضى يتفرس فيها، في برود: في شعرها، وثوبها - الذي أدرك أنها قد ارتدته خصيصاً من أجله! – كان كل شيء فيها جذاباً، ولكن كم من مرة نقم على تلك الجاذبية التي تفتنه؟!.. واستقر على وجهه ذلك التعبير الجامد المتحجر الذي طالما خشيته، فحدَّثت نفسها: " لا بأس، يكفى أنه معى. وما دام معى فهو لا يستطيع، ولا يجرؤ أن يكف عن حبى!".

وقضى الاثنان السهرة في مرح، وعرفت " آنا " كيف ترضى غروره فمهدت له بأسئلتها السبيل إلى التحدث عن نجاحه الانتخابي، وحدثته عن كل شيء يهمه أن تتحدث فيه.. لكنها لم تكد تخلو إليه في موهن الليل، وتوقن من استردادها زمام السيطرة عليه، حتى حنت إلى إزالة التأثير السىء لتلك النظرة الباردة التي قابلها بها جزاء على خطابها.. فسألته: " صارحنى القول، هل ضايقك خطابى؟ وهل شككت في صدقه؟". وبمجرد إلقائها السؤال أحست أنه مهما كانت حرارة شعوره نحوها فإنه لم يغفر لها ذلك.. وقد حقق جوابه ظنها، إذ قال: " نعم، فقد كان غريب اللهجة.. في بدايته تتحدثين عن مرض الصغيرة، وفي نهايته تفكرين في اللحاق لي!".

- كان الأمران صدقاً!

- أوه، لست أشك في ذلك!

- بل أنت تشك.. إنك متضايق فما أرى!

- كلا! كل ما يضايقنى حقاً أنك تظهرين أحياناً بمظهر غير الراغبة في الاعتراف بأن هناك واجبات.. ولكن يحسن بنا ألا نتكلم في هذا الأمر!

- ولِمَ لا نفعل؟

- إن أموراً ذات أهمية حقيقية قد تلوح في الأفق أحياناً! فالآن مثلًا، أراني مضطرًا إلى السفر إلى موسكو لتدبير بيت لنا.. أوه يا آنا! لم تثورين لأتفه الأمور؟ ألا تعلمين أني لا أستطيع العيش من غيرك؟

- إذا كنت تنوى السفر، فهذا يعني أنك قد سئمت هذه الحياة. نعم، إنك ستتخذ خطة جميع الرجال: تأتى لتقضى يوماً واحداً ثم ترحل من جديد!

- هذه قسوة منك. إنى على استعداد لأن أضحى بحياتي كلها..

- إذا ذهبت إلى موسكو فسأذهب معك، لن أبقى هنا! إما أن نعيش معاً، وإما أن..!

- أنتِ تعلمين أن حياتنا المشتركة هي أمنيتي الوحيدة، ولكن في سبيل ذلك..

- يجب أن نحصل على الطلاق؟ حسنًا! سأكتب إليه في هذا الشأن، فلست أطيق الاستمرار على هذا المنوال. لكنى سأذهب معك إلى موسكو!

- إنك تتكلمين بلهجة التهديد، في حين أني لا أتمنى شيئاً قدر ما أتمنى ألا نفترق قط!

نطق بهذه العبارة وهو يبتسم، وقد لمعت في عينيه، لا نظرة باردة فحسب، وإنما نظرة الحقد التي تصدر من رجل اضطهد إلى الحد الذي جعله قاسي القلب!.. وقد لاحظت هي النظرة وفهمت معناها. كانت النظرة تقول لها: " إذا كان الأمر كذلك، فهي مصيبة فادحة! " ولم تستطع آنا أن تنسى شعورها في تلك اللحظة حتى آخر أيامها!

وعلى أثر هذا النقاش كتبت " آنا " إلى زوجها تسأله الطلاق!

وقرب نهاية نوفمبر صحبت فرونسكي إلى موسكو، حيث ظلَّت تنتظر كل يوم جوابًا من أليكسي، يتلوه الطلاق.. وفي ظل هذه الأمنية، اتخذ العشيقان لنفسيهما مسكناً مشتركاً، عاشا فيه علانية كزوج وزوجة!

الفصل السابع

-21-

اقترب موعد وضع " كيتى " مولودها الأول، فانتقلت الأسرة إلى موسكو لتكون الوالدة ووليدها في رعاية الأطباء، وبقية الأهل والصحاب. وهناك في موسكو التقت كيتى ذات مساء - في منزل إحدى سيدات المجتمع - بخطيبها السابق فرونسكى.. وكان هذا أول لقاء بينهما بعد أن هجرها فجأة، متأثراً بسحر آنا كارنينا! - على أنها مع هذا تمالكت أعصابها، ولم يبد منها ما ينم عن تأثرها بذكريات حبها القديم، أو حنقها عليه بسبب فعلته تلك!.. وذات مساء آخر التقى ليفين في أحد الأندية بفرونسكى وستيفان، وجلس الثلاثة يتحدثون، فأظهر ليفين من التسامح وضبط النفس مع منافسه القديم في كيتي مثل ما أظهرت هذه معه. وفي أثناء الحديث قال ستيفان محدِّثاً فرونسكي: " هل تعلم أن ليفين لم ير " آنا " قط حتى الآن؟ لقد خطر لى أن أصحبه إلى منزلكما لأعرفه بها. هيا بنا نذهب يا ليفين!".. فقال فرونسكي متسائلًا: " حقًّا؟ أنها سوف ترحب بمعرفتك. وقد كان

بودي لو أصحبكما الآن، لولا اضطراري إلى البقاء هنا لمنع " ياشفين " من التمادي في اللعب والخسارة!".. وعندئذ تناول ستيفان ذراع ليفين قائلًا: " إذن فلنذهب نحن إليها. إنها في البيت، أليس كذلك؟ حسنًا؟ لقد وعدتها منذ زمن أن أقدِّم ليفين إليها. أين كنت تزمع أن تقضى الأمسية يا ليفين؟".

- لم أكن أقصد مكاناً معيناً، فلنذهب إذا أردت!

ولكن لم تكد عربة ستيفان تدرج بهما فوق أرض الطريق، حتى بدأ ليفين يسائل نفسه عما إذا كان قد أحسن صنعاً بقبوله زيارة " آنا "، وعما قد تراه زوجته في شأن هذه الزيارة؟ وكأنما أدرك ستيفان ما يفكر فيه صديقه، فانتزعه من أفكاره بقوله: " لكم أنا مسرور بأنك ستراها. لقد طالما تمنت دوللى ذلك. وبرغم كون " آنا " أختى فإني لا أتردد في القول بأنها امرأة رائعة. لكنك ستراها بنفسك، وإن يكن ذلك في ظرف من أسوأ ظروفها. إن موقفها – الآن بصفة خاصة – مؤلم للغاية! "

- ولم كان ذلك " الآن بصفة خاصة؟ "

- لأننا نفاوض زوجها هذه الأيام في شأن الطلاق. وقد وافق عليه، لكن هناك صعوبات تتعلَّق بحضانة الطفل. وبسبب هذه الصعوبات لم تنته المفاوضات الدائرة منذ ثلاثة أشهر إلى نتيجة حاسمة حتى الآن! ومتى حصلت آنا على الطلاق فسوف تتزوج من فرونسكي، ما أسخف هذه الإجراءات التقليدية التي لا يؤمن بها أحد! أنها تحول بين الناس وبين ترتيب حياتهم على الوضع الذي يريحهم. على أن موقفها سوف يبرأ من الشوائب بعدالزواج، بحيث يغدو مثل موقفى، وموقفك..

- وما هي الصعوبات التي تعترض تسوية الموقف؟

- أوه، إنها قصة طويلة ومملة: فمنذ حضور آنا إلى موسكو قبل ثلاثة أشهر وهي ملازمة دارها في انتظار الطلاق، لا تزور أحدًا ولا يزورها أحد، غير زوجتي " دوللى".. فهي لا تقبل أن يعتبر الناس زياراتهم لها " فضلًا " منهم وعطفاً! وحتى صديقتها الأميرة الحمقاء قد تخلَّت عنها الآن، وإن أي امرأة أخرى في مكانها ما كانت لتجد في نفسها غنى عن الناس، لكنك سترى كيف رتبت " آنا " حياتها بحيث تلائم الوضع المؤقت، وسترى مقدار هدوئها وترفعها!

- لكن معها طفلة فيما سمعت، ولا شك أن العناية بها تشغل كل وقتها!

- يبدو أنك تنظر إلى كل امرأة باعتبارها أنثى فقط، لا يشغلها غير زوجها وأطفالها؟ كلا! إنها تنشىء ابنتها تنشئة مثالية فيما أعتقد، دون أن تثير ضجيجاً حولها. لكن أهم ما يشغلها الآن أنها تؤلف كتاباً للأطفال!.. أراك تبتسم سخرية، ولكن دعنى أؤكد لك أنها قرأت الكتاب لي وأعطتنى مسوداته فحملتها إلى الناشر " فوركيوف " - وهو مؤلف في الوقت نفسه – فشهد بأنه عمل أدبي رائع! ليس معنى ذلك أنها مؤلفة محترفة، وإنما هي امرأة ذات قلب، قبل كل شيء!.. لكنك ستراها بنفسك. وعندها الآن فتاة إنجليزية تساعدها وتؤنس وحدتها، كما أنها تعنى بشئون أسرة الفتاة كلها..

- تعنى من قبيل البر والعمل الخيري!؟

- لِمَ تنظر إلى كل شيء بهذا الظن السيء؟.. بل إنها تعنى بهم بدافع الحنان الصادر من القلب. إنهم أسرة مدرب إنجليزي للجياد يعمل

عند فرونسكي، وقد أدمن الخمر وأهمل أهله إهمالًا قاسيًا، فأشفقت عليهم آنا وأخذت الابنة كي تعيش معها. وستراها الآن بنفسك..

وكانت العربة التي تقل الرجلين قد بلغت مدخل الدار التي تقيم بها " آنا " فهبطا منها وطرق ستيفان الباب.. فلما فتحه أحد الخدم دخل هذا، يتبعه ليفين، دون أن يسأله عما إذا كانت سيدته في البيت أم لا. وفيما هو يعبر الردهة ساءل ليفين نفسه متوجساً: هل أخطأ بحضوره أم أصاب؟ وحين صادفته مرآة كبيرة نظر إلى صورته فيها، فراعه احمرار وجهه.. لكنه أحس عن يقين أنه ليس مخموراً! ثم تبع صديقه إلى السلم المفروشة ببساط سميك: وفي الطابق العلوي صادفهما خادم آخر انحنى لستيفان في احترام، شأن من يعرفه، فسأله هذا عمن برفقة سيدته.. فأجابه الخادم: " إنه مسيو فوركيوف".

- وأين هما؟

- في غرفة المكتب.

فمضى الرجلان نحوها، عبر غرفة المائدة، وحين أشرفا عليها لمح ليفين في مواجهته، على جدار الحجرة، صورة زيتية رائعة ينصب

عليها ضوء مصباح قوى معلّق فوقها. كانت الصورة لآنا، رسمها لها في إيطاليا، بالحجم الطبيعي، الرسام " ميكايلوف".. فنظر ليفين إلى اللوحة ولم يستطع أن يسترد بصره منها، حتى لقد نسى أين هو ولم يسمع حرفاً مما قيل. لم تكن اللوحة صورة خرساء، بل كانت تبدو فيها امرأة حية فاتنة، ذات شعر أسود مجعد، وذراعين عاريتين، وكتفين ناصعتين، وابتسامة تفكير وتأمل على الشفتين.. تنظر إليه في نعومة واعتزاز، من عينين خلبتاه وحيرتاه! وكان الاعتبار الوحيد الذي يكذب كونها امرأة تختلج فيها الحياة، أنها كانت أجمل وأروع من كل جمال وروعة يمكن أن يكونا لامرأة على قيد الحياة!.. وأفاق ليفين من ذهوله على صوت قريب منه يخاطبه بقوله: " شرفتنا! " ولم يكن سوى صوت المرأة بعينها التي كان يتأمل صورتها في إعجاب ذاهل، وقد خفت إلى لقائه من وراء " البارافان " الذي يشطر الغرفة إلى شطرين. ورآها ليفين في ضوء مصباح المكتب الباهت ترتدى ثوبًا أزرق قاتمًا في غير الوضع الذي تتخذه في الصورة، وبغير التعبير الذي ارتسم فيها على وجهها، ولكن بالجمال الكامل نفسه الذي صوره الفنان في لوحته، نقلًا عن الفنان الأعلى الذي أبدع الأصل!

كانت قد نهضت للقائه غير مخفية سرورها برؤيته. ومن اللباقة الهادئة التي مدَّت إليه بها يدها الصغيرة الأنيقة، وقدَّمت له بها " فوركيوف " ناشر كتابها، وسكرتيرتها الإنجليزية اليافعة، استطاع ليفين أن يتبين " اتيكيت " سيدة مجتمع من الطراز الرفيع، طبيعية في حركاتها، مالكة لحواسها!.. وأردفت تكرر مرحبة هذه الكلمات التي اتخذت على شفتيها مغزى خاصاً في أذني ليفين: " إنى مغتبطة بزيارتك. لقد عرفتك وأعجبت بك منذ زمن، سواء خلال صداقتك لأخى ستيفان أو صلتى بزوجتك.. لقد عرفتها فترة وجيزة لكنها تركت في نفسي مثل أثر الزهرة العطرة، حتى ليصعب عليَّ أن أتصورها توشك أن تغدو أمًّا!".

كانت تتكلم في يسر وهدوء، وهي تنقل بصرها بين ضيفها وبين أخيها، فأحس ليفين أنه قد وقع من نفسها موقعاً حسناً، بل شعر على الفور بجو من البساطة والبهجة، وكأنه في بيته، بل كأنه عرفها منذ الطفولة!.. ثم مدَّت يدها إلى صندوق سجائر صغير على هيئة سلحفاة، فتناولت منه سيجارة أشعلتها في غير كلفة، بينما كان شقيقها يسألها: "كيف حالك اليوم؟ بماذا تشعرين؟".

- أوه! لا شيء.. سوى الأعصاب، كالعادة!

ولمح ستيفان ليفين يلتهم الصورة بعينيه، فسأله معلقاً: " أليست لوحة ممتازة حقاً؟ "

- بل إني لم أر أجمل منها!

وتدخل الناشر في الحديث قائلًا: " إن مطابقتها للأصل أمر يلفت النظر!".. فنقل ليفين بصره من الصورة إلى الأصل، فأضاء وجه آنا بريق خاص، حين أحست بعينيه تستقران على محياها!.. وتشعب الحديث، ووجد ليفين متعة كبرى في أن يتحدَّث ويُنصت إلى حديث هذه المرأة، أما هي فكانت تتكلَّم في براعة غير متكلِّفة، وعدم مبالاة، غاضة من أهمية آرائها، مقيمة أكبر الوزن لآراء محدثها! وانتقل النقاش إلى الاتجاهات الجديدة في الفن، فقال ليفين: " إن الفرنسيين يؤثرون العودة إلى المذهب الواقعي، ويرون في الصراحة والبعد عن الكذب والنفاق لونًا من الشعر".. وأعجبت " آنا " بهذا القول، فأضاء وجهها على الفور بإشراق نوراني، وأضافت قائلة: " إن هذه النزعة الواقعية تنطبق على الأدب كما تنطبق على الفن". ثم مثلت لذلك

بقصص " زولا " و " دوديه "، فحدَّث ليفين نفسه قائلًا: " يا لها من امرأة!".

ونسى نفسه فلبث يرمق - في إصرار – وجهها الجميل المعبِّر، دون أن يسمع حرفًا مما تقول!.. وفي أثناء الحديث انحنت على أخيها تسر إليه بشيء، وقد عكرت وجهها الذي كان صافياً منذ لحظة سحابة مفاجئة. وارتسم في نظرتها فضول غريب، وغضب، وكبرياء.. لكن ذلك كله لم يدم غير لحظة، أرخت على أثرها أجفانها، كأنما تجهد نفسها في تذكّر شيء، ثم قالت معتذرة: " لكن هذا لا يهم أحدًا منكم "، ثم استدارت إلى سكرتيرتها قائلة بالإنجليزية: " هل لك أن تأمرى بإعداد الشاي في حجرة الاستقبال؟ " فنهضت الفتاة ومضت.. وإذ ذاك سأل ستيفان شقيقته: " كيف تسير الفتاة في دروسها وامتحاناتها؟ "، فأجابته: " على نحو رائع!.. إنها فتاة موهوبة وشخصية عذبة".

- سوف ينتهى بك الأمر إلى أن تحبيها أكثر من حبك لابنتك!

- ليس في الحب درجات، تقاس بالأكثر والأقل، وإنما فيه ألوان مختلفة.. والصواب أنى أحب ابنتي لوناً من الحب، وأحب هذه الفتاة لونًا آخر منه!

ونظرت مرة أخرى إلى ليفين، وقالت له ابتسامتها ونظرتها أنها إنما تدلى بهذه الآراء من أجله هو، كيما تظفر بتقديره لذكائها، وقد وثقت من أول وهلة بأن كلًّا منهما يفهم الآخر ويعجب به، كل الفهم، وكل الإعجاب!.. ورأى ليفين في " آنا " شخصية جذَّابة تمتاز – إلى جانب جمالها وذكائها وجلالها – بفضيلة أخرى هي الصدق! فإنها خلال حديثها لم تحرص على أن تخفى عنه مرارة موقفها. وفي مناسبة ما تنهَّدت، واتخذ وجهها طابعاً صارماً، جعلها تبدو كأنها تحولت إلى تمثال من حجر! والعجيب أنها بدت عند ذلك أفتن جمالًا وأشد جاذبية، رغم أن ذلك التعبير الجديد كان مخالفاً كل المخالفة للتعبير الأول المشرق بالسعادة، والخالق للسعادة، الذي سجَّله الرسام في صورتها!.. ولم يملك ليفين نفسه، وهو ينقل بصره خلسة بينها وبين الصورة، من أن يحس في أعماقه عطفاً عليها ورثاء لحالها، لم يكن يحسب نفسه قديراً على الشعور بهما نحو امرأة غريبة عنه!.. وحين

سألت ضيفيها أن يسبقاها إلى الصالون، ريثما تخلو إلى شقيقها بضع دقائق، ساءل ليفين نفسه في اهتمام: " لا بد أنهما يتحدثان عن الطلاق، وعن فرونسكي وكيف يقضى أوقاته في النادي، وربما عنى أنا؟!".. وبلغ من انشغاله بما عساها أن تحدث فيه أخاها أنه لم يكد يسمع حرفًا مما قاله جليسه الناشر في شأن القصة التي ألفتها " آنا " للأطفال!

وفي أثناء تناول الشاي استؤنف بين الأربعة ما انقطع من حديث شائق، في شتى الموضوعات. وكان ليفين يتتبع بذهنه الأحاديث الجارية دون أن يكف لحظة عن تأمل جمال آنا والإعجاب بذكائها، وثقافتها، وصراحتها، وعمق شعورها.. فكان يصغى، ويتكلم، ويفكّر في حياتها الخاصة، محاولًا أن يصور لنفسه مشاعرها!.. وبرغم أنه كان قد قسا في حكمه عليها قبل أن يعرفها، فإنه وجد نفسه الآن يبرر مسلكها وتصرفاتها بسلسلة من الحجج المنطقية الغريبة، بل شعر بأنه يرثى لحالها، مشفقاً من أن يكون فرونسكى عاجزاً عن فهم نفسيتها على حقيقتها!.. وحين نهض ستيفان لينصرف، في الساعة الحادية عشرة من ذلك المساء، خُيل إلى ليفين أنه لم يقض مع آنا

غير فترة قصيرة، لكنه اضطر إلى أن ينهض بدوره، آسفاً!.. وحين مد يده إلى آنا مصافحاً، قالت له وهي تحتفظ بيده في راحتها برهة، وترمقه بنظرة ظافرة: " كم أنا سعيدة بتعارفنا".. ثم أطلقت يده وأرخت أجفانها في نصف إغماضة، وهي تستطرد: " أبلغ زوجتك أننى أشد حبًّا لها من أي وقت مضى، وأنها إذا شعرت بأنها لا تستطيع أن تغفر لى موقفى، فعندئذ أكون أنا بدوري راغبة في ألَّا تغفره لى.. فإنه لكي يغفر الإنسان ينبغي أن يمر بالظروف التي مررت بها، وأنا أسأل الله أن يجنبها ذلك!".

فأجابها ليفين وقد صعد الدم إلى وجهه: " أعدك بأن أنقل إليها رسالتك!".

- 22 -

خرج ليفين مع ستيفان من عند آنا وهو يقول لنفسه: " يا لها من امرأة رائعة، عذبة شقية!".. وكأنما لاحظ عليه ستيفان علائم الهزيمة أمام سحر شقيقته، فهمس إليه: " ألم أقل لك؟".. فأجابه كالحالم: " نعم، إنها امرأة خارقة للمألوف!.. إنه ليس ذكاؤها الذي أعجبني، وإنما ذلك العمق العجيب الذي تتغلغل إليه مشاعرها. لشد ما أرثى لها!". ثم قال له ستيفان مودعاً وهو يهبط من العربة: " عسى أن تستقر الأوضاع نهائياً في القريب. ولعل هذا يجعلك لا تقسو في حكمك على الناس في المستقبل!".. ثم انتقل إلى عربة أخرى، بينما انطلقت العربة الأولى بليفين وهو ما يزال يفكِّر في آنا، ويستعيد في ذهنه كل عبارة تخلَّلت حديثهما، وكل تعبير قرأه على وجهها.. بل أخذ يضع نفسه مكانها، فيعطف عليها، ويرثى لشقائها!.. وحين بلغ البيت، ألفي ليفين زوجته مكتئبة، وفي حالة نفسية سيئة. وعلم منها أن شقيقتيها كانتا تقضيان السهرة عندها، وأنهما انتظرتا طويلًا حضوره، وأخيراً انصرفتا وتركتاها وحدها. ثم سألته وهي تسدد بصرها إلى عينيه، اللتين

بدت فيهما إشراقة مريبة: " ما الذي أخرك؟ ماذا كنت تفعل طيلة السهرة؟".

لكنها لم تطل في عتابها له، كي تشجعه على الإفضاء إليها بكل ما عنده.. بل لقد قوت من عزيمته على المصارحة، بابتسامة عذبة مسالمة، أوقعته في الشرك!.. فحدَّثها أوَّلًا عن مقابلته لفرونسكي وما تبادلاه من أحاديث بددت جو النفور الذي كان بينهما. وأفاض في سرد الموضوعات التي تكلما فيها، حتى سألت هي: " وأين ذهبتم بعد انصرافكم من النادي؟ "، فأجابها: " ألحَّ عليَّ ستيفان في أن أصحبه في زيارة لأخته آنا كارنينا". وتورد وجه ليفين وهو يقول ذلك، وأحس أنه أخطأ في ذهابه إلى هناك!.. أما كيتي فقد اتسعت حدقتاها ولمعتا، لدى سماعها اسم آنا، لكنها تمالكت نفسها بصعوبة، وأفلحت في إخفاء انفعالها عن زوجها، بينما استطرد هو: " كنت واثقاً من أنك لن تغضبي لذهابي إلى هناك! وقد ذهبت إجابة لرغبة ملحة من ستيفان، كما رغبت " دوللي " في ذلك.. إن " آنا، امرأة طيبة، عذبة جداً، ولكنها كذلك تعسة جداً!".. ومضى يحدِّثها عنها وعن أحوالها،

والرسالة التي كلفته بأن يبلغها إليها.. فلما فرغ من كلامه قالت معلقة في إيجاز: " نعم، إنها بلا شك تستحق أن يرثى لحالها!"..

.. وإذ اطمأن ليفين إلى هدوء لهجتها، مضى إلى مخدعه ليرتدى ثياب النوم. فلما عاد إلى زوجته وجدها في مقعدها حيث تركها، وما كاد يقترب منها حتى نظرت إليه لحظة، ثم.. أجهشت بالبكاء! وبُغت هو، فسألها: " ماذا بك؟ ماذا أصابك؟ "، فقالت: " إنك قد أحببت تلك المرأة البغيضة. لقد سحرتك! أرى ذلك في عينيك، نعم، نعم!.. وماذا تنتظر أن تكون النتيجة. لقد شربت في النادي، وأفرطت في الشراب واللعب، ثم ذهبت إليها، هي من دون الناس جميعاً!.. كلَّا، ينبغى أن نسافر.. سأسافر غداً!".. ومضى وقت طويل قبل أن يستطيع ليفين تهدئة ثائرة زوجته، معترفاً لها بأن إشفاقه على المرأة المنبوذة - بتأثير الخمر التي شربها – كان أقوى مما ينبغى، فوقع تحت تأثير سحرها اللعين.. ثم وعد زوجته بأن يتجنَّب رؤية " آنا " في المستقبل. مقرًا في إخلاص بأن حياة الدعة والفراغ والطعام والشراب، التي يحياها منذ هبط موسكو، قد بدأت تصيب أخلاقه بالانحلال!..

ولبث الزوجان يسمران حتى الساعة الثالثة من الصباح، وعندئذ فقط كانا قد تصالحا تماماً واستردا صفاء البال الذي يسمح لها بالنعاس..

وفي اليوم التالى وضعت كيتى مولودها المنتظر.. وكان ذكراً!

لبثت آنا بعد انصراف ليفين وشقيقها تذرع الحجرة ذهاباً وجيئة، مستغرقة في التفكير!.. لقد بذلت أقصى ما في وسعها طيلة الأمسية - دون وعى - كى توقظ في ليفين عاطفة الحب، مثلما ألفت أن تفعل مع كل الرجال في المدة الأخيرة!.. وهي تعلم أنها قد بلغت غايتها، بقدر ما يسمح المجال في جلسة واحدة، ومع رجل متزوج، حي الضمير!.. والواقع أنها قد أعجبت به إلى أقصى حد، وبرغم الفارق الصارخ – من وجهة نظر الرجال - بينه وبين فرونسكي، فإنها - كامرأة – رأت في الاثنين شيئاً مشتركاً غامضاً، هو الذي جعل كيتى تستطيع أن تحب كليهما!.. ومع ذلك فإنه لم يكد يخرج من دارها حتى كفت عن التفكير فيه، ولم يبق يشغلها غير خاطر واحد ملح، طفق يهاجمها في شتى الصور، وأبى أن يبرح ذهنها، فأخذت تحدِّث نفسها: " إذا كان لى مثل هذا التأثير القوى على الرجال جميعًا، وعلى هذا الرجل بالذات، الذي

يحب بيته وزوجته، فما علة فتور فرونسكى معى؟ أنا أعلم أنه يحبنى، لكن شيئًا ما قد بدأ يباعد بيننا بالتدريج! " وإذ سمعت جرس الباب يدق، إيذانًا بقدومه، جففت دموعها مسرعة وفتحت كتاباً، متظاهرة بالانهماك في القراءة. إنها لا تريده أن يقف على لوعتها ويأسها، ورثائها لحالها! قد ترثى هي لنفسها، ولكن لا ينبغي أن يرثى هو لها!.. وأقبل نحوها بادى الانشراح، يقول:

- أرى أنك لا تعانين سأماً.. ما أفظع المقامرة!

- كلا، لم أحس سأماً، فقد تعلمت منذ زمن طويل ألا أفعل هذا.. فضلًا عن أن ستيفان وليفين كانا هنا!

- أعلم ذلك، وهل أعجبك ليفين؟

- جدًّا.. إنهما قد انصرفا منذ قليل. ماذا كان " ياشفين " يفعل؟

- ربح سبعة عشر ألفًا، فأبعدته عن المائدة، وأركبته العربة إلى بيته.. لكنه عاد ثانية، وهو الآن يخسر!

- إذن فلماذا بقيت؟ إنك قد ذكرت لستيفان أنك باق لتحول بين ياشفين والخسارة، وها أنت ذا تتركه يخسر!

فبدا على وجه فرونسكي طابع البرود والتأهب للشجار، وقال: " أوَّلًا أنا لم أكلف ستيفان أن يحمل إليك أية رسالة. وثانياً أنا لا أكذب أبدًا، ولكن الشيء الجوهري في الموضوع أني أردت أن أبقى، وقد بقيت.. فلِمَ كل هذا يا آنا؟". وبدا متجهمًا وهو يقول ذلك.. وبعد لحظة صمت اقترب منها وفتح راحته، آملًا أن توسد يدها إياها! وسرتها هذه الدعوة إلى الحنان، لكن قوة شريرة خفية حالت بينها وبين الاستسلام لعاطفتها، كما لو كانت قوانين الحرب تمنعها من التسليم والإذعان.. فعادت تضرم النار قائلة: " طبعًا، أردت أن تبقى، وبقيت – فإنك تفعل كل ما تشتهى! - ولكن ما غرضك من قول ذلك لي؟ هل ينازعك أحد حقوقك، أو يناقشك فيها؟".. فطوى يديه واستدار، وقد اكتسى محياه بطابع العناد، وإذا ذاك قالت له وقد اهتدت فجأة إلى التسمية الصحيحة لتعبير وجهه الذي يثيرها: " الأمر بالنسبة لك أمر عناد!.. مجرَّد عناد، ورغبة في أن تكون لك دائمًا الكلمة العليا، أما أنا.. آه لو علمت ما أقاسي حين أشعر - كما أفعل الآن - بأنك تقف منى موقفاً عدائياً!.. آه.. لو علمت كيف أحس أني على شفا هاوية، وكيف أخاف ساعتئذ من نفسي!".. ثم استدارت وهي

تحاول إخفاء نشيجها، فقال وقد أفزعه مظهرها البائس، فانحنى على يدها وقبلها: " ما هذا الذي تقولين؟ وفيم كل ذلك؟ هل رأيتني أنشد اللهو خارج البيت؟ ألست أتجنب مجتمعات النساء؟ "

- نعم، ولكن هل هذا كل شيء؟

- بالله خبريني ماذا ينبغي أن أفعل كى أمنحك سكينة النفس؟ أنا على استعداد لأن أفعل أي شيء في سبيل سعادتك!.. وهل هناك شيء لا أصنعه كى أنقذك من حيرتك ويأسك، أيّاً كان مظهرهما؟ أنا، بربك..

- لا تنزعج، لست أدرى أهي حياة العزلة التي تسبّب لي هذه الثورات، أم هي أعصابي.. ولكن فلنكف عن الكلام في هذا الموضوع. حدثني، ما أنباء السباق!؟

فأمر الخادم بإعداد العشاء، ثم بدأ يروى لها أنباء السباق. لكن " آنا " قرأت في عينيه اللتين إزداد فتورهما لحظة بعد أخرى، كما تبينت في لهجته، أنه لم يغفر لها انتصارها عليه، على النحو الذي سلف.. وأن شعور العناد الذي حاولت مكافحته قد استرد سيطرته على

نفسه! لقد غدا معها أشد بروداً مما كان، كأنما ندم على استسلامه!.. أما هي فتذكرت كلماتها له: " أحس أني على شفا هاوية، وأنى خائفة من نفسي!".. وأدركت أنها قد لجأت إلى سلاح خطير، وأنها لن تستطيع استخدامه مرة ثانية!.. كما أدركت أنه إلى جانب الحب الذي يربطهما فقد نشب بينهما صراع شرير رهيب يتعذر عليها اقتلاعه من قلبه، بل ومن قلبها هي نفسها!

-23-

جد ما استدعى سفر ستيفان إلى بطرسبرج لبعض شئونه، فطلبت إليه " آنا " أن يتصل بزوجها " أليكسي " ويحصل منه على رد قاطع بصدد موضوع الطلاق!.. وفى مكتب أليكسى جلس ستيفان يصغى إلى تقرير محدثه عن أسباب تدهور الحالة المالية في روسيا، فلما فرغ من تقريره، بادره ستيفان قائلًا: " هناك أمر أود أن نتكلم فيه الآن، وأنت تعلم طبعاً ما هو!".. فتغير وجه أليكسي تغيراً كلياً، وغاض منه كل أثر للحياة، وبدا مرهقاً، ميتًا!.. ثم أجاب وهو يتململ في مقعده ويثبت نظارته على أنفه: " ما الذي تريده منى بالضبط؟".

- تسوية نهائية يا أليكسي، تسوية حاسمة للموقف. إنى أناشدك، لا كسياسى، بل كإنسان، وإنسان طيب القلب، متدين. أنك ينبغي أن تأخذك الشفقة عليها!!

- على أية صورة؟

- لو أنك رأيتها كما رأيتها أنا - الذي قضيت الشتاء كله معها - لأشفقت عليها.. إن موقفها فظيع، لا يحتمل!

- كنت أعتقد أنها قد حصلت على كل ما تمنته!

- أواه يا أليكسي، بربك لا تدعنا ندخل في مهاترات. إن ما فات قد فات، ولندع الماضي في مرقده ونواجه الحاضر. أنت تعلم أن ما تريده هي وتنتظره هو: الطلاق!

- لكني أعتقد أن " آنا " ترفض الطلاق، إذا اشترطت فيه أن أحتفظ بابني. لقد كان هذا جوابي منذ البداية، وافترضت أن المسألة قد انتهت عند هذا الحد. بل إنى أعتبرها منتهية!

- بحق السماء لا تثر أو تنفعل، ودعنا نتناقش في هدوء. المسألة لم تنته. وإذا سمحت لى أن أذكرك بما حدث فقد كان على هذه الصورة: عندما افترقتما كنت على استعداد لأن تمنحها كل شيء: الحرية، بل الطلاق إذا رغبت. وقد قدَّرت لك هي هذا الصنيع، إلى حد أنها وقد أحست لأول وهلة بمبلغ الخطأ الذي ارتكبته في حقك، لم تتدبر الأمر – ولم تكن لتستطيع وقتئذ أن تتدبره! - فتركت كل شيء، نبذت كل شيء.. لكن التجربة، والزمن، أثبتا أن موقفها لا يحتمل، بل إنه مستحيل!

- إن حياة " آنا " لم تعد تهمني في شيء!

- اسمح لى ألا أصدقك. إن موقفها لا يحتمل بالنسبة لها، ولا فائدة منه لأي شخص على الإطلاق. لعلك تقول إنها قد استحقته! إنها تعلم ذلك، ولذا فهي لا تطلب منك شيئًا. بل تقول بصراحة إنها لا تجرؤ على أن تسألك طلباً!.. لكني أنا، بل كلنا نحن أقرباءها وأصدقاءها، نرجو بل نتوسل إليك!.. لِمَ ينبغى عليها أن تتألم؟ من هناك أفضل منها؟

- يبدو أنك تبغى أن تضعني في موضع الطرف المذنب!

- أوه، كلَّا، أبدًا.. أرجو منك أن تفهمني. كل ما أريد أن أقوله إن موقفها بات من العسير تحمله، وفي وسعك أنت وحدك أن تحل هذه المشكلة، ولن يضيرك ذلك في شيء. وفى وسعى أن أيسر لك الأمور بحيث لا تتكلف أي عناء. لا تنس أنك وعدت!

- وعدت فيما مضى.. وكنت أفترض أن مسألة حضانة ابنى قد حسمت الأمر. ثم أني كنت آمل أن تكون " آنا " من الكرم بحيث..

- إنها تدع الأمر لكرمك أنت. إنها ترجو، بل تتوسل إليك أن تفعل من أجلها شيئاً واحدًا: أن تنتزعها من المأزق الذي هي فيه الآن. إنها لا تطالب حتى بحضانة ابنها!.. أليكسي، أنت رجل طيب الخلق. فلتضع نفسك موضعها لحظة فقط. إن مسألة الطلاق بالنسبة لها في موقفها الحالي لهي مسألة حياة أو موت!.. ولو كنت لم تعدها فيما مضى فربما كانت قد استطاعت أن توطن نفسها على هذا الوضع.. أن تقضى حياتها في الريف.. لكنك وعدت بمنحها الطلاق، وقد كتبت هي إليك ثم سافرت إلى موسكو.. وها هي ذي قد انقضت عليها في موسكو ستة أشهر، في جو تمزقها فيه شر ممزّق كل مقابلة مع شخص كانت تعرفه في الماضي! وهي تمنى نفسها كل يوم بتسلم ردك!.. إن هذا بمثابة إبقاء مذنب محكوم عليه بالإعدام لمدة ستة أشهر والحبل معلق على رقبته، تارة يمنونه بالعفو، وتارة يهددونه بالموت!.. أشفق عليها يا أليكسي، وأنا أتكفل بإعداد كل شيء.

- ليس هذا موضع الخلاف.. ولكن لعلى قد وعدت بما لم يكن من حتى أن أعد به!

- إذن فأنت تنكص عن وعدك؟

- إنى لم أضن عليها يومًا بكل ما في وسعى، لكني أريد مهلة أتدبر خلالها ما يمكن تنفيذه من وعدى!

فصاح ستيفان وهو يقفز من مقعده: " كلَّا يا أليكسي! لست أصدق أنك أنت الذي تتكلم!.. كفاها ما هي فيه من شقاء لا يعرفه غير من كابده. ولا يمكن أن تأبى عليها في حالة كهذه..".

- سأمنحها القدر الذي يتيسر الوفاء به من وعدى! هذا كل ما أستطيع أن أعد به الآن. إنك تتكلم بمنطق المفكِّر الحر، لكنى بصفتى رجلًا مؤمنًا لا أستطيع – في أمر على هذه الدرجة من الخطورة - أن أسلك مسلكاً منافياً لتعاليم ديني!

- لكن الكنيسة ذاتها تسمح بالطلاق، ونحن نرى..

- إنها تسمح بالطلاق، ولكن ليس بالمعنى الذي..

- أليكسي، لست أفهمك اليوم! إنك تناقض نفسك: ألم تكن أنت الذي غفرت " لآنا " كل شيء، وأبديت استعدادك لبذل أية تضحية

ترضى بها التعاليم المسيحية؟.. بل أذكر أنك تمثلت بالقول المأثور: " من لطمك على خدك الأيمن، فأدر له الأيسر أيضًا!".

- كفى.. كفى!

ونهض أليكسي على قدميه ثائراً، وقد ابيض وجهه حتى صار كوجوه الأموات، واختلج فكَّاه في عصبية، وهو يردِّد القول:

- أرجو أن تنسى هذا الموضوع، ولا تحدثنى فيه!

- أوه! اغفر لي. اغفر لي إذا كنت قد جرحتك، لكنى بصفتي رسولًا أمينًا قد أديت الرسالة التي عُهد بها إلىّ!

ثم مدَّ إليه يده وهو يبتسم ابتسامة حيرى، فأعطاه أليكسي يده، وتردَّد قليلًا، ثم قال: " ينبغى أن أفكِّر في الأمر في روية، وأنشد التوفيق في صدده. وسوف أعطيك ردى النهائي بعد غد!..".

-24-

شعر كل من فرونسكي وآنا في مستهل الصيف بأن الحياة في موسكو لا تطاق، بسبب الحر الشديد والغبار الذي يملأ الجو. لكنهما لم يغادراها مع ذلك عائدين إلى الريف، رغم تضايقهما منها وحنينهما إليه، لا لشيء إلا لأن الوفاق بينهما كان قد تصدَّع في الأيام الأخيرة!.. ولم يكن للخلاف بينهما - والانفعالات العصبية - أي سبب خارجي في الواقع، ومع ذلك فإن كل جهودهما للوصول إلى تفاهم لم تفلح إلا في زيادة شقة الخلاف اتساعاً وحدّة!.. وكان منشأ النزاع الحقيقي " فكرة " داخلية تسلَّطت على ذهن " آنا " وأوحت إليها بأن فرونسكي يستشعر الأسف والندم على توريط نفسه من أجلها في هذا المأزق الذي تزيده هي كل يوم حرجاً. بدلًا من محاولة التخفيف من عبئه!

وهكذا أضمر كلاهما لصاحبه الحقد والضغينة، اقتناعاً منه بأن صاحبه وحده هو المخطيء!.. ففي نظر " آنا " كان كيان فرونسكي بأكمله - بعاداته، وآرائه، ورغباته، وطبائعه النفسية والجسدية – يتركَّز في شيء واحد: هو حبه للنساء! وكانت " آنا " تبغى أن يركز هذا

الحب كله في شخصها وحدها! أما وقد تضاءل حبه لها، فيما تحس، فلا شك في أنه قد نقل قدراً منه إلى امرأة أخرى، أو نساء أخريات! ومن هنا بدأت تغار عليه، لا من امرأة بعينها، بل من كل امرأة غيرها!.. وإذ لم تجد هدفًا تصب عليه غيرتها، راحت تبحث عن هدف!.. فكانت حيناً تغار عليه من أولئك النسوة الوضيعات اللواتي كان على صلة بهن من قبلها.. وحيناً تنقل غيرتها إلى نساء المجتمع الرفيع اللواتي قد يلتقى بهن.. وحيناً ثالثاً توجّه هذه الغيرة إلى هدف مغاير: إلى الفتاة الوهمية التي قد يكون وقع في هواها وحلم بالزواج منها!.. وكان هذا اللون الأخير من ألوان الغيرة أشدَّها جميعاً إيلامًا لآنا، وتعذيبًا لها.. سيما بعد أن صرَّح فرونسكي لها - في هفوة لسان - بأن أمه تجهل ميوله، إلى الحد الذي جعلها تجترئ على محاولة إقناعه بالزواج من أميرة شابة حسناء تدعى " سوروكين!".. وبتأثير غيرتها عليه، بدأت " آنا " تتحامل عليه لكل صغيرة وكبيرة، وتجد في كل منغص لها سببًا لتوجيه اللوم إليه بصدده: فهو المسئول عن هذا القلق القاتل الذي تعانيه في انتظار حصولها على الطلاق!.. وهو المسئول عن تردد أليكسي ومماطلته في إجابتها إلى طلبها!.. وهو

المسئول عن وحدتها وحياتها الموحشة في موسكو!.. هو المسئول عن كل ذلك وغيره، لأنه لو أحبها كما ينبغي لأحس معها حرارة موقفها، ولأنقذها منه! وأخيراً فهو المسئول وحده عن انفصالها الدائم عن ابنها الحبيب، وحرمانها الأبدى منه!.. وحتى لحظات الحب والحنان النادرة التي كانت تتخلل حياتهما من حين لآخر، لم تكن لتهدئ من ثائرتها، فقد صارت ترى الآن في حنانه ظلًّا من المرح والثقة بالنفس، يثيرها بدلًا من أن يهدئها!

وذات يوم، جلست " آنا " ساعة الغسق وحدها، تنتظر أوبة فرونسكي من مأدبة غداء دُعى إليها مع فريق من العزاب. وعادت بها الذاكرة إلى مشاجرة الأمس الأخيرة بينهما، فنهضت تذرع الحجرة ذاهبة آيبة، وتسترجع أدق تفصيلات النزاع، وكيف بدأ بأمر تافه للغاية: بمناقشة حول العلوم التي ينبغي أن تدرسها تلميذتها الإنجليزية، فإذا النقاش بينهما يتطوّر إلى حد يستفز " آنا " فتقول له: " لست أنتظر منك أن تفهمني وتفهم مشاعرى كما ينبغي أن يفعل أي شخص يحبني، لكنى أنتظر منك على الأقل أن تراعي أبسط مقتضيات الذوق واللياقة!".. واحمّر وجه فرونسكى انفعالًا، وأجابها بلهجة من

يتعمَّد أن يجرحها: " لست أعبأ بتعلقك بهذه الفتاة، لكني أرى فيه في الواقع شذوذاً لا شك فيه!".. وأثارتها هذه القسوة التي بدد بها العالم الوهمي الذي شيدته لنفسها بمجهودها المضنى كى تستعين به على تحمل حياتها المرة.. والظلم البشع الذي انطوى عليه اتهامه إياها بالشذوذ، والتكلّف.. فقذفت في وجهه بهذه العبارة الجافة، وهي تغادر الغرفة: " يؤسفني أنك ترى شذوذاً في كل شيء يخرج عن الأمور المادية والمبتذلة التي تفهمها!".

وحين عاد في المساء، لم يشر أحدهما بكلمة إلى تلك المشادة، وإن أحس كلاهما أن النزاع لم ينته إلى تسوية تامة!.. وها هو ذا فرونسكي اليوم قد قضى النهار كله في الخارج، فأحست " آنا " بمزيد من الوحشة والتعاسة بسبب تعكر الجو بينهما، وأرادت أن تنسى كل شيء وتصفح عنه وتصالحه.. بل أرادت أن تلقى اللوم كله على نفسها وتبرّر موقفه هو، فحدَّثت نفسها قائلة: " أنا التي أستحق اللوم، فقد غدوت سريعة الغضب، شديدة الغيرة إلى درجة الجنون.. سوف أسوى الأمر معه، ثم نسافر إلى الريف، وهناك أجد سكينة النفس!".

.. لكنها في هذه اللحظة ذكرت اتهامه إياها " بالشذوذ! "، فلم تحنقها الكلمة في ذاتها بقدر ما أحنقتها اللهجة التي قالها بها، قاصداً ولا شك أن يجرحها! وعادت تحدِّث نفسها: " إنى أعرف ماذا قصد: قصد أن يقول إننى لا أحب ابنتي، في الوقت الذي أحب فيه فتاة غريبة عنى، وهذا ما نعته بالشذوذ.. ولكن ماذا يفهم هو من حب الوالدين للأطفال، وحبى لسريوشا مثلًا، الذي ضحيت به من أجله؟.. ثم تلك الرغبة منه في جرح إحساسي، هل يمكن أن يكون الدافع إليها غير حبه لامرأة أخرى؟ لابد أن الأمر كذلك!".. لكنها عادت فانساقت مع خواطرها في تلك الدائرة المفرغة التي خرجت منها لتدخل فيها من جديد، فعادت مرة أخرى إلى البداية: " إنه لم يعودني أن يكذب، وهو صادق، وأمين، ومولع بي.. وأنا مولعة به.. ولن تمضى أيام حتى نحصل على الطلاق، فماذا أبغى أكثر من ذلك؟ أبغى سكينة النفس، والثقة به، وسوف ألقي اللوم على نفسي. نعم، حين يأتى الآن سأقول له إنى كنت مخطئة - ولو أني لم أكن مخطئة في الواقع! - وغداً نسافر إلى الريف!".

ولكي تنجو من نفسها ومن مواصلة التفكير في الأمر، وتتغلَّب على الانفعال الذي بدأ يعاودها، دقَّت الجرس للخادم.. ثم أمرت بإحضار حقائب السفر كي تضع فيها متاعها، تأهباً للرحيل!

-25-

اتفقت آنا وفرونسكي على السفر يوم الاثنين أو الثلاثاء وفي الصباح التالي نهضت " آنا " مبكرة لتواصل إعداد الحقائب. وفيما هي منحنية على حقيبة مفتوحة تخرج منها بعض الثياب، دخل عليها فرونسكي وقد ارتدى ثياب الخروج – قبل موعده المألوف – وابتدرها قائلًا: " أنا ذاهب لأرى أمي وأتفق معها على طريقة إرسال النقود إليَّ، وسوف أكون على استعداد للسفر غدًا". وبرغم أن " آنا " كانت في حالة من الانشراح والصفاء، فإن فكرة زيارته لأمه أورثتها شيئاً من الضيق، فأجابته قائلة: " كلَّا! لن أتمكَّن من إعداد كل شيء للسفر غدًا.. "، ثم صمتت لحظة، وأردفت: " ولكن افعل ما بدا لك. والآن اذهب إلى حجرة الطعام وسألحق بك توًّا!".

وفيما هو يأكل شريحة من اللحم البارد لحقت به، وجلست بجانبه لتتناول قدحها المفضل من القهوة.. ثم استهلت الحديث قائلة: " إنك لا تستطيع أن تصدِّق كيف غدت هذه الحجرات بغيضة إلى نفسي، فليس أبشع من هذه الزخارف العتيقة التي لا تحمل طابعًا

ذاتيًّا، ولا تعبِّر عن نزعة خاصة: هذه الستائر، وساعات الحائط، وأدهى من ذلك وأمر: ورق الجدران!.. إنها كلها أشبه بكابوس! وإنى لأتطلَّع إلى دارنا في الريف كما أتطلع إلى الجنة الموعودة.. آه، وعلى فكرة هل تزمع إرسال العربة الأخرى اليوم؟".

- كلَّا، بل إنها ستلحق بنا بعد سفرنا. ماذا تبغين منها؟

- أريد أن أذهب إلى الخياطة " ويلسون " لإصلاح بعض الثياب. إذن فأنت تعتزم السفر حقاً؟

- نعم، غدًا.. بغير إبطاء!

وفي أثناء ذلك أقبل خادم يطلب من سيده التوقيع على إيصال بتسلم برقية من بطرسبرج، فأجابه فرونسكي في لهجة من يبغى إخفاء أمر عن آنا: " لقد تركت الإيصال في حجرة المكتب".. فسألته " آنا " عقب انصراف الخادم: " ممن هذه البرقية "؟

- من ستيفان..

- ولماذا لم ترها لي؟ أي سر يمكن إخفاؤه بين ستيفان وبينى؟

وإذ ذاك نادى فرونسكي الخادم وأمره بإحضار البرقية من حجرة المكتب، ثم التفت إلى " آنا " قائلًا: " لم أرها لك لأنه ليس فيها جديد، سوى أنه يأمل الحصول على جواب حاسم في خلال يومين.. وهاك هي على أي حال، فاقرئيها بنفسك!".. وتناولت " آنا " البرقية بيد مرتعشة، وقرأت فيها ما قاله لها فرونسكى، تليه هذه العبارة: " الأمل ضئيل.. لكنى سأفعل كل شيء ممكن ومستحيل!"... فالتفتت إلى فرونسكي قائلة، وقد تورد وجهها: " لقد ذكرت لك أمس أنني لم أعد أعبأ بحصولى على الطلاق، ومن ثم لم يكن هناك داع لإخفاء البرقية عنى.. ثم أنى كنت أود ألا تعبأ أنت أيضاً بالطلاق!".

- إنى أعبأ به لأني أحب استقرار الأمور!

- من أجل ماذا؟

- ألا تعلمين من أجل ماذا؟ من أجلك أنتِ، ومن أجل أطفالك في المستقبل!

- هذا شيء يدعو إلى الأسف!

وكانت مسألة الأطفال تلمس عصباً حسَّاساً في نفس آنا، وقد فسَّرت رغبة فرونسكي في النسل بأنها دليل على أنه لا يقنع بها وبجمالها!.. وما عتم هو أن أردف موضحًا: " أنا واثق بأن النصيب الأكبر من عصبيتك مرجعه إلى وضعنا الحالي المبهم، غير المستقر!".

- هذا غير صحيح، فلست أفهم كيف ترجع " عصبيتي " - كما تدعوها - إلى كونى خاضعة لسلطانك خضوعاً كاملًا. وأي إبهام في وضعنا الحالي؟ بالعكس إنه..

- يؤسفني أنك لا تريدين أن تفهمي: الإبهام، أو عدم الاستقرار، الذي أعنيه ناشيء من تصوّرك أني حر، في وسعى تركك في أي وقت!

- إذا كان هذا قصدك فلك أن تهدأ بالًا، فليس يعنيني البتة ما تعده لك أمك من صفقات الزواج! ثم أنا لا أريد أن تكون لى صلة بأية امرأة متحجرة القلب، سواء أكانت أمك أو غيرها!

- " آنا".. أرجو ألا تتكلمي عن أمي في غير احترام!

- المرأة التي لا يهديها قلبها إلى الاتجاه الذي فيه سعادة ابنها وشرفه، تكون متحجرة القلب!

- أكرِّر رجائي إليك ألا تتحدّث بغير احترام عن أمي، التي أحترمها!

- تقول ذلك بلسانك فقط، أنت لا تحب أمك!

ونظرت إليه والكراهية تطفر من عينيها، فأجابها وهو يحدجها بنظرة صارمة، وفي صوت أعلى من المألوف:

- حتى لو صح هذا، فإنك يجب...

- يجب أن أتخذ قراراً في الأمر، وقد اتخذته فعلًا!

وهمت بأن تغادر الحجرة.. ولكن حدث في تلك اللحظة أن دخل صديقهما " ياشفين " فاضطرت للبقاء حيث هي، قامعة في صدرها عاصفة أحسّت أنها ستكون نقطة التحول في حياتها، وأنها قد تكون ذات نتائج وخيمة!

كان ذلك اليوم أول يوم ينقضى على العاشقين في شجار متصل، بل إنه كان تبادلًا صريحاً للفتور الكامل بينهما!.. وقد قضت " آنا " اليوم بطوله نهبًا للشكوك والريب المخيفة، تسائل نفسها عما إذا كان كل شيء قد انتهى، أم ما يزال هناك أمل في تسوية؟.. وحين انقضى اليوم ولم يعد فرونسكي من الخارج، مضت " آنا " إلى مخدعها تاركة

له رسالة مع الخادم تقول فيها إنها أحست صداعاً اضطرها إلى أن تأوى إلى فراشها قبل عودته.. وفي المساء سمعت صوت عربته تقف بالباب، ثم سمعت دقته للجرس، وخطواته، وحديثه مع الخادم. لقد صدَّق ما قيل له عن اعتكافها ولم يبال بأن يتحقق منه أو يستفسر عنها، بل مضى رأساً إلى مخدعه.. إذن فقد انتهى كل شيء! ولاحت في خاطرها - في وضوح وحدة - فكرة الموت، باعتباره الوسيلة الوحيدة التي تعيد بها حبها إلى قلبه، وتنتقم منه!.. لم يعد يهمها الآن أن تذهب أو لا تذهب إلى الريف، أن تحصل أو لا تحصل على طلاق!.. وإنما كل ما يشغلها الآن أن تعاقبه!.. وحين صبت لنفسها الجرعة المألوفة من الدواء المحتوى على الأفيون خطر ببالها أنه يكفيها لكى تموت أن تجرع محتويات الزجاجة كلها. ما أسهل ذلك وأبسطه!.. وبدأت تصور لنفسها في لذة، مبلغ الألم الذي سوف يقاسيه بعد موتها، والندم الذي سيندمه، والحب الذي سيريقه على ذكراها، بعد فوات الأوان!.. ورقدت في فراشها، مفتوحة العينين، ولم تكن تضىء المخدع غير شمعة واحدة في خريف عمرها، فحدَّقت " آنا " في

الظلال المتماوجة على السقف وعادت تتخيَّل ما سوف يحسه حين لا تبقى منها غير ذكرى!

وحين نهضت في الصباح، عاودتها أحداث اليوم السابق، وراحت تحدِّث نفسها: " في بداية اليوم تشاجرنا، كما فعلنا مرات من قبل. وفي المساء قلت إنى أشعر بصداع، لكنه لم يأت ليرانى، وغداً سنسافر إلى الريف. يجب أن أراه وأعد العدة للسفر".. وإذ علمت أنه في حجرة المكتب مضت إليه. وفيما هي تعبر الردهة سمعت صوت عربة، فأطلَّت من النافذة.. وإذا بها ترى فتاة حسناء ذات قبعة أنيقة تعطى تعليماتها للحوذي، الذي صعد فدق الجرس، وبعد قليل هبط فرونسكي السلم فصافح الفتاة، التي أعطته طرداً صغيراً، فابتسم وقال لها شيئاً، ثم انطلقت العربة بها.. وعاد هو أدراجه إلى الداخل!

.. وفجأة انقشع الضباب الذي كان يغلف كل شيء في وعى " آنا "، وعادت أحداث الأمس تخز قلبها المريض بوخزات جديدة موجعة. فلم تفهم كيف فكرت منذ حين في إذلال نفسها بمصالحته والبقاء معه تحت سقف واحدا!.. ومضت إليه لتعلن إليه عزمها، فاستقبلها موضحاً: " إنها كانت مدام سوروكين وابنتها، أحضرا لى من بيت أمى

النقود والسندات التي لم أستطع الحصول عليها أمس. وعلى فكرة. كيف حالك؟ هل ذهب عنك الصداع؟".. فنظرت إليه صامتة، وقد وقفت في وسط الحجرة، و لما لم تجب قطَّب جبينه قليلًا ثم انكب على خطاب في يده يقرأه.. فأعطته ظهرها واتجهت إلى الباب. وحين بلغته استوقفها قائلًا: " سوف نسافر غدًا، أليس كذلك؟".

- أنت، لا أنا!

- " آنا".. لا يمكن أن نستمر على هذا المنوال! هذه حال لا تطاق!

- سوف تندم على كلامك!

.. ثم خلفته وخرجت لا تلوى على شيء! وأفزعته اللهجة اليائسة التي نطقت بها عبارتها الأخيرة، فقفز من مقعده ليلحق بها، ثم أمعن الفكر فجلس ثانية، وهو يعض شفته بأسنانه: " هذا التهديد المبتذل بشيء غامض بات يثيرني. لقد جربت كل وسيلة، ولم يبق غير عدم المبالاة.. فلأجرب هذه الخطة!".. ثم أعد عدته للسفر إلى الضاحية التي تقطنها أمه كي يحصل على توقيعها على بعض الأوراق!

ووقفت " آنا " ترقبه و هو يصعد إلى العربة، ويضع ساقاً على ساق ثم يرتدى قفازيه، وتختفى به العربة عند أول منعطف!.. وهمست لنفسها: " لقد ذهب!.. انتهى كل شيء!".. وعاودتها ذكرى الظلمة التي سادت مخدعها بالأمس حين انطفأت الشمعة، فملأ قلبها رعب بارد، وشعرت بخوف من الوحدة، فصاحت بصوت مسموع وهي تعبر الغرفة وتدق الجرس: " كلا، هذا لا يمكن أن يكون!".. وحين أقبل الخادم سألته عن وجهة سيده، فقال: " إنه ذاهب إلى حظائر جياده "، فطلبت إليه أن ينتظر لحظة ثم جلست إلى منضدة فكتبت إلى فرونسكي هذه الكلمات: " كنت على خطأ، عد ثانية. يجب أن أوضح لك الأمر. بحق السماء عد. إنى خائفة! "، ثم وضعت الورقة في ظرف وكلّفت الخادم بتسليمها إلى رسول يحملها فوراً إلى سيده!.. ولبثت تعد الدقائق وتفكِّر، قائلة لنفسها: " إنه سوف يعود. ولكن كيف يوضِّح ابتسامته للفتاة في العربة، وانفعاله وهو يتحدَّث إليها؟ ولكن حتى لو لم يبرر موقفه فإنى سأصدقه. لأنى إذا لم أفعل فلن يبقى أمامى غير شيء واحد، لست أجرؤ عليه!".. ونظرت إلى ساعتها. لقد مضت عشرون دقيقة. إنه قد تسلم الرسالة الآن، وهو الآن عائد في الطريق.

بعد عشر دقائق يصل.. " ولكن ماذا لو لم يعد؟ كلا! هذا مستحيل!.. ينبغي ألا يرانى دامعة العينين، سأذهب لأغتسل.. هل هذبت شعري؟ لست أذكر!".. ومرت بيدها على شعرها، فاطمأنت وعادت تنظر في الساعة. إن موعد وصوله قد اقترب. واتجهت إلى النافذة. " كان يجب أن يكون قد وصل الآن.. ربما أخطأت في حسابي!".

وعادت إلى حساب المسافة والزمن!

حين أقبلت العربة أخيرًا، خُيّل إليها أن الفرج قد أطلّ من بعيد، ولكن سرعان ما تبدّد الرجاء، فقد نزل الخادم ليخبرها بأنّه لم يعثر على أثره في الإسطبلات... لقد غادر!

صرخت "آنا"، وصوتها يهتزّ برعدة الانفعال:

. احمل رسالتي إلى قصر الكونتة، والدته، في ضيعتها... ولا تعد إلا بردّ عاجل!

وما إن أغلق الرسول الباب خلفه، حتى تكلّمت مع نفسها كمن يهذي:

. ولكن، ماذا أصنع في انتظاره؟ إن بقيت هنا، انقضّ عليّ الجنون

بمخالبه... لا، لا، لن أبقى وحدي، سأذهب إلى دوللي! ثم... نعم، أستطيع أن أبعث إليه ببرقية أيضًا!

تناولت ورقة مرتعشة، وكتبت بقلم يرتعد في يدها كما يرتعش القلب عند الوداع:

. يجب أن أتحدث إليك... عد فورًا!

وانطلقت كمن يفرّ من نار إلى غريق، وضعت قبعتها على رأسها وأمرَت العربة أن تقلّها إلى بيت آل أوبلونسكي.

لكن حين غادرت منزل "دوللي"، كانت أشدّ وهنًا، وأعمق حزنًا، وأثقل صدرًا مما كانت حين دخلته... لقد صادفت "كيتي" هناك، وما وجدت من الشجاعة أو العذر ما يتيح لها أن تفضي بشيء، ولو كان بعض همّها، إلى "دوللي."

وعلى عذابها القديم، أضيفت مرارة أخرى، مرارة الذلّ، إذ شعرت، حين وقع بصرها على "كيتي"، أنها امرأة مطرودة من رحمة المجتمع، منبوذة في عيون الناس والضمائر...

وما إن وطأت قدماها عتبة المنزل حتى التهبت في قلبها جمرة الرجاء:

. أما من برقية لي؟

ناولها الحارس ورقة مختومة، فمزقتها بأصابع مرتعشة، وقرأت:

. لا أستطيع الحضور قبل العاشرة... فرونسكي.

فاشتعل الغضب في قلبها نارًا، وتفجرت فيها رغبة جامحة في الانتقام، وقالت لنفسها:

. نعم، أعلم ما الذي يجب أن أفعله الآن... سأذهب إليه، سأقول له كل شيء دون خوف أو وجل، ثم أختفي من حياته كما يختفي السراب عند أول خفقة ريح.

ثم أردفت، وقد اشتدّ في قلبها الغليان:

. ما كرهت يومًا إنسانًا كما أكرهه الآن... لا بد أنه يجلس هناك الآن، إلى جوار أمه، يلاطف الفتاة "سوروكين"، يتسامر معها، وربما يسخر من عذابي القاتل! نعم... يجب أن أراه! الآن!

أحاط بها البيت كأنه قبر لا نافذة فيه... كل شيء فيه – الجدران، الأثاث، الوجوه الصامتة – يوحي بالضيق والاشمئزاز، وكأن الجدران تنهار على صدرها لتخنقها بأنقاض الذكرى!

. لا مفرّ... إلى المحطة إذن! إن سبَقني، فلألحقنّ به في القطار التالي!

وأسرعت، فأعدّت حقيبة صغيرة، جمعت فيها ما يكفيها لبضعة أيام فقط، وكأنها كانت على يقين أنها لن تعود أبدًا إلى هذا المكان البغيض... لم تفكّر في الغد، ولا في ما ستكون عليه بعد أن تنفث في وجهه لهيب الكلمة الأخيرة... كل ما فكّرت فيه أنها سترحل، وستدعه يتجرّع مرارة الحقيقة، كما تجرّعت هي كأس الهوان حتى الثمالة.

وإذا بها في قلب المحطة، تندس بين الزحام، وتستقل قطار الضواحي المتجه نحو الضيعة... وهناك دق الجرس، إيذانًا بالرحيل، فانبعثت ضوضاء كأنها أزيز خلية نحل هائجة؛ صياح، وضحكات، وهمهمات متداخلة... ارتج قلب "آنا" ونفرت فيها مشاعر كالشرر: أفي هذه الدنيا ما يُضحك؟ أفيها شيء يدعو إلى السرور؟

وأغمضت عينيها لتهرب من ضحكات البشر كما يهرب المرء من وخز الإبر، لكن الضحكات تتعالى، تتناثر حولها كسهام باردة تخترق صدرها الموجوع.

ودوّت صفارة القطار، وراح البخار يزفر أنفاسه الحبيسة، وانطلقت السلاسل تتجلجل، كأنها قيود الفقد تحكم وثاقها.

بدأ الرصيف يهتزّ، أو لعل القطار هو الذي سار بمحاذاته، ثم راحت العجلات تنساب فوق القضبان بنعومة محزنة، كأنها تسير على صدر الزمن نفسه.

تسرّبت من نافذة العربة شمس الغروب، شاحبة كوجه شيخ أنهكه السهر، وهبّت نسمة خفيفة تداعب الستائر في رفق، كأنها لمسة وداع...

عادت "آنا" إلى أعماقها، تخاطب ذاتها الممزقة:

. أين انتهيت في رحلتي الفكرية قبل أن تنغلق عليّ أبواب العربة؟ آه، تذكرت... كنت أبحث عن مخرج، عن خيط ضوء ينتشلني من ظلام تعاستي. لكن لا خلاص... لقد خُلقنا للتعاسة، ونحن ندرك

ذلك، غير أننا نصرّ على خداع بعضنا البعض، نخترع الأكاذيب، نجمّل القبح، ونتزين بالأمل الكاذب.

وصل القطار، وتوقّف في المحطة المنشودة، فنزلت "آنا" وسط الزحام، كأنها قطعة ليل تتهادى بين أشباح النهار.

أزاحت الناس عنها كمن يدرأ عنه الطاعون، ثم انزوت في ركن من الرصيف، تتأمل ما اقترفت... تُرى، ما الذي جاء بها إلى هذا المكان؟ وما الذي تنوي أن تفعله حين تراه؟ حين تلاقي أمه؟ حين تُحدّق في عيون أولئك الذين يعرفونها؟

ما بدا سهلاً في لحظة الألم والاندفاع، بدا الآن معقّدًا، مشوبًا بالندم والخوف.

وجاء الحمالون، يتسابقون كالصقور إلى فريسة، لا يتركونها في حالها، يحاصرونها بأسئلتهم وخدماتهم الرخيصة، فأشارت إلى أحدهم وسألته بصوت مجروح:

. هل رأيت حوذيًّا يحمل رسالة من الكونت فرونسكي؟

فرد الحمال، وكأنّما نال شرفًا عظيمًا:

. الكونت؟ وصلت عربته منذ دقائق، يستقبل الأميرة سوركين وابنتها!

وفي اللحظة ذاتها، أقبل الحوذي الذي كانت قد بعثته برسالتها، تعلو وجهه ابتسامة النجاح، وفي يده ردّ الكونت...

أخذت الرسالة، مزّقت الغلاف، وقرأت بعينين تقدحان شرر الخيبة:

. آسف لأن رسالتك لم تصلني إلا الآن... سأعود في العاشرة.

تجلّت على وجهها ابتسامة كالسكين، باردة، حادة، وقالت لنفسها:
. هذا ما كنت أتوقّعه...

وصرفت الحوذي بإشارة مرتجفة، ثم رفعت عينيها إلى السماء، وكأنها تخاطب تلك القوة الخفية التي حبكت مأساتها:

. كلا، لن أدعك تواصلين تعذيبي!

لم يبق أحد على الرصيف، صار المكان خاليًا إلا منها، وظلال المساء التي تمدّ أطرافها بتؤدة.

اتجهت إلى آخر الرصيف، تحدث نفسها بصوت تائه:

.إلى أين؟ إلى أين أذهب؟

وفجأة، تراءى لها مشهد قديم، صورة محفورة في وجدانها لا تنمحي: ذلك العامل الذي التهمه القطار يوم التقت فرونسكي لأول مرة... ففهمت، كأن السماء همست لها بالحل الأخير.

في خطوات واهنة لكنها مصمّمة، نزلت الدرج المؤدي إلى سكة القطار...

وقفت عند الحافة، على مسافة نبضة من المجهول...

كانت عيناها تتابع قطار البضاعة المقبل من الاتجاه المعاكس، تتأمل أسفل العربات، تقيس الفجوة بين العجلات الأمامية والخلفية، وتقول في سرها:

.هناك... هناك في المنتصف... هناك ينتهي كل شيء...

نظرت إلى التراب المتراكم، إلى رماد الفحم، إلى الصدأ المتيبس على الفلنكات، ثم همست لنفسها، كأنها توقع حُكمًا أخيرًا:

. سأعاقبه... سأفرّ من كل شيء... من الناس، ومن ظلالهم، بل من نفسي...

ثم فتحت ذراعيها كمن يعانق الخلاص، واندفعت في صمت أبدي.

وإذ وجدت نفسها في المحطة، وحيدة كالمنفية في مملكة الصخب، استقلت قطار الضواحي نحو الريف البعيد. دوّى الجرس معلنًا انطلاق القطار، وتصاعدت من حولها ضجّة الحياة، وضحكات لا تكترث للعابرين في دهاليز الألم. زاد صخب المودّعين، وتعالت أصوات الضاحكين، فهزّها سؤال غائر في أعماقها: أفي الوجود ما يستحق أن نبتسم له، بل نضحك؟ كم تمنت أن تُصمّ أذناها، لتنجو من تلك الضحكات التي كأنما تُسفّه عذابها.

أطلقت صفّارة القطار أنينها الطويل، وتنفّس البخار المختنق، وتقلقلت السلاسل، وسارت الحجارة كأن الرصيف قد أُصيب بالدوار، أو لعلّه القطار يهدر بمحاذاته، يعبر الزمن كعابر سبيل لا يبالي بمن يُخلّف وراءه. وراحت العجلات تنساب فوق القضبان بانسياب القدر،

وأطلّت شمس المغيب من نافذة العربة، تهزّ بأشعتها ستارة خفيفة هزّ النسيم الوديع.

حينذاك، عادت "آنا" إلى نفسها، إلى التفكير الذي لم يكن له أول ولا آخر. قالت في سرّها: "أين كنتُ قد توقفت؟ آه، نعم... وصلت إلى أنني لا أجد لحياتي مخرجًا يُنقذني من هذه التعاسة الكثيفة كالدخان! لقد وُلدنا، نحن البشر، كي نتعذب... ونعرف ذلك، ومع هذا نتفنّن في حِيَل الوهم كي نخدع بعضنا ونخدع أنفسنا"!

بلغ القطار محطته، فانسابت مع الركّاب النازلين كما تندلق القطرة الأخيرة من إبريق الحياة، ثم انحرفت عنهم كمن يتفادى لمسة الأجرب. سارت على الرصيف كأنها تسير في ممر مظلم داخل ذاتها، تسائل نفسها: "ما الذي أتى بي إلى هنا؟ وماذا سأقول له؟ وماذا سأفعل حين ألقاه، وألقى أمه، وألقى كل تلك الوجوه التي تعرفني؟" لقد بدت لها الخطوة معقولة حين كانت فكرة، سهلة حين كانت خيالًا... لكنها الآن، بين هذا القطيع الصاخب من البشر والحمالين، صارت مستحيلة، شائكة، كأنها تسير بين شوك من نار!

راودها خاطر أن تسأل أحد الحمالين الذين التفوا حولها كالذباب على جرح، هل لمح حوذيًا يحمل رسالة من الكونت فرونسكي؟ فأجابها الحمال متحمسًا، بنبرة تُخفي ما لا تدري: "الكونت فرونسكي؟ لقد وصلت عربته قبل قليل، جاءت لاستقبال الأميرة سوركين وابنتها".

وما إن همّت بالرد حتى أقبل الحوذي الذي أرسلته إلى فرونسكي، وجهه يتهلل، كأنه أتم مهمة مقدّسة. ناولها الرسالة، ففضّتها، وإذا بها مكتوبة بخط فاتر، متكاسل، لا يليق بعاشق ولا بمن ينتظر عاشقة: "آسف لأن رسالتك لم تصلني إلا الآن... سأعود في العاشرة".

تقلّص وجهها، وارتسمت عليه ابتسامة شريرة كطيف الموت حين يُطلّ في لحظة حياة. همست في نفسها بمرارة الحديد: "كما توقّعت! نعم... هذا هو!" ثم صرفت الحوذي بصوتٍ كأنّه يُقتلع من صدرها اقتلاعًا، وخاطبت قوة غامضة كانت تظنها تسوق عذابها: "لا... لن أدعك تواصلين تمزيقي"!

وخلا الرصيف من الناس، وساد صمت ثقيل كأن المحطة نُزعت من الزمن. مضت نحو طرف الرصيف الأقصى، تسير وهي تهمس لنفسها كمن يكتب وصيته الأخيرة: "إلى أين؟ إلى أي درب يُمكنني الهرب؟"

عندها، ومضةٌ خاطفة انبثقت في ذهنها: صورة العامل الذي سحقه القطار يوم التقت بفرونسكي للمرة الأولى... تلك اللحظة لم تكن مجرد مصادفة، بل نبوءة من قدرٍ ماكر. فهمت الآن ما يجب عليها فعله!

وفي خطوات خفيفة، كأنها تسير فوق زجاج الروح، هبطت درجات السلم المؤدي إلى حافة السكة، ووقفت قبالة قطار البضائع القادم من الاتجاه المعاكس. عيناها ثابتتان على الفراغ بين العجلات، تقيسان المسافة كمن يحسب آخر فاصلة في قصيدة وداع. نظرت إلى الفلنكات المكسوّة بغبار الفحم، وحدّثت نفسها: "هناك... في المنتصف تمامًا... سأنتقم. من من؟ من العالم، من نفسي، من الحياة التي صارت قيدًا لا يُفك"!

وهمّت أن تُلقي بنفسها تحت العربة الأولى، لكن الحقيبة الحمراء التي ما زالت في يدها أعاقتها عن اللحظة المنشودة. تأخرت لحظة... فصارت أبديّة! وقفت تنتظر العربة التالية، وجسدها ينتفض كالذي يهمّ بالقفز إلى نهر مظلم لأول مرة. رفعت يدها، ورسمت بعجلة علامة الصليب.

وهنا، تدفقت في كيانها سيول الذكريات... طفولتها، براءتها، دفء الأمسيات القديمة، حكايا الجدة، ضحكة كانت ذات يوم تعني الفرح... انقشع السحاب عن عالمٍ مضى، وظهرت الحياة في لحظة خاطفة، بكامل بهائها الذي نُهب منها ذات وجع. لكن عينيها لم تغادرا الفراغ المميت بين العجلات.

وحين دنت اللحظة، وأسلمتها العربة الثانية إلى مصيرها، أسقطت الحقيبة من يدها، وانطرحت بجسدها المتعب تحت العجلات!

ارتجف قلبها، وارتعش لسانها: "أين أنا؟ ماذا فعلت؟ ولماذا؟" حاولت أن تتراجع، أن تنهض، أن تصرخ في وجه المصير... لكن صدمة

عنيفة كالموت صفعها، وضرب رأسها ضربة أخرست كل صوت فيها. شهقت شهقةً خافتة، وقالت: "يا ربّ، اغفر لي"!

شعرت أن كل مقاومة ذابت، تبعثرت كرماد الريح. والنور الذي كان ينير صفحات حياتها المملوءة بالأكاذيب، والخذلان، والمسرّات الزائفة، ذلك النور الذي لطالما ظنته خافتًا... أضاء فجأة، بشعاع خاطف أخير، كشف لها كل ما كان مظلمًا... ثم بدأ يخبو، يخفت، ينسحب من عينيها كما ينسحب المدّ من ساحلٍ منسي... إلى أن انطفأ... إلى الأبد!